

BOBST LIBRARY



3 1142 02651 0738



Elmer Holmes  
Bobst Library

New York  
University

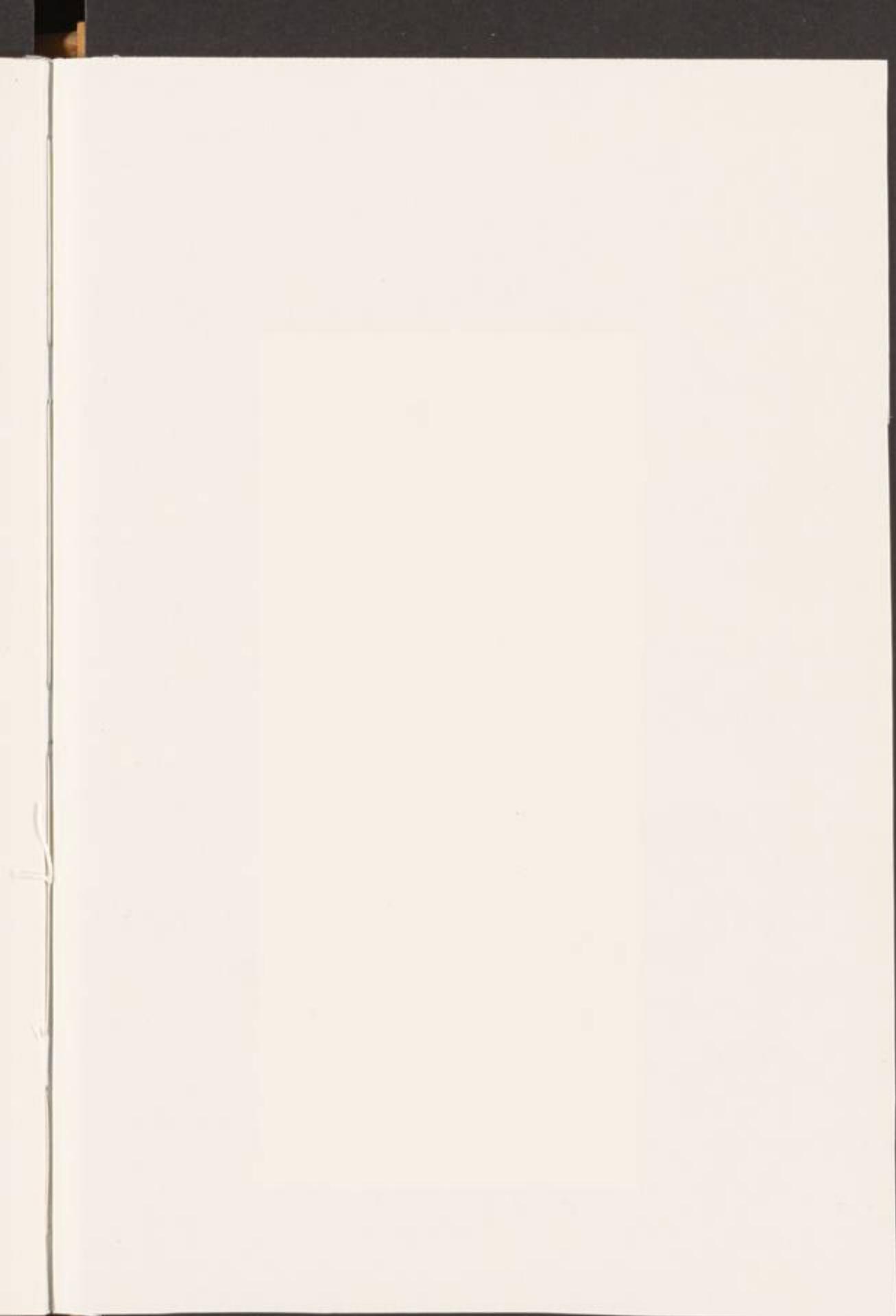


New York University  
Bobst Library  
70 Washington Square South  
New York, NY 10012-1091

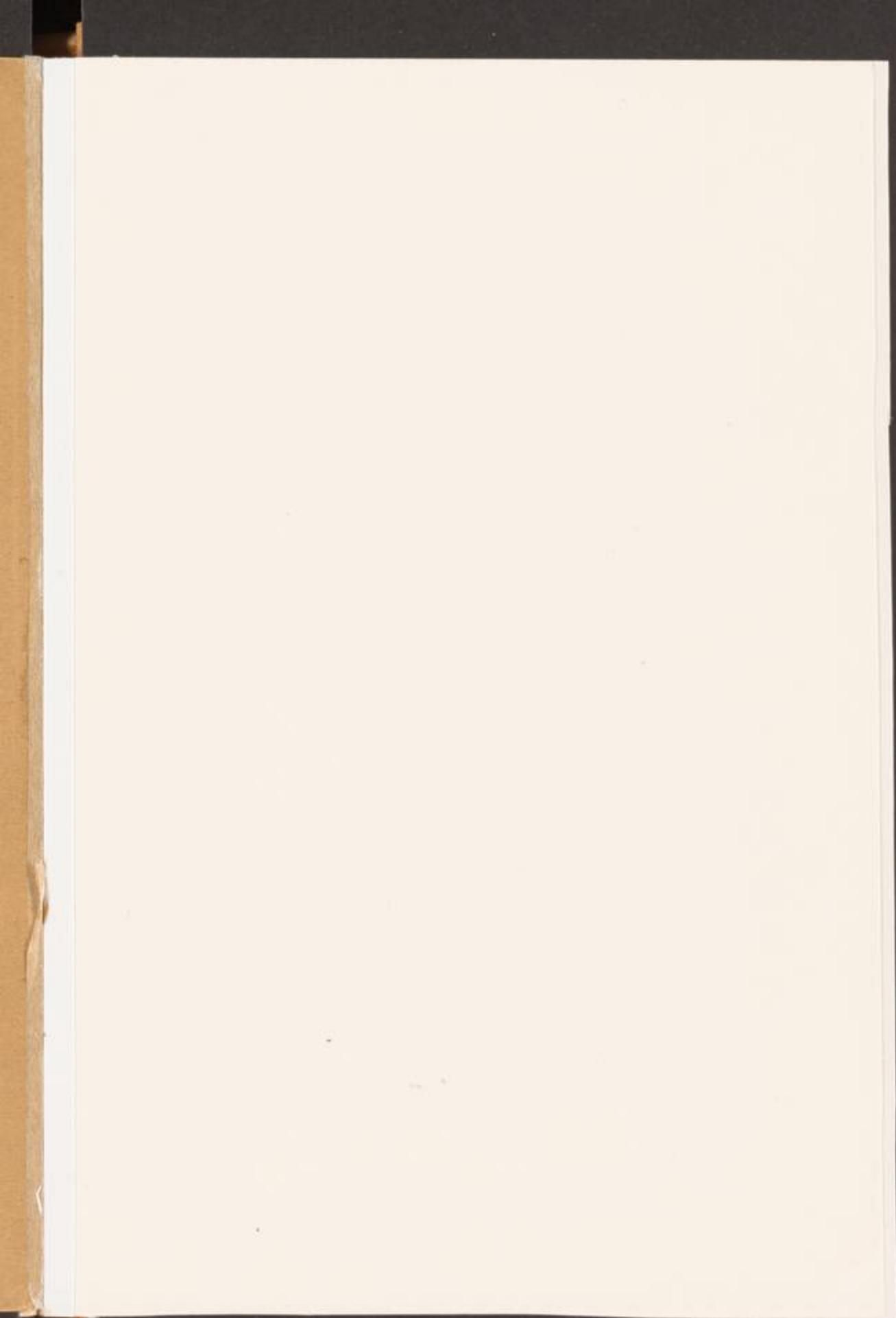
DUE DATE

DUE DATE

\* ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL \*





# الأداة الإسلامية

في عصر العرب

تأليف

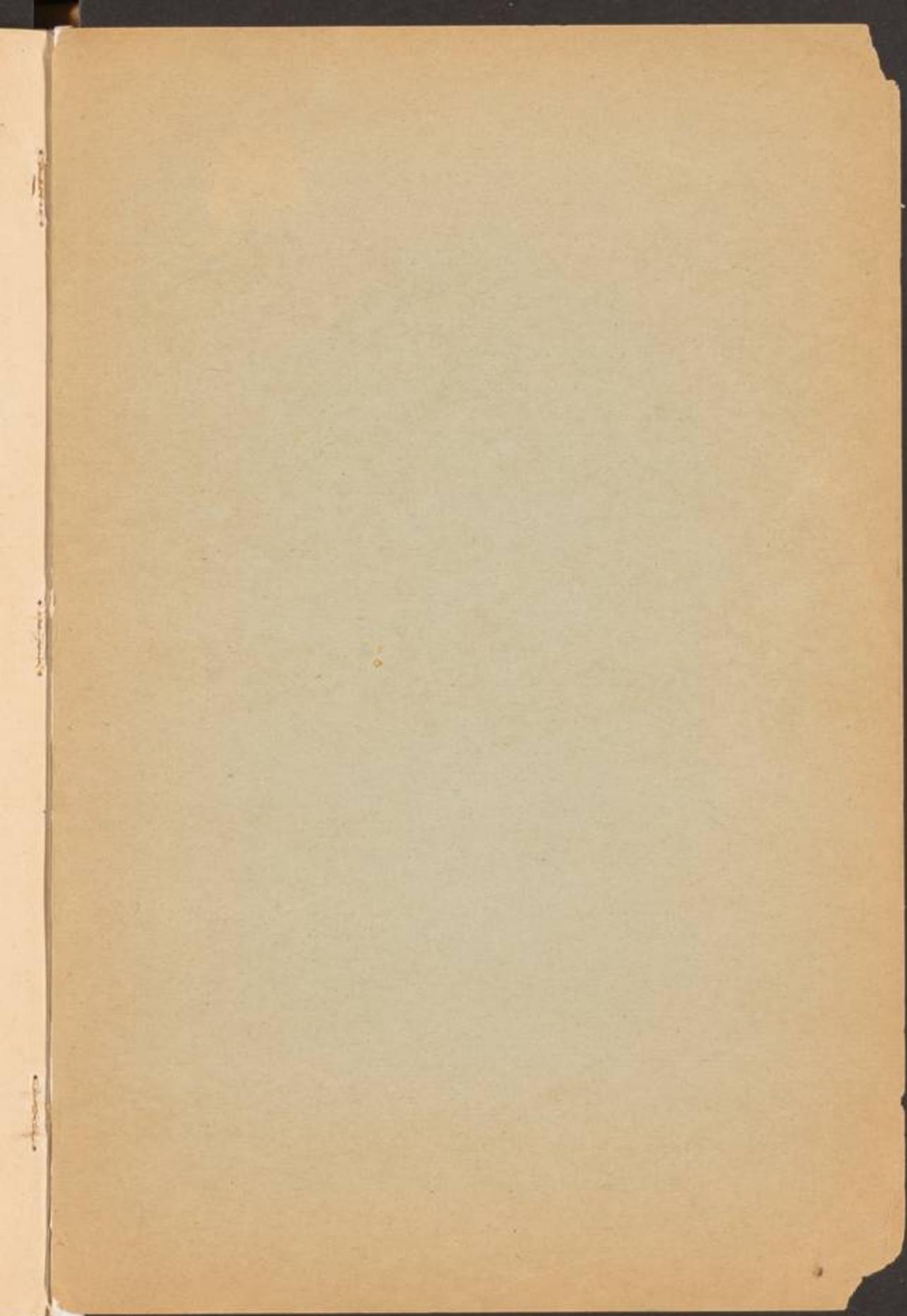
محمد كرد علي

طبع على نفقة صاحبة العصمة قوت القلوب هانم الدمرداشية

القاهرة

مطبعة النهضة ٤٠ شارع نوبارينا (سابقا شارع الدواوين)

١٩٣٤



Kurd 'Ali, Muhammad

الإدارة الإسلامية

في عجز العرب

تأليف

محمد كرد علي

طبع على نفقة صاحبة العصمة قوت القلوب هاندة الدمرداشية

/al - Idarah al - Islamiyah fi  
'izz al - 'Arab/

القاهرة

مطبعة مطهر ٥٠ شارع نورا اريانا (سابقا شارع الدواوين)

١٩٣٤

DS  
223  
.K8  
1934.

#r026510738

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه محاضرات ثمان في الادارة الاسلامية على عهد عز العرب  
حاضرت بها في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية تحت إشراف كلية الآداب  
من فروع الجامعة المصرية - جمهوراً من الطبقة المستنيرة في القاهرة  
في شهر رمضان سنة ١٣٥٢ هـ ( ١٩٣٣ م ) . وكان ممن حضر هذه  
المسامرات من أولها إلى آخرها صاحبة العصمة السيدة المهذبة قوت  
القلوب هانم الدمرداشية من ربات البيوتات المصرية الشريفة وسليمة  
البيت الكريم بيت أبي عبد الله المحمدي الشهير، فراقها أسلوبها في  
البحث . وبالاتفاق مع عميد كلية الآداب العلامة الدكتور منصور  
فهمي بك رأت طبع هذه المحاضرات على نفقتها لتعم فائدتها العالم  
الاسلامي . فكان عمل هذه العقيلة النبيلة برهاناً آخر على نهضة المرأة  
المصرية المسلمة، وحرصها على مساهمة الرجال في الأخذ بمذاهب الثقافة  
العربية ، فأضافت مكرمة أخرى الى مكارم أهلها . جزاها الله عن عملها  
الصالح أفضل الجزاء .

محمد كرد علي

القاهرة في ٢١ شوال سنة ١٣٥٢ و ٦ فبراير سنة ١٩٣٤ م



## الإدارة الإسلامية

### نظر في الموضوع

كثيراً ما حاول بعض الباحثين في شؤون الإسلام على عهده الأول أن يصوروا العرب في غير صورتهم ذهاباً مع أهواء النفوس ، وان يستنتجوا استنتاجات ناقصة في أحكامهم على الرسول عليه الصلاة والسلام ويفضوا من بعض أصحابه وينحوا انحاء شديداً على المدينة الإسلامية زاعمين أن العرب حتى في الإسلام لم يعملوا عملاً يذكر في باب التمدن وأنهم مقلدون في جميع أعمالهم ما زادوا على ما تعلموه من الروم والفرس من أساليب الحضارة . ولو صح ما قالوا لكانت قوانين فارس والروم صالحة للبقاء وافية بالغرض ، ولما استطاع العرب أن ينزعوا سلطان تينك الأمتين العظيمتين عن أجمل أصقاع الأرض ويحكموها وينظموها على مثال مبتكر لم تكده تشهد البلاد مثله .

وسنثبت في سلسلة هذه المحاضرات في الإدارة الإسلامية على عهد التفوق أن الإسلام ابتكر وأبدع في الحرب والإدارة والسياسة كما اخترع وأبدع في العلم والتشريع وأسباب المدينة على نحو ما يتجلى في صفحات التاريخ الإسلامي ، ونأني بالبراهين التي لا يسع منصفاً عارفاً إنكارها . ونكتفي الآن بأن نقول إن من أهم المعجزات المحمدية بعد القرآن هذه الطبقة العالية من الصحابة السكرام الذين خرجوا من تلك البوثة الطاهرة ذهاباً ابريزاً وكانوا من أجمل أدوات الإبداع فأبانوا في كل مواقفهم عن عقول مثقفة ونفوس شريفة وبعد نظر في إدارة الشعوب والممالك .

ولقد قضى هذا الضعيف الواقف بينكم زمناً طويلاً يتأمل ما كتب في تراجم الصحابة وتاريخ أعمالهم وتعليلها وحلها فما رأى، علم الله، بعد طول النظر واستعمال العقل النقاد الا ما يعجب منه . واذا كانت هناك بعض هنات قليلة نسبت لبعضهم فإنها ناشئة من خطأ في الاجتهاد . ومن الميسور أن يجاب عنها لان الصحابة كانوا بشراً أيضاً ، وحب الدنيا قد لا يخلو منه أمثل الناس أخلاقاً . بيد ان التربية التي ورثها الصحابة من الشارع الأعظم قد هيأتهم لممارسة الأعمال العظيمة ، لما أخرجهم بهديه من الظلمات إلى النور ، فكانوا عظاماً في كل مظاهرهم حتى أدهشوا الأمم بجميل صنعهم ، وانشأوا في نحو مائة سنة مملكة عظيمة لم يسبق لأمة قبلهم أن دانتهم في مثل ما تم على أيديهم .

أو كان يقوم كل هذا لولا ان الصحابة كانوا على استعداد فطرى تام لتلقى فضائل صاحب هذا الوحي العظيم فساروا بسيرته وعملوا بشرعته في كل أرض ووطنها أقدامهم وارتفعت على ربوعها أعلامهم . ان ما نقله العرب عن غيرهم من ترايب الممالك معروف ومعترف به ، والإنصاف يقضى أن يسجل لهم قسطهم من الأعمال المنبغثة مباشرة من قرآنهم المزيّنة بأخلاق عالية ما عهد فيما نظن مثلها كثيراً في الأمم السالفة ولا الخالفة .

وها نحن أولاً نبدأ الليلة في الكلام على الإدارة في عهد الرسول وعمدتنا فيما تقتبس كتب الثقاة والأمهات للمعتبرة، وخطتنا أن نتحاشى الأستنتاج بالمقياس الواسع إذا كانت الوثائق التي لدينا غير كافية . ومن الصعب على من يتوخى العدل أن يحكم على الشبهة ويحسم الصغير ، وإذا فعل يسكون الحق في واد وهو في واد آخر . وهذا مما لا يليق بباحث غرضه الوصول إلى النور وإيصاله إلى من يهمهم أن يستعجبوا به في موضوعات يشق على كل انسان خوض عباها .

## ادارة الرسول

دعا الرسول الى الإسلام لأول مبعثه ثلاث سنين سرّاً ، ولما اضطهد للمشركون من قريش أصحابه أرادهم على التفرق في البلاد ، وأشار اليهم بالهجرة مع نساءهم إلى أرض الحبشة ، علماً منه بأن صاحبها يحسن جوارهم ولا يظلمهم ويُعنتهم ، ثم دعا المسلمين الى المهاجرة الثانية فراراً بدينهم من أذى قريش الذين اشتدوا عليهم ، ومن جملة هذا الأذى انهم كانوا يلبسون المستضعفين من المؤمنين برسالة الرسول أذراع الحديد ثم يصهرونهم في الشمس ، فبلغ منهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ من حرّ الحديد والشمس . وكانوا يلصقون ظهر بعضهم بالرّصف<sup>(١)</sup> حتى ذهب لحم متنه . وعن ابن عباس « والله إن كان المشركون ليضربون أقدامهم ويجمعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة وحتى يقولوا له آلات والعزّي إلهك من دون الله فيقول نعم » . فكان الأمر بالهجرة أولاً وثانياً أول تدبير إداري من الرسول ، أتقذ به أصحابه من عنّت المشركين ، ريثما تستحكم قواه فيعود على أعدائه يعرفهم أقدارهم ، ويناقشهم أوزارهم .

وصحوا حديث « لاهجرة بعد الفتح » وقالوا إن الهجرة<sup>(٢)</sup> كانت واجبة في أول الإسلام على ما دل عليها الحديث ، ثم صارت مندوباً اليها غير مفروضة ، وذلك قوله تعالى : (ومن يهاجر في سبيل الله فيجد في الأرض مراعماً<sup>(٣)</sup> كثيراً وسعة) نزلت حين اشتد أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسول الله إلى المدينة ، وأمروا

(١) الرصف الحجارة المحماة (٢) الاعتبار في النسخ والنسخ من الآثار للحازمي (٣) مهاجراً

بالانتقال الى حضرته ليكونوا معه ، فيتعاونوا ويتظاهروا ان حَزَبَهُمْ أمر ، وليتعلّموا من أمر دينهم ويتفقهوا فيه ، وكان أعظم الخوف في ذلك الزمان من قریش وهم أهل مكة ، وكان جميع من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبناءهم الذين خرجوا بهم صغاراً أو ولدوا بها نيفاً وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة . وقال الرسول : أنا بريء من كل مسلم مع مشرك قيل لم يارسول الله؟ قال : لا تراى ناراهما ، أى يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموضع الذى أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك اذا أوقدها في منزله ولكن ينزل مع المسلمين في دارهم . وإنما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان وحث المسلمين على الهجرة .

ولما ظهر الاسلام على الشرك طفق الرسول يدعو الى دينه جبهة وأخذ يرسل أمثله من دخلوا في الاسلام من الرجال لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم . واذا وفد عليه وافد يعهد اليه أن يعلم قومه دينهم و« إمام كل قبيلة منها لنفور طباع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها » وإذا كان الوافد من رؤوس قبيله يُوسد اليه جباية الفى ، ويأمره أن يبشر الناس بالخير ويعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ، ويوصيه أن يلين للناس في الحق ، ويشدد عليهم في الظلم ، وأن ينهزم إذا كان بين الناس هيبج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له ، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين في الصدقة ، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن<sup>(١)</sup> عنها . وبعث معاذاً إلى اليمن<sup>(٢)</sup> فقال له : إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم اليه عبادة الله تعالى فإذا عرفوا الله

(١) فتن الرجل في دينه مال عنه (٢) تيسير الوصول لابن الديبع

تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتفق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . وكتب الى عمرو بن حريث عامله على نجران كتابا في الفرائض والسنن والصدقات والديات . واكتفى الرسول باخذ الجزية من أهل نجران وأيلة وهم نصارى من العرب ، ومن أهل ذومة الجندل وهم نصارى وأكثرهم عرب . (١) وبلغ أناساً من المشركين ممن لم يكن لهم عهد ولم يوافقوا الموسم ، أن رسول الله أمر بقتال المشركين ممن لا عهد لهم فقدموا على الرسول ليجددوا حلفاً فلم يصلحهم الرسول إلا على الاسلام واقام الصلاة وايتاء الزكاة فأبوا فغلب سبيلهم حتى بلغوا مأمنهم ، وكانوا نصارى من قيس بن ثعلبة فلحقوا بالجماعة ، حتى أسلم الناس ، فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على نصرانيته .

ولما كان الهدف الأسمى نزع الشرك من نفوس العرب أولاً ، رأينا الشارع إلى الفرق بأهل الكتاب لا يبايهم الشر إلا إذا قاوموه . وقد أحسن معاملة نصارى نجران ، وفدوا عليه ستين راكباً فيهم العاقب أمير القوم وذورأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي يصدر عن رأيه وأمره ، وفيه ثمانهم وصاحب رحلتهم ومعهم أسقفهم وخبيرهم وإمامهم وصاحب مذاراسهم (٢) فعاهدوه على أداء الجزية . وقال الرسول : من ظلم معاهداً أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجُه يوم القيامة . وقال : من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يَرَحْ رائحة الجنة . وقال : من قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشمها . وجعل دية المعاهد كدية للمسلم (٣) الف دينار ، وعن مالك بن الوليد قال : أوصاني الرسول

(١) أفضية رسول الله للقرطبي (٢) العاقب الذي يخلف السيد وهو نائبه في الرتبة ومنه جاء السيد والعاقب والثمال الغيات الذي يقوم بأمر قومه والمدارس البيت الذي يدرسون فيه (٣) كتاب الدييات للضحاك الشيباني

أن لا أخطو إلى إماره خطوة ، ولا أصيب من معاهد إبرة فما فوقها ، ولا أبني على إمام بالسوء .

ولم يحارب الرسول اليهود في خير وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده وأرادوا قتله وكشفوا ستر سيدة من الأنصار . ويهود بني النضير<sup>(١)</sup> وبني وائل هم الذين حاربوا الأحزاب عليه ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعواهم إلى حربته ، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقطع نخل بني النضير ثم صالحهم وحرق على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أوطانهم ، ويسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاءً على أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة<sup>(٢)</sup> ، وطاوله يهود خير وماكوه<sup>(٣)</sup> ثم صالحوه على حقن دمائهم وترك الذرية ، على أن يجلوا ويخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبرزة إلا ما كان منها على الأجساد ، وأن لا يكتموه شيئاً ، ثم قالوا للرسول إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماء فأقرنا فأقرهم . وفي بني النضير نزلت سورة الحشر . وأيد بنو قريظة لنقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على الرسول . فأمر بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم واستفائة<sup>(٤)</sup> أموالهم .

ووضع الرسول على المسلمين وغيرهم وعلى الأرضين والثمار والمماشية أموالاً بين الكتاب العزيز أصنافها في عدة آيات وبين حكم اتفاقها فقال : ( ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة<sup>(٥)</sup> بين الأغنياء منكم ) ( واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ) ( يسألونك عن

(١) سيرة ابن هشام (٢) الدرر وقيل السلاح كله (٣) ماكوه شاكوه والمماكة المشاخة وطلب الحط من الثمن (٤) استغناء المال أخذه فيأ والقي الغنيمة (٥) الدولة في المال أن يتداوله الأغنياء فيكون مرة لهما مرة لذلك

الأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ( إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا  
وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَارِسِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ  
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .

فالنبي ٤ خراج يؤخذ من أرض العنوة<sup>(١)</sup> والخراج ما يؤخذ من أرض الصلح<sup>(٢)</sup>  
ومما فتح عنوة وأكثر أهله عليه ، والجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والعشر  
ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها كأرض العرب وما أسلم عليه أهله  
أو فتح عنوة وقسم بين الغزاة . وما كانت الجزية تقبل من غير الكتابيين في  
الأرض العربية ،<sup>(٣)</sup> ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام إلا الإسلام . ومن  
الأرض ما صولح أهله على النصف من ثمارهم كأهل فدك ، وجعل النبي فدك له  
خاصة ، لأنه لم يوجف<sup>(٤)</sup> عليها المسلمون بنجيل ولا ركاب . والأفانل الغنائم في  
القتال ، والصدقة أنواع هي الزكاة وهي عشر الغلات التي تأتي من الأرض التي خلت  
من سكانها أو كانت مواتاً فأحيوها ، وصدقات للماشية هي زكاة السوائم من الإبل  
والبقر والغنم دون العوامل والمعلولة والصدقات عروض التجارة . قال ابن حبيب:<sup>(٥)</sup>  
أول ما بعث الله نبيه بالدعوة بعثه بغير قتال ولا جزية ، فأقام على ذلك عشر سنين  
بمكة بعد نبوته يؤمر بالكف عنهم ثم أنزل الله عليه : ( أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ  
ظَلَمُوا ) الآية ، وأمره بقتال من قاتله والكف عن من لم يقاتله وقال الله عز وجل :  
( فَاِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ) ثم نزلت  
برادة ثمان سنين من الهجرة فأمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب من قاتله أو

(١) العنوة القهر وفتح البلد عنوة أى قسراً (٢) مفاتيح العلوم للخوارزمي (٣) الخراج  
لابن يوسف (٤) أوجف الفرس أعداء والمراد تجهيز جيش لفتح البلد (٥) تيسير الوصول  
لابن الديبع

كف عنه إلا من عاهده ولم ينتقض من عهده شيئاً فقال : ( فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم أن الله غفور رحيم ) . وكل ذلك كان يؤخذ من اهدوا إلى الدين الجديد ومن بقوا على دينهم من اليهود والنصارى بعدل لا شطط فيه يدفعه المسلمون والمعاهدون طيبة نفوسهم ولم يتبرم به أحد .<sup>(١)</sup>

شكا يهود خيبر<sup>(٢)</sup> - « وكانت قرية الحجاز ريفاً ومنعةً ورجالا » وكان فيها عشرون ألف مقاتل<sup>(٣)</sup> - عبد الله بن رَوَاحَةَ . وكان الرسول يبعثه كل عام يحرص<sup>(٤)</sup> عليهم تهرم ثم يقول : إن شئتم فلکم وإن شئتم فلی ، فكانوا يضمونوه فشكوا إلى الرسول شدة حرصه<sup>(٥)</sup> وأرادوا أن يرشوه جلاواله حلياً من حلي نساءهم فقالوا : هذا لك وخفف عنا وتجاوز في القسم . فقال عبد الله : يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إلى وما ذاك بما لي على أن أحيف عليكم وأما ما عرضتم علي من الرشوة فإنها السحت وأنا لا تأكلها . فقالوا : بهذا قامت السموات<sup>(٦)</sup> والأرض .

ولقد كان الرسول يتخير عماله من صالحى أهله وأولى دينه وأولى علمه ، ويختارهم على الأغلب من المنظور اليهم فى العرب ليوقروا فى الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، يحسنون العمل فيما يتولون ويشرّبون قلوب من ينزلون عليهم الإيمان ، ويكشف أبدأ عملهم أى يفتشهم ، ويسمع ما ينقل اليه من أخبارهم . وقد عزل العلاء بن الحضرمى عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس شكاه وولى أبان بن سعيد وقال له : استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراهم<sup>(٧)</sup>

(١) العشر والحراج فى الخلافة العربية لمصطفى الشهابى ( مجلة المجمع العلمى العرفىم ١٢ )  
(٢) المعارف لابن قتيبة (٣) الحراج لابن يوسف (٤) بقدر (٥) تاريخ دمشق لابن عساکر (٦) تيسير الوصول لابن الديبع (٧) طبقات ابن سعد

وكان يستوفى الحساب على العمال<sup>(١)</sup> يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال : هذا لكم وهذا اهدى إلى . فقال النبي : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولأنا لله فيقول : هذا لكم وهذا اهدى إلى ، أفلا تعد في بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا . وقال : من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول<sup>(٢)</sup> .

وما انفك الرسول من استشارة أهل الرأي والبصيرة ومن شهد لهم بالعقل والفضل ، وأبانا عن قوة إيمان ، وتفان في بث دعوة الاسلام . وهم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حمزة وجعفر وابو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وسليمان وعمار وحذيفة وابو ذر والمقداد وبلال . وسموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول إسلام قومهم ، والنقيب الضمين . وكان له عرفاء أي رؤساء جند . ويكتب له بعض جلة الصحابة من الكملة<sup>(٣)</sup> ، والكملة في الجاهلية وأول الاسلام هم الذين كانوا يكتبون بالعربية ويحسنون العوم والرمي .

كان كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح علي بن أبي طالب . ومن كتب له أبو بكر وعمر وعثمان والزبير ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص وحنظلة الأسيدي والعلاء بن الحضرمي وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن أبي سلول والمغيرة بن شعبة وعمر بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتب فيما بينه وبين العرب وجهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنّة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وبلغ كتاب الرسول اثنين وأربعين رجلاً وكان صاحب سره حذيفة بن اليمان . وكان الحارث بن عوف المرى على خاتمه ، وخاتمه من حديد ملون عليه فضة نقش ثلاثة أسطر محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر . ويضع خاتمه أيضاً

(١) الحسبة في الاسلام لابن تيمية (٢) خيانة (٣) طبقات ابن سعد

عند حنظلة بن الربيع بن صيفي بن أخى أكرم ، ويكون خليفة كل كاتب من كتاب النبي غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب ، وكان مَعْيَقِيْب بن أبي فاطمة يكتب مقام الرسول ، وكذلك كعب بن عمرو بن زيد الانصارى كان يقال له صاحب المغام ، وحذيفة بن اليمان يكتب خرص تمر الحجاز ، والعلاء بن عتبة وعبدالله بن الأرقم يكتبان بين الناس في قبائلهم ومياهمم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان عبد الله بن الأرقم يجيب الملوك عن الرسول ، والزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات ، والمغيرة بن شعبة والحسين بن غير يكتبان للمداينات والمعاملات ، وشرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى الملوك . ومن شعرائه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك انتدبهم لهجو المشركين ، وخطيبه ثابت بن قيس . وكان زيد بن ثابت ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية . وناجية الطقاوى وناقع بن ظريب النوفلى يكتبان للمصاحف وشفاء أم سليمان بن أبي حنيفة تعلم النساء الكتابة وعبادة بن الصامت يعلم أهل الصفة القرآن ، وكانت دار مخزومة بن نوفل بالمدينة تدعى دار القرآن . وأول قاضٍ في المدينة عبد الله بن نوفل ومقرىء المدينة مصعب بن الزبير وأول لواء عقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش ، وعقد لسعد بن مالك الأزدى راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض وكان لوائه أبيض أو أصفر أو أغبر وله راية تدعى العقاب من صوف أسود مكتوب على رايته : لا اله إلا الله محمد رسول الله . وأول مغنم قسم في الإسلام مغنم عبد الله بن جحش . ومن عماله أبو دُجَانة الساعدي وسباع بن عُرْفُطة عامله على المدينة ، وكان ثلاثة أرباع عماله من بني أمية لأنه إنما طلب للأعمال <sup>(١)</sup> أهل الجزاء من المسلمين والغناء ، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها كما قال معاوية . واستعمل الرسول أبا سفيان بن

(١) تاريخ الطبرى

حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب ، ووجه راشد بن عبد الله أميراً على القضاء والمظالم .

وكان الرسول كثيراً ما يقول أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبي بن كعب ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وقال : خذوا القرآن من أربعة ؛ من عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وجمع القرآن أي حفظه جميعه من الأنصار أبي ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو قيس بن السكن ، هؤلاء أهم رجال الإدارة والقضاء والفقهاء والقرآن . وهناك طبقة أخرى تتولى الأعمال مثل عتّاب ابن أسيد الذي استعمله والياً على مكة ، ورزقه كل يوم درهما فقام يخطب ويقول : أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله درهما كل يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد . وهذا الراتب من أول ما وضع من الرواتب للعمال . وقد يكون رزقهم ما يطعمون منه على نحو ما أجرى على قيس بن مالك الأرحبي من همدان لما استعمله على قومه عربهم وحمورهم<sup>(١)</sup> ومواليهم فأقطعهم من ذرة نثار مائتي صاع ومن زبيب خيوان<sup>(٢)</sup> مائتي صاع جارٍ له ذلك ولعقبه من بعده أبداً أبداً . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون ما يتبلغون به من الغنائم وغيرها ، ومنهم من كان غنياً في الجاهلية والاسلام فجهز من ماله جنوداً في سبيل الله ، بل منهم من أنفق كل ماله في هذا الغرض وهو راض مغتبط .

ولقد آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار بأخوة الاسلام والايمان ولطالما أقطع القطائع<sup>(٣)</sup> ، وكان يتألف على الاسلام ، ويعطى من الصدقات من يريد

(١) لعل صوابه حرما جمع أحرأى الأعاجم (٢) غلاف في اليمن والنثار جبل في حمى ضربة

(٣) القطيعة من الأرض طائفة من أرض الحجاج

تأليف قلوبهم ، فدعى من يأخذون ذلك « المؤلف قلوبهم » وهم أحد وثلاثون رجلا من سادة العرب ، تألفهم وتألف بهم قومهم ، ليرغبوهم في الاسلام ، ولثلاثاً<sup>(١)</sup> تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلباً مع الكفار على المسلمين ، وما منهم الا الشريف المسوددّ والعالم والخطيب والشاعر والداهية الباقعة ، وكل منهم سيد في قومه مطاع فيهم ، قال صفوان بن امية : لقد أعطاني رسول الله يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما زال يعطيني حتى إنه لمن أحب الناس إلى . وقال الرسول : إني لأعطي قوماً أتألف ظلمهم<sup>(٢)</sup> وجزعهم وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى . وكان يعامل المسلمين بقواعد المساواة التامة ، ويفضل مثلاً من الأزد الأنصار وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن عامر وهم أعز الناس نفساً وأشرفهم ، وهم لم يؤدوا أتاوة قط إلى أحد من الملوك

كانت الحكمة في تأليف من قضت المصلحة بتأليفهم ، وأعطى كل واحد من المؤلف قلوبهم في إحدى غزواته مئة من الإبل ومقداراً من الفضة ، فلما دخل الناس في الدين أفواجاً ، وظهر المسلمون على جميع أهل الملل بطل العطاء للمؤلفة قلوبهم ، ودخل بعضهم في خدمة الدولة وتولوا العمالات وقيادة الجيوش ، ولم يبق عربي بعد واقعة حنين والطائف<sup>(٣)</sup> الا أسلم ، ومنهم من قديم على الرسول ومنهم من لم يقدم ، وفتح بما أتاه به وأفد قومه من الدين . ولما فتحت مكة دانّت العرب لقريش وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته ، فدخلوا في دينه وقلّ أن دخل فيه إلا من اعتقد صدق صاحبه ، وقد جاء قيس بن نُسَبة السَلَمي فأسلم ورجع إلى قومه فقال : يا بني سليم ، قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأسفار الرهاب والسكبان ومقاول<sup>(٤)</sup> حمير ، وما كان كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم . وقال ابو سفيان

(١) تاج العروس للزبيدي (٢) الطلح العيب (٣) أسد الغابة لابن الأثير (٤) مقاول ج مقول وهو القيل ابن الملك الصغير بلغة اليمن

ابن حرب : ما رأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً<sup>(١)</sup> .  
وكثر الوفود في السنة التاسعة للهجرة حتى سمي عام الوفود ، وبعث  
رسله الى ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام ، وفي سنة سبع بعث دحية الكلبي  
بكتاب الى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى الى هرقل ليدفعه الى قيصر ، وبعث  
عبد الله بن حذافة السهمي الى كسرى ، وعمرو بن أمية الى النجاشي وحاطب بن أبي  
بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية والعلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى ملك  
البحرين وشجاع بن وهب الأسدي الى الحرث بن أبي شمر الغساني ، والمهاجر بن  
أبي أمية الى الحرث ملك اليمن . وجاءت وفود العرب من كل وجه ، وكانت  
الرسول يكرمهم ويفضل عليهم بعطائه ، ومنهم من يضيفه عشرة أيام كوفد عبد  
القيس ، ومنهم من يبالغ في إكرامه كملوك اليمن ، وإنما سمو ملوكاً<sup>(٢)</sup> لانه كان  
لكل واحد منهم واد يملكه بما فيه . وكانت كتبه الى ملوك الأطراف خارج  
الجزيرة بلغة مضر وفصيح ألفاظها وكلها موجزة ، واستعمل ألفاظاً في بعض كتبه  
الى أهل اليمن وغيرهم غير معروفة للعرب كافة إلا في قبيل واحد ، وذلك إرادة  
إفهام القوم ومخاطبتهم بألوفهم من العبارات<sup>(٣)</sup> . قال عليُّ للرسول وقد سمعه يخاطب  
وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم  
أكثره . فقال : أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وربيت في بني سعد . فكانت  
يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمون .

ولم يكن للرسول بيت مال ، وكان يخبأ الأموال في بيته وبيوت أصحابه ،  
وفي الغالب أن النبي . يقسم من يومه ، خصوصاً إذا كان من الناطق كالابل والشيء  
والخيل والبغال . والرسول يعطى الأهل<sup>(٤)</sup> من النبي . حظين والعزب حظاً<sup>(٥)</sup> .

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٢) طبقات ابن سعد (٣) المعقد الفريد لابن عبد ربه — كتاب  
الجنة في الوفود (٤) الأهل المزوج (٥) تيسير الوصول لابن الديبع  
محاضرات م — ٢

وما كانت تأخذه بالمشركين هَوادة لاسيما بعد أن فتحت مكة ، وأطاعت الحجاز  
واليمن واليامة وغيرها من أصقاع الجزيرة ، وما كان هوى من رسخ الاسلام في  
قلوبهم في شئ . من حطام الدنيا ، فقد بلغ من تبادل الثقة <sup>(١)</sup> والحب بين المسلمين  
في صدر الاسلام أنهم كانوا خلطاء بالمال ، يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا  
لقوله تعالى : ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) . ولقد أُهديت لعبادة  
ابن الصامت <sup>(٢)</sup> هدية وإن معه في الدار اثني عشر من أهل بيته فقال عبادة :  
اذهبوا بهذه الى آل فلان فهو أحوج اليها منا . قال الوليد بن عبادة فأخذتها  
فكنت كما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها الى آل فلان فهم أحوج منا  
إليها ، حتى رجعت الهدية الى عبادة قبل الصبح . وأسلف عبد الله بن جعفر الزبير  
ابن العوام الف الف درهم فلما قتل الزبير قال ابنه عبد الله لعبد الله بن جعفر إني  
وجدت في كتب أبي أن له عليك الف الف درهم فقال : هو صادق فأقبضها إذا  
سئت ثم لقيه فقال : يا أبا جعفر وَهَمْتُ لِلْمَالِ لَكَ عَلَيْهِ فَهَوَ لَهُ قَالَ : لا أريد ذلك .  
قال : فأختران سئت فهو له وإن كرهت ذلك فله فيه نظيره ما سئت ، وإن لم  
ترد ذلك فبعضي من ماله ما سئت .

مثال آخر من هذا الإيثار . كان بالمدينة في زمن النبي شاب يقال له مالك  
بن ثعلبة الأنصاري ولم يكن بالمدينة شاب أغنى منه ، فرَّ بالنبي والنبي يتلو هذه  
الآية (والذين يكنزون الى قوله فذوقوا ما كنتم تكنزون) فغشى على الشاب فلما  
أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة .  
فقال له النبي : نعم يا مالك . قال : والذي بعثك بالحق ليسين مالك ولا يملك ديناراً  
ولا درهماً . قال : فتصدق بماله كله . وما كان أصحاب رسول الله بالمتخرفين <sup>(٣)</sup>

(١) الاحياء للنزالي (٢) تاريخ دمشق لابن عساکر (٣) المتخرف السريع

ولا المتأوتين<sup>(١)</sup> يتناشدون الأشعار ، ويجلسون في مجالسهم ، ويدكرون جاهليتهم فإن أريد إنسان منهم على شيء من أمر دينه دارت عيناه فترى حمالية<sup>(٢)</sup> غضباً . بل كان منهم من إذا ارتكب كبيرة يعاقب عليها الإسلام يأتي الرسول يطلب إقامة الحد الشرعي عليه ، أو يسمع منه ما ينقلب به إلى أهله مسروراً ، يأخذ حكمة تثلج بها نفسه ، ويعتقد أنه تحلل من ذنبه واستغفر له الرسول .

وأراد النبي مرة إحصاء المسلمين فقال : اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس ، فكتبوا له ألفاً وخمسمائة رجل . وما كان يجمع المسلمين في أول أمرهم كتاب حافظ أي ديوان مكتوب<sup>(٣)</sup> . وكان إذا نودي للزحف وتحلف عنه أحدهم لعذر أو شبه عذر ، يلومه الرسول وأصحابه ، وإذا تبين أنه تعمد أن يكون مع المتخلفين عن القتال يعاتب ، ويقاطعه الجماعة ويحتنبونه لا يكلمه أحد . ولما أمر الرسول بالتهيم لغزو الروم في اليرموك ، تناقل المسلمون عنها وأعظموا غزوم ، فنافق من نافق من المنافقين ، حين دعوا إلى ما دعوا إليه من الجهاد ، وكان « ذلك في زمن عسرة<sup>(٤)</sup> » من الناس وشدة من الحر وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه » وجاء المتخلفون عن هذه الغزاة وكانوا ثمانين رجلاً فقبل الرسول منهم علانيتهم وأيمانهم ، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . وفي هذه الغزوة حض الرسول أهل الغنى على النفقة والحلان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وكان من أفضل القربات أن يجهز أرباب اليسار أناساً للغزو يتكفلون بطعامهم وإطعام ذويهم ، ويعطونهم السلاح والكراع واللباس ليغزوا

(١) تماوت أظهر من نفسه التخافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم (٢) الخلاق باطن الاجفان الحمير اذا قلبت للسكل بدت حرمتها وقيل الخلاق ما غطى الجفن من يياض المقلة (٣) سيرة ابن هشام (٤) سيرة ابن هشام

ويرابطوا<sup>(١)</sup> . وكان المسلمون كلهم جنداً يقاتلون للدين وكان لا يزال فيهم أبدأ من يبذل شطراً صالحاً من ماله في وجوه البر والقرب لا يريدون على إسلامهم ونصرهم للرسول جزاء . وجميع ما غزا الرسول بنفسه سبع وعشرون غزوة وكانت بعوثه وسراياه ثمانياً وثلاثين بين بعث وسرية ، وكان يورى بغزواته ، وقل أن يعين لأصحابه الوجهة التي يقصدها في غزاته ، وكتب مرة لأحدهم كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا . ولا يستكره من أصحابه أحداً أي يندبهم للعمل قسراً ، وذلك ليترصده بذلك قريباً ويعلم له من أخبارهم .

ولم يكن للمسلمين سلاح جاهز . وسلاحهم القوس والنبيل والحربة والسيوف والدرع ثم اتخذ أنواع السلاح التي كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم . واستعار الرسول يوم هوازن<sup>(٢)</sup> مئة درع بما يكفيها من السلاح من صفوان بن أمية ليلقي بها العدو على أن تكون عارية مضمونة حتى يؤديها إليه . ورأى الرسول أن اتساع الفتوح يقضى بأن يتعلم بعض أصحابه صنعة الدبابات والمجانيق والضبور<sup>(٣)</sup> أي صنائع القتال فأرسل إلى جرّش اليماني اثنين من أصحابه يتعلمانها . وكان أهل الطائف أول من رُمى بالمنجنيق . وأخذ المسلمون بعيد ذلك يعدون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، لأنهم قادمون على فتح الشام والعراق على ما بشرهم به الرسول فقال لعدي بن حاتم : لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذ ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عددهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت

(١) المرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره وكل مستعد للقاء صاحبه فكانوا يربطون أي يقيمون على جهاد عدوهم بالحرب ومرابطات المسلمين مواضع خيلهم المرابطة والمرابطة هم الجماعة رابطوا (٢) سيرة ابن هشام (٣) الضبور جلود تغشى خشباً فيها رجال وقالوا هي الدبابات تقرب للحصون لتتقب من تحتها الواحدة ضبرة .

لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ،  
وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم .  
وقال مرة : أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقراً أخشى عليكم ، ولكن أخشى  
عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها  
فتهلككم كما أهلكتهم .

رأينا الرسول في طور ضعفه ، ثم في طور قوته ، يحرص على رجاله حرصه على  
أعز شيء لديه . ولما دخل عمر في الإسلام اعتز به وترك به المسلمون التقية في دينهم ،  
بل إنه كان إذا سقط في يده أحد أذكىء المشركين أتقى عليه ، مهما كان من إيدائه  
للمسلمين أو له خاصة ، علّ في حياته ما يستفيد منه الإسلام إذا أسلم . أما من  
قتلوا النفس التي حرم الله فهو لاء لا تأخذه بهم رحمة ؛ قدم عليه نفر<sup>(١)</sup> من العرب  
قد ماتوا هزلاً فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم الرسول أن يأتوا إبل الصدقة يشربوا  
من ألبانها ففعلوا وصحوا وسمنوا فارتدوا وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل فبعث في آثارهم  
فما ترجل<sup>(٢)</sup> النهار حتى جرى بهم وأوقع عليهم أشد العقوبة الشرعية .

وكان يحسن معاملة النساء عامة كما يحسن معاملة أزواجه خاصة فيؤثرن أي  
تأثير في الرجال ، ويجعل منهن أدوات صالحة له يبت بواسطتهن دعوته ، ويرعى  
مصالح المسلمين ، وقد أوصى بهن أجمل وصاة في خطبته يوم حجة الوداع . وهذا  
غاية في حسن الإدارة والسياسة لأن حل المسائل بدون مشا كل ، أنفع من حلها  
بطرق جافة . والنساء في هذا المعنى من أفعال أسباب الدعوة ، خصوصاً إذا كن  
كالصحايات يأخذن بمجامع القلوب بحميل عاطفتهن وجمال بلاغتهن . وكان  
يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته يخدمن الجرحى ويأخذن من العطاء  
ويتولين من الرجال ما يصلحن له كالطعام والاسقاء ، ويحمن من يحتاج الى تحميس

(١) أفضية رسول الله للقرطبي (٢) ترجلت الشمس ارتفعت واجتووا استوأوا

وجعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة يقال لها ربيعة في مسجده كانت تداوى الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه ضيقة من المسلمين . وكذلك كانت أخت ربيعة واسمها كعبة بنت سعيد الأسلمية . ومنهن من كنَّ يخطن القرب . فالنساء في حكومته ممرضات طاهيات ساقيات خياطات محمسات داعيات . وأمر الرسول أن لا يقتل النساء في الحرب . فكان بذلك يستفيد من كل قوة في بلده يستعين بها على الظهور على المشركين .

ومن خطبه الادارية ما ورد في الثقات أنه قعد على بعير له وأخذ إنسان بخطامه أو بزمامه فقال : أى يوم هذا . قال من حضر : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى . قال : فأى شهر هذا . قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس بذي الحجة . قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا . قال : فأمسكنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس بالبلد الحرام . قلنا : بلى . قال : فان دماءكم وأعراضكم ( وفي رواية وأموالكم ) بينكم حرام محرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا يبلغ الشاهد الغائب .

هذا جملة ما يقال في تدبير الرسول في الإدارة من بث دعوة ، وجهاد عدو ، وأخذ غنائم وصدقات وجزى وعشور ، وقسمتها بين المجاهدين وأهل البلاء من المهاجرين والأنصار ، ثم على فقراء المسلمين ، وما كان من توزيعه العمل بين عماله ومعاملته لهم وللوفاة والنساء الى غير ذلك من أسباب القوة واتخاذ الجند والمخار بين ، واشتداده في الحق ولينه إذا دعت الحال الى اللين ، واغضائه أحياناً لما يلحق به من الأذى ، يرتقب الفرص لمن يكيد للمسلمين .

ومما يصح التمثل به في باب اللين أنه رضى يوم الحديبية أن يدخل وأصحابه مكة ثلاثة أيام فقط على أن يكونوا بِجَابِلِ <sup>(١)</sup> السلاح وصالح سهيلا بن عمرو أخا بنى

(١) الجلبان اوعية السلاح بما فيها الغمد والسيف فيه والكثانة والسهام فيها

عامر بن لوئى فدعا عليا بن ابي طالب . فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلا بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلا بن عمرو اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلal<sup>(١)</sup> وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه الخ . فاستأى المسلمون من هذا العهد بعد أن فازوا على أعدائهم ؛ وأحب الرسول حقن الدماء فقبل من خصمه هذا العنت ، وكانت العاقبة له ولقومه .

### ادارة الخلفاء الراشدين

سار أبو بكر بسيرة الرسول في الإدارة الاسلامية واحتفظ بالعمال الذين استعملهم صاحب الشريعة ، والأمراء الذين أمرهم ، ومن العمال من أبى أن يعمل لغير رسول الله فاعتزل العمل ولما سدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة : أنا أ كفيك المال . وقال عمر : وأنا أ كفيك القضاء . فكثت عمر سنة لا يأتيه رجلان ، ولم يخاصم إليه أحد . وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور الإسلام يرون من الطبيعي أن يعطى الإنسان الحق ويأخذ الحق ، ويقف عند حدود الله

(١) الاسلال الحياثة والاعلال السرقة . والعيبة في الرجل موضع سره اى بيننا وبينهم في هذا الصلح صدر مفعول على الوفاء بما في الكتاب من القتل والغدر والحداد

لا يقارف منكرآ ولا يسرف على نفسه ، ويبعد عن الزور وأ كل أموال الناس بالباطل ، ويجعل رائده الصدق في أقواله وأفعاله .

كان إذا نزل بالصديق أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأي وأهل الفقه ، ودعا رجالاً من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتى في خلافة أبي بكر ، وإنما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء . على أن أبا بكر كان جده عالم بالشرية وأخبار الناس وأيامهم وأنسابهم وسياساتهم ، إلى ما رزق من صدر رجب يطلب من كل صاحب إدارة . واختار من القضاة ما اختاره الولاة غالباً ، وكان ولاة المدينة<sup>(١)</sup> هم الذين يختارون القضاة ويولونهم ، ويكتب لأبي بكر على بن أبي طالب وزيد بن ثابت . ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان<sup>(٢)</sup> ويكتب له من حضر<sup>(٣)</sup> ومن عماله عتاب بن أسيد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي العاص والمهاجر بن أبي أمية وزباد بن عبيد الله الأنصاري ويعلى بن منية وأبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل والعملاء بن الحضرمي وجري ر بن عبد الله وعبد الله بن ثور وعياض بن غنم وأبو عبيدة بن الجراح وشُرَّجَمِيل بن حسنة وزيد بن أبي سفيان وخالد بن الوليد .

ما تجاوزت رقعة الملك الإسلامي في أيام أبي بكر أكثر من جزيرة العرب قسمت إلى ولايات أو عمالات وهي مكة والمدينة والطائف وصنعا ، وحضرموت وخولان وزُبيد ورمع والجند ونجران وجرش والبحرين ، أما القواد الآخذون بفتح الشام والعراق فيولون عمالاً من عندهم في الأرض التي يفتحونها . بمعنى أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات ، واليمن إلى ثمان ، والبحرين وما إليها ولاية .

(١) طبقات ابن سعد (٢) تاريخ الطبري (٣) الكامل لابن الأثير

ولما ولي أبو بكر قال: قد علم قومي أن حرفتي لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلي ، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين في مالهم وسياً كل آل أبي بكر من هذا المال ، فجعلوا له الفين وفي رواية ثلاثة دراهم كل يوم من بيت المال<sup>(١)</sup> . ثم قال : زيدوني فإن لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة . ولما مات ابنه في خلافته ترك سبعة<sup>(٢)</sup> دنانير فاستكثرها أبو بكر . ولم يفرض أبو بكر ولا الرسول من قبل عطاء مقررًا للجند<sup>(٣)</sup> وكانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم ، وإذا ورد المدينة مال من بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم يصيب منه الأنصار والمهاجرون وكل مسلم بحسب غنائه في نصرة الدين . جرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبي بكر . وكان لأبي بكر<sup>(٤)</sup> بيت مال بالسُّنْح من ضواحي المدينة إلى أن انتقل إلى المدينة فقيل له ألا تجعل عليه من بحرسه ، قالوا فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شيء . ولما قضى نحبه ذهب عمر في نفر من الصحابة لاستلام بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً .

وحري أبو بكر على كشف أحوال العمال ، وكان كصاحبه يختار أكثرهم علماء وعملاً . ولما عزل خالد بن سعيد أوصى به شرحبيل بن حسنة وكان أحد الأمراء . فقال : انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرف لك من الحق عليه لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وأن رسول الله (ص) توفي وهو له وال ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له في دينه ما أغبط أحداً بالامارة . وقد خيرته في أمراء الأجناد فاختارك على غيرك ، اختارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأي التقي الناصح ، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن

(١) تاريخ اليعقوبي (٢) طبقات ابن سعد (٣) الفخرى لابن المنقلى (٤) الكامل لابن الأثير

جبل ، وليكُ خالد بن سعيد ثالثاً . فإنك واجد عندهم نصحاً وخيراً . وإياك  
واستبداد الرأي عنهم أو تطوى عنهم بعض الخبر .

وشغل أبو بكر بقتال أهل الردة فوطد دعائم الدولة باظهار قوة المسلمين لمن  
خالفهم ، فجمع الشمل الذي كان يخشى من ابتئاته ، وبدا منه حزم عجيب وإدارة  
شديدة رشيدة ، وخالف جميع أصحابه في قتال من أخلوا بشروط الاسلام فأصر على  
قتالهم . ولقد قال عمر إن العرب لما ارتدت (١) ومنعت شاتها وبيرها أجمع رأينا  
كلنا أصحاب محمد أن قلنا لأبي بكر إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي  
والملائكة يمدد الله بهم ، وقد انقطع ذلك فالزم بيتك ومسجدك ، فانه لاطاقة لك  
بقتال العرب . فخالفهم كلهم أبو بكر وأعلن هذه الحرب على المرتدين حتى أذعنت  
العرب بالحق . استبد أبو بكر برأيه فكان رأيه الصواب ، وقضى بصادق عزيمته  
وبعيد نظره قضاءً مبرماً على آخر أثر من آثار الوثنية في الأرض العربية ، ولما  
أرسل الصديق الأمراء لقتال أهل الردة أوصاهم أن يقتصدوا بالمسلمين ، ويرفقوا  
بهم في السير والمنزل ، ويتفقدوهم ويستوصوا بهم في حسن الصحبة ولين القول ،  
وأمر قواده في المرتدين أن لا يقاتلوا أحداً ولا يقتلوه حتى يدعوهم إلى الله ، فمن  
استجاب لهم وأقرّ وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعين عليه ، ومن أبى يقاتل على  
ذلك ، ولا يبقون على أحد منهم قدروا عليه ، وأن يحرقوهم بالنار ويقتلوهم كل  
قتلة ، ويسبوا النساء والذراري ، ولا يقبل من أحد إلا الاسلام .

ومن وصايا أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام « إذا دخلت  
بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر  
بالأدلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه . واحترس من البيات فإن في  
العرب غرة ، (٢) وأقلل من الكلام فإننا لك ماوعى عنك ، وإذا أتاك كتابي فأنفذه

(١) الكامل للبرد (٢) بيت العدو أوقع بهم ليلا من دون ان يعلوا والغرة الغفلة

فإنما عمل على حسب إنفاذه . وإذا قدمت عليك وفود العجم فأنزهم معظم عسكريك وأسبغ عليهم النفقة ، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا تلحن في عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن اليها وأنت تكنتي بغيرها ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم ، ولا تجسس عسكريك فتفضحه ولا تهمله فتفسده .

ولم يحدث أبو بكر في أيامه أحداثاً جديدة ، والفتوح لم تقف مع حروب الردة ووجه وجهته نحو الشام وكان آخر جيش جهزه جيش اليرموك ، جهزه بكل حكمة وبذل في تنظيمه أقصى الجهد ، وجعل فيه قاصياً وجعل أبا سفيان بن حرب قاصاً يسير في الجماعة ويقول : الله الله عباد الله انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، يا نصر الله اقترب يا نصر الله اقترب . وقصاص الجند يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية ليقبوا قلوبهم ، وقيل إن تيمم الداري كان أول من قص في مسجد الرسول في عهد عمر ، كان يذكر المسلمين بالله ويقص عليهم قصصاً وأحاديث عن الأمم للماضية وأساطير وحكايات .

\*\*\*

كانت أول خطبة خطبها عمر بن الخطاب لما ولي الخلافة : أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ له الحق ، ولا أضعف عندي من القوى حتى آخذ الحق منه ، وما كان عمر ممن أولع بإلقاء الخطب كثيراً على بلاغة فيه مستحكمة وعلم غزير ، ولا يرتقى المنبر إلا إذا قضت الضرورة وأراد بيان أمر ذهب فيه نزوات النفوس مذهباً لا يرضاه . وكثيراً ما قال إن هذا الأمر لا يصلح فيه إلا اللين في غير ضعف ، والقوى في غير عنف . وكذلك كان عمر يجمع بين اللين والشدّة ، وهو إلى هذه ولا سيما على عماله أقرب . وإذا كان أكبر رجال الإدارة تحصى عليهم عشرات من الأغلاط فإن عمر لا يستطيع أكبر الناقدين أن

يخصى عليه غلظتين أو ثلاثا ، وقد يجاب عليها بأف ذلك محض اجتهاد منه ،  
والجهد قد يصيب ويخطئ . . والحكم الآن على مسائل لم تتجل كل التجلي بما نقله  
الناقلون ، وما أحاط بها من أحوال دقيقة غير مرتبة ، يدعوننا إلى أن نمسك عن  
إرسال القول في النقد ، ولا سيما فقد رجل عقت أم كثيرة أن تنبغ أفضل  
منه وأعظم .

وطريقة عمر في الإدارة طريقة أبي بكر وصاحبه من قبل ؛ اطلاق الحرية  
للعامل في الشؤون الموضعية ، وتقييده في المسائل العامة ، ومراقبته في خلوته وجلوته .  
« وكان <sup>(١)</sup> علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه في مهاد  
واحد وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي  
عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده ، فكانت ألفاظ من  
بالمشرق والمغرب عنده في كل مُمشى ومُصْبِح . وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله  
وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به » وكان كما قال  
المغيرة بن سبعة أفضل من أن يخذع وأعقل من أن يُخذع .

كان إذا استعمل العال خرج معهم يشيعهم <sup>(٢)</sup> فيقول إني لم استعملكم على  
أمة محمد على أشعارهم ولا على أبنائهم وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة  
وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، لا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها <sup>(٣)</sup>  
فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتجرموها ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله  
عليه وسلم وأنا شريككم . وكان يقص من عماله ، وإذا شكى إليه عامل جمع بينه  
وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه . وكان إذا بعث أمراء  
الجيش يوصيهم بقوى الله وأن لا يعتدوا ولا يجبنوا عند اللقاء ولا يثملوا عند

(١) التاج المنسوب للحافظ (٢) تاريخ الطبري (٣) لا تؤخروها في دار الحرب

القدرة ولا يسرفوا عند الظهور ولا يقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً وأن يتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفي شن الغارات وان لا يغفلوا عند الغنائم و ينزهوا الجهاد عن عرض الدنيا .

وكان عمال عمر عرضة لكشف أحوالهم مهما بلغ من منزلتهم ، وكان إذا سُكِّي<sup>(١)</sup> إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، وله عدة طرق في كشف سيرة عماله ، منها أن يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فينكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم ، فما قام إلا رجل واحد فقال : إن عاملك فلاناً ضربني مائة سوط ، قال فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال : أنا<sup>(٢)</sup> لا أقيد . وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه قال : دونكم فارضوه ، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين . وقال من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه . فقيل له : أرايت إن أدب أمير رجلاً من رعيته أتقصه منه فقال : ومالي لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه .

وكان يستدعى عماله ليطلع على مطاوى نفوسهم ويكشف بنفسه إن كانوا أخذوا أنفسهم بأسباب النعيم لأن عمر يؤثر الخشونة<sup>(٣)</sup> ويريد عماله أن يتبعوه في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه فكان كل يتشبه به من غاب أو حضر ، وهو يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ويحمل القرية على كتفه مع هيبة قدر رزقها ، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٢) أفاد القائل بالقتيل قتله به (٣) مروج الذهب للسعودي

الأموال . وكان ينهى عماله عن جيد الملبوس والمركوب والمأكول ويلتف في (١) كسائه وينام في ناحية المسجد فلما وُرد بالهرمزان صاحب تُستر عليه ، جعلوا يسألون عنه فيقال مرّ ههنا آتفا فيصغر في قلب الهرمزان إذ رآه كبعض الشؤفة حتى انتهى إليه وهو نائم في ناحية المسجد فقال الهرمزان : هذا والله الملك الهنيء ، يقول لا يحتاج إلى حراس ولا عدد فلما جلس عمر امتلاً قلب العليج (٢) منه هيبة لما رأى عنده من الجد والاجتهاد وألبس من هيبة التقوى . قالوا وكان أبا العيال (٣) يسلم على أبوابهن ويقول ألكن حاجة وأيتكن تريد أن تشتري شيئاً فيرسلوه معه بجواجهن ومن ليس عندها شيء اشتري لها من عنده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعه بنفسه في منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : أزواجكن في سبيل الله وأنتن في بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكن ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتهن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول : هذه دواة قرطاس فادنين من الأبواب حتى أكتب لكن ويمر إلى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها إلى أزواجهن .

وكان إذا استعمل عاملاً أوصاه بتقوى الله وإصلاح الرعية وكتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار أن لا يركب برذوناً ولا يأكل قتيماً ولا يلبس رقيقاً ولا يفلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم اشهد . وكتب إلى عماله : أما بعد فاياكم والهدايا فإنها من الرشا . اهتدى إلى عظيم ضرر الهدايا مما بدر من رجل (٤) كان يهديه فخذ جزور فخاصم إليه رجلاً فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاءً فصلاً كما يفصل الرجل من سائر الجذور ، فقضى عليه عمر ، ثم كتب إلى

(١) الكامل للبرد (٢) العليج الرجل من كفار العجم والتقوى الضخم منهم ج علوج وأعلاج

(٣) سراج الملوك للطروشى (٤) الاشراف لابن أبي الدنيا

عماله إن الهدايا هي الرشا . وكان عمر إذا قدم العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلاً كي لا يحتجوا شيئاً من الأموال . وكان يعس بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم ، ويتعهد أهل البؤس والفاقة بنفسه .

كتب إلى أبي موسى الأشعري عامله على العراق يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً ، يريد أن يعرف حالتهم بعد أن تبسكوا<sup>(١)</sup> في النعيم وعهدت اليهم مصالح الناس ، فأدرك عامل البحرين من بين كثير من العمل أن عمر يرغب في الخشونة وعرف أنه سيدعوهم إلى طعامه فتجسس له واتخذ خفين مطارقين<sup>(٢)</sup> ولبس جبة صوف ولات<sup>(٣)</sup> عمامته على رأسه فدعاهم عمر إلى خبز وأكسار<sup>(٤)</sup> بعير فجعلوا يعافونه لأنهم حديث عهد بهم بلين العيش ، وعمر يلحظهم ، ولقت عامل البحرين نظر عمر ، وتهافته على تناول الطعام ، فسأله عمر عن عمله ثم عن جعله فأجاب إنه يرزق ألفاً فقال له عمر : إنه كثير ما تصنع به؟ قال : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين . فأمر عمر أبا موسى أن يستبدل بأصحابه ، وأبقى عامل البحرين في عمله لأنه رآه مقلداً متشغلاً لا يحمى أن يسرف في المال . وولى عمر رجلاً بلداً فوفد عليه<sup>(٥)</sup> فجأة مدهناً حسن الحال في جسمه عليه بردان فقال له عمر : أهكذا وليناك ثم عزله ، ودفع إليه غنيمات يربعاها ثم دعا به بعد مدة فرآه بالياً أضعف في ثوبين أطلسين<sup>(٦)</sup> وذكر عند عمر بخير فردده إلى عمله وقال : كلوا واشربوا وادهنوا فإنكم تعلمون الذي تنهون عنه .

وكان إذا قدم عليه الوفد سألم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل إليه الضعيف وهل يعود المريض ، فإن قالوا نعم ، حمد الله

(١) تبسكوا تمسكوا (٢) نعل مطرقة ومطارقة محضوقة وخصف النعل أطبق عليها مثلها وخرزها بالخصف (٣) لات عمامة على رأسه عصبها ولقها (٤) جمع كسر وهو العضل عليه قليل لحم (٥) الكامل للبرد (٦) الأطلس بكسر الطاء الوسخ من الثياب والأطلس الثوب الخرق

تعالى وإن قالوا لا كتب إليه أقبل . وكان من سنة<sup>(١)</sup> عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعيمة وليكون لشكايتهم وقت وغاية ينهونها إليه . كتب إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد فإن للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عميها مجهولة ، وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا ، فأثر نصيبك من الله فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفساق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً ورجلاً ، وعد مرضى المسلمين ، واتهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً . وقد بلغني أنه فشالك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فأياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة المهيممة مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السممن وإنما حنقها في السممن ، واعلم ان العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام . وهذا من كتبه الممتعة في الادارة وطريقته فيها .

وبلغ عمر أن أبا عبيدة عامله على الشام يسبغ على عياله وقد ظهرت شارته فنقصه من عطائه الذي كان يجري عليه ، ثم سأل عنه فقيل له قد شحب لونه ، وتغيرت ثيابه ، وسامت حاله ، فقال : يرحم الله أبا عبيدة ما أعف وأصبر . فرد عليه ما كان حبس عنه وأجراه عليه . ودخل عمر منزل أبي عبيدة فلم ير إلا لبداً وصحفةً وشناً ، وسأله طعاماً فأخرج له من جونة<sup>(٢)</sup> كسيرات فبكى عمر وقال : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة ، وأرسل إليه أربعمائة دينار ، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها فوزعها أبو عبيدة كلها . وأرسل مثلها إلى معاذ ابن جبل فوزعها إلا أشياء قليلة سأله امرأته إياها لحاجتها . فقال عمر لما أخبر بذلك الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا .

(١) تاريخ الطبري (٢) الجونة سلة صغيرة مغطاة بالادم

وكان معظم عمال عمر على غرار أبي عبيدة ومعاذ من التقشف والتباعد بالسير ، وكان إذا لم تقنع نفسه بحسن سيرهم على الصورة التي لا يرى غيرها لا يتسكأ عن عزهم . فقد شكوا أهل حمص عاملهم سعيد بن عامر وسألوه عزله لأنه لا يخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله في الشهر يوم لا يخرج فيه ، فلما أيقن عمر أن عامله يعجن كل يوم خبزته ويجلس حتى يحتمر فيخبزه ، ثم يخرج للناس ، وأنه يجعل الليل كله للعبادة ، وأنه يشتغل مرة في الشهر بفصل ثيابه ، بعث إليه عمر ألف دينار يستعين بها فوزعها على جيش من جيوش المسلمين .

وقدم سعيد بن عامر على عمر بالمدينة فلم ير معه إلا عكازاً وقد حاق فقال له عمر : ليس معك إلا ما أرى ، فقال له سعيد : ما أكثر من هذا ، عكاز أحمل عليه زادي وقدح آكل فيه . وكان من عماله عمير بن سعد <sup>(١)</sup> وفيه يقول عمر : وددت لو أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين . وعمير هذا هو الذي قال على منبر حمص : « لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل » وهذا من أبعاد مراعى الإدارة العادلة إذا أحس أهل عمل من عاملهم العدل لا يحتاج في سياستهم إلى شيء من الشدة . كتب عمر إلى عمير أيام كان عامله على حمص أقبل بما جبيت من في المسلمين . فسأله عمر عما عمله قال : « بعثني حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شيء ، لأتيتك به . قال فما جئتنا بشيء . قال : لا . قال جددوا لعير عهداً . فقال عمير : لا عملت ولا لأحد بعدك ، والله ما سلمت بل لم أسلم . لقد قلت لنصراني أي أخزأك الله . فهذا ما عرضتني له يا عمر ، وإن أشقى أيامي يوم خلقت معك يا عمر . وكان إذا استعمل عاملاً كتب عهده <sup>(٢)</sup> : « وقد

(١) طبقات ابن سعد (٢) أسد الغابة لابن الأثير

بعثت فلانا وأمرته بكذا » فلما استعمل حذيفة بن اليمان على المدائن كتب في عهده أن اسمعوا له وأطيعوه وأعطوه ما سألكم . فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ما شئت . قال أسألكم طعاما آكله وعلف حمارى ما دمت فيكم . فأقام فيهم ، ثم كتب اليه ليقدم عليه . فلما بلغ عمر قدمه كمن له في الطريق فلما رآه عمر على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخى وأنا أخوك .

فعمر إذا لم يحتر للأعمال إلا أفاضل الرجال ممن كانوا على سمته وزهده . وكان كثيرا ما يستعمل قوما ويدع أفضل منهم لبحرهم بالعمل ويقول : أكره أن أدنس هؤلاء بالعمل . وكان يشاور<sup>(١)</sup> في كثير من الوقائع حتى قال يوما لأصحابه أشيروا علىّ ودلوني على رجل أستعمله في أمر قد ذهني فقولوا ما عندكم ، فأبى أن يريد رجلا إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي فنشير على أمير المؤمنين به ، فأحضره وولاه ، فوفق في عمله ، وقام فيه بما أربى على رجاء عمر فيه وزاد على عمله ، فشكر عمر من أشاروا عليه بولاية الربيع .

كتب إلى عامله على البحرين العلاء بن الحضرمي أن سير إلى عتبة بن غزوان فقد وليتك عمله ، واعلم أنك تقدم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقتم لهم من الله الحسنى ، وإني لم أعزله ألا يكون عفيفا صليبا شديدا البأس ، ولكن ظننت أنك أغنى عن المسلمين في تلك الناحية فأعرف له حقه . ولما سير عمر عتبة ابن غزوان إلى البصرة ليقاتل من الأبله من فارس قال له : انطلق أنت ومن معك حتى تأتوا أقصى مملكة العرب وأدنى مملكة العجم ، وأمره أن يشاور عرجة بن هرثة لأنه ذو مجاهدة للعدو وذو مكايدة . وعزل عن بعض ولاية الشام شرحبيل

(١) سراج الملوك للطوطوشى

ابن حَسَنَة واستعمل بدلا منه معاوية بن أبي سفيان واعتذر على رؤوس الإِشهاد أنه لم يعزله عن شيء هَجَّته به بل أراد رجلا أقوى من رجل . وبعث المغيرة بن شعبه عاملا على الكوفة لأنه قوى مشدد ، وكان عمر سأله عن الضعيف والقوى فقال : أما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له ، وأما القوى المشدد فقوته لك وللمسلمين وشداذه غلبه . وعزل عامله على ميسان النعمان بن عدى لأنه بلغه أنه قال أبياتاً في التشبيب تشير إلى أنه يتعاطى الراح ، مع أنه عارف بأن ذلك لم يكن وإنما هو قول شاعر . وعزل زياد بن أبي سفيان فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين أم عن خيانتك؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن هذا ، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن شاور طلحة الأَسدي وعمرو بن معدى كرب في أمر حربك ، ولا تولها من الأمر شيئاً ، فإن كل صانع هو أعلم بصنعتة . وكتب إلى النعمان <sup>(١)</sup> بن مقرن أن قبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد فشاورهما في الحرب ولا تولها شيئاً من الأمر . وبعث مع أبي عبيد بن مسعود سليط بن قيس لفتح العراق وقال له : لولا عجلة فيك لوليتك ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكث .

وسأل عمر عمرو بن معدى كرب عن خبر سعد بن أبي وقاص نفسه فقال : متواضع في حباته ، عربي في نمرته ، أسد في تأموره <sup>(٢)</sup> ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم الهرة ، وينقل البنا حقنا نقل الذرة . ولما شكوا أهل الكوفة سعداً عزله عمر ولم تأخذه به هواة ، لأن الغاية انفاذ العمل النافع للناس على يد أي كان من عماله ، وأن لا يفتح للمسلمين باباً للشكوى . وخير ضروب السياسة أن يكون عمل العاملين فيها أكثر من قول

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢) التأمور عربن الأسد والفره الحيرة والحيا. جلسة خاصة بالعرب

القائلين . وسعد هذا هو الذي كان أجمع الصحابة على توسيد حرب العراق اليه فأوصاه عمر بقوله يا سعد سعد بنى وهيب لا يفرئك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السىء ، بالسىء ولكنه يمحو السىء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي منذ بعث إلى أن فارقتا فالزمه فإنه الأمر . هذه عظتى اليك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين . وذهب سعد بهذه النصيحة فكان على يده فتح العراق .

كان عمر على شدة فيه مع عماله إذا أحسن باعتماد أو شبه اعتماد وقع على أحدهم يشتد على المعتدين في تلك الناحية ليبقى للعامل هيئة توقره في الصدور ؛ ومهابة يلجم بها العامة والخاصة . وقع له مرة أن حصب<sup>(١)</sup> أهل العراق إمامهم ، وقد كان عوَّضهم إماماً مكان إمام كان قبله فحصبوه ، فغضب وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرَّخ ، ودعا عليهم . ذلك لأن شكوى العراقيين عاملهم كانت باطلة ، وهو الذى يتجرى في انتقاء عماله ولا يستسلم لأحد منهم ، بل يجعل بعضهم رقبيا على بعض ، وله عليهم سلطان دونه كل سلطان . شكى عتبة بن غزوان<sup>(٢)</sup> تسلط سعد بن أبى وقاص عليه فسكت عنه عمر ، فأعاد عتبة ذلك مراراً ، فلما أكره على عمر قال : وما عليك يا عتبة أن تقر بالإمرة لرجل من قر يش له صحبة مع رسول الله وشرف . فقال له عتبة : ألسنت من قر يش والرسول يقول حليف القوم منهم ، ولى صحبة مع رسول الله قديمة لا تنكر ولا تدفع . فقال عمر : لا ينكر ذلك من فضلك . قال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع اليها أبداً . فأبى عمر إلا أن يرده فردته فمات بالطريق . وهذا من تأثير عمر في

(١) حصبه رجمه بالحصا . ويستعمل في كل رى مطلقاً (٢) طبقات ابن سعد

عماله ومعاملته لم كما تريد المصلحة لا كما يريدون مثال آخر يخالف هذا - والإدارة تختلف باختلاف الأزمان والبلدان - خالف معاوية وهو أمير الشام عبادة بن الصامت في شيء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية في القول. فقال عبادة لا أساكنك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة. فقال عمر: ما أقدمك. فأخبره. فقال: ارجع إلى مكانك يفتح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك. وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه، ذلك أن عمر لم يكن يستغنى عن خدمة معاوية ولا عن فضل عبادة. كان عمر وهو خليفة لا يميز نفسه عن جمهور الناس بشيء في لباسه ومركبه وحرركته، يختلط بالشعب كأنه واحد منهم، ومع هذا كان الناس يخافونه، ولو وقع مثل هذا التواضع أو التبذل من أحد أفراد الناس لجسروا عليه وضعف سلطانه عليهم إن كان من أرباب السلطان. ولقد كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر في أن يلين لهم فإنه قد أخافهم حتى إنه أخاف الأبقار في خسدورهن. فقال عمر: إني لا أجد لهم إلا ذلك إنهم لو يعلمون ما لهم عندي لأخذوا ثوبي عن عاتقي. وقال عمر: قد أئيل علينا أي ولينا وولى علينا. معناه قد ولينا فعملنا ما يصلح الوالى، وولى علينا فعملنا ما يصلح الرعية.

وما أرانا نبتعد عن الصواب إذا حكمتنا أن شطراً عظيماً من وقت عمر في ولايته كان يصرفه في سياسة العمال وكشف حالهم وانتقاء أصلحهم وتسليكهم في الإدارة والسياسة والقضاء على أسلوب محكم لا تكاد تلحق به في هذا القرن أعرق الدول الحديثة في المدينة وأفضلها بنظمها الإدارية والدستورية. ولعل في الناس من يقول إذا عرضنا هنا لمصادرات عمر، وهذا أيضاً من باب الشدة المتناهية والحجر على حرية العمال، وادخال الخوف عليهم بالضرب على أيديهم على صورة تحريمهم مُتَمَع الحياة، ولا توليهم منه غير الجفاء والخشونة في المعاملة. نعم هكذا كان عمر، وهكذا وضع أساس الملك الإسلامى؛ هو لا يجوز إغناء أفراد بإفقار أمة، ولا أسعاد فئة

باشقاء مجموع . كان ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الامراء<sup>(١)</sup> ، فكان الوالى فى نظره فرداً من الافراد ، يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس ، فكان حب المساواة لا يعدله شىء فى اخلاقه . اذا اشتكى العامل اصغر الرعية جره الى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوئى بينهم فى الموقف حتى يظهر الحق فان توجه قبل العامل اقتص منه ان كان هناك داع الى القصاص او عامله بما تقضى به الشريعة او عزله . ومن عادة عمر ان يكتب اموال عماله اذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما اخذه منهم . مرةً بينا بينى<sup>(٢)</sup> بحجارة وجص فقال : لمن هذا؟ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال : ائت الدراهم الا ان تخرج اعناقها ! وشاطره ماله . وكان يقول : لى على كل خائن أمينان الماء والطين . ولقد صادر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لانه فشت له فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوانات لم تكن له حين ولى مصر ، فادعى عمرو ان ارض مصر ارض مزدرع ومتجر وانها ائمان خيل تناجحت وسهام اجتمعت وانه يصيب فضلاً عما يحتاج اليه لنفقته ومع ذلك قاسمه عمر ماله . وصادر ابا هريرة عامله على البحرين لانه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل عشرون ألفاً وادعى ان خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وانه اجر فقال له عمر : انظر رأس مالك ورزقك فخذ ، وأجعل الآخر فى بيت المال . يريد بذلك ان يحصر العامل وكده فى خدمة اهل عمله ، اما الاتجار وتشمير الاموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ، فان هؤلاء ما يتبلقون به من رزق . وكان يرى فى مصادرة العمال وقهرهم ترويضاً لهم على الطاعة وترك التبجح والادلال على الرعية . وعن شاطره أيضاً النعمان بن عدى عامله على ميسان ، ونافع بن عمرو الخزاعى عامله على مكة ، ويعلى بن منية عامله على اليمن ، وسعد بن ابي وقاص عامله على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامله فى

(١) تاريخ الامم الاسلامية لمحمد الحضرى (٢) عيون الاخبار لابن قتيبة

الشام ، وآخذ خالد بن الوليد لأنه أمره أن يحبس المال على ضعفة المهاجر بن فأعطاه  
ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فأجاز الأنثى لشعره فغضب عمر ، وكان أحد  
الشعراء كتب إليه يقول :

نحج إذا حجوا ونغزو إذا غزوا فأنى لهم وفر ولسنا بنى وفر  
إذا التاجر الهندي جاء بفأرة من المسك راحت في مفارقهم تجرى  
فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون ان شاطرتهم منك بالشر  
فشاطرهم عمر أموالهم وتولى ذلك منهم محمد بن مسلمة لثقتة به<sup>(١)</sup> ولم ينتطح في  
عمله عنزان . شاطر عمر سعداً وعمراً وخالداً وهم ممن يفتخر بهم الإسلام ، استكثر  
عليهم أن ينعموا وإن كان الأول فاتح العراق والثاني فاتح مصر والثالث فاتح الشام .  
وقيل لعمر إن عياض بن غنم ، وهو من كبار الفساحين ورجال الإدارة في  
حكومته ، يتوسع كثيراً في إعطاء المال بحيث لا يقل في هذا المعنى عن خالد بن  
الوليد فقال : إن ذلك من شأن أبي عبيدة ، وعياض من أقرباء أبي عبيدة . وعياض  
ابن غنم هذا جلد صاحب دارا حين فتحت فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى  
غضب عياض ، ثم مكث ليالى فأتاه هشام فاعتذر إليه ، ثم قال هشام لعياض : ألم  
تسمع رسول الله يقول إن من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً في الدنيا .  
فقال عياض : قد سمعنا ما سمعت ورأينا ما رأيت ، أو لم تسمع رسول الله يقول  
من أراد أن ينصح لذي سلطان عامة فلا يُبدِ له علانية ولكن ليخجل به فإن  
قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه . وإنك يا هشام لانت الجري ، إذ  
تجترى على سلطان الله فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله .  
كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بالمال<sup>(٢)</sup> بعد حبس ما كان يحتاج إليه ،  
والمال يجي من أموال الجزية وما يؤخذ من الخراج ، وكانت النصرارى واليهود

(١) طبقات ابن سعد (٢) خطط المقرئ

اقروا على ما في أيديهم من الأرض بعمرونها ويؤدون خراجها ، ووضع في مصر عمر  
على كل حالم دينارين جزية إلا ان يكون فقيراً ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين  
ثلاثة أراذ حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع  
في دار الرزق وتقسّم فيهم . وأحصى عمرو بن العاص المسلمين فألزم جميع أهل مصر  
لكل رجل منهم جبة صوف وبنساً أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو  
بدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً . واستبطأ عمر في بعض السنين خراج مصر فكتب  
إلى عمرو : أما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض  
واسعة عريضة رقيقة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجكداً وقوة في بر وبحر وأنها  
قد عالجت الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك  
وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك  
على غير قحوط ولا جدوب إلى آخر ما قال له ، وهز أعصابه بكلمات قاسية فأجابه  
عمرو : لقد عملت لرسول الله ولن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين  
لما عظم الله من حق أمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به سيئاً وقال : فامض في  
عملك فإن الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها . فكتب إليه إنى لم  
أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من  
توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فانما هو في  
المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون . . فأجابه عمرو : إن أهل الأرض  
استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق خيراً من أن  
تخرق<sup>(١)</sup> بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه .

ومع هذه الهيمنة من عمر على عماله نراه يشهد لعمر بن العاص بحسن السياسة  
دليلاً على تقديره عامله قدره . وكان من رأى عمرو بن العاص في سياسة مصر أن

(١) خرق بالثى . ككرم اذا جهله ولم يحسن عمله

الذي يصلح هذه البلاد وينميتها ، ويقرّ قاطنيتها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، ولا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتربتها . وكان عمر يقول إذا رأى رجلاً يتاجلجج في كلامه : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو بن العاص المثل السائر في حسن السياسة بين رجال العرب ، دهش قبط مصر بحميل عمله ، فدخلوا في الاسلام كثيراً . وأدى به التسامح ان رفع رجل نصراني اليه أن غرُفة بن الحارث السكندى من أصحاب الرسول الذين سكنوا مصر ضر به فوق أنفه فقال عمرو للصحابي : إنا قد أعطيناكم العهد ، كأنه يريد أن يؤاخذ الصحابي بما فعل ، فقال غرُفة : معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهرُوا شتم النبي وإنما أعطيناكم العهد على أن نخلي بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون ، وإن أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أت نخلي بينهم وبين أحكامهم الا أن يأتونا راضين بأحكامنا فتحكم بينهم وإن غيبوا عنا لم نتعرض لهم . فقال عمرو : صدقت . خطب يوماً في الجابية من حوران فما قاله : ألا وإني ما وجدت صلاح ما ولائي الله إلا بثلاث : أداه الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا وإني ما وجدت صلاح هذا للسال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ويعطى في حق ويمنع من باطل . كتب معاوية الى عمر يصف له سوء حال الشام فكتب اليه في مرّة حصونها وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظيرها واتخاذ المواقيد<sup>(١)</sup> لها . جاء عمر الشام مرات أربعاً يكشف حال عمالها ويعنى بقسمة الأرزاق ويسمى الشوائب والصوائف أي غزوات الشتاء والصيف ، ويسد الفروج والمسالح<sup>(٢)</sup> في كل

(١) المناظير قباب مبنية على رؤوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها ويشرف بعضها على بعض ويقام فيها حراس يوقدون النيران عند ما يرون أقبال العدو من جهتهم فيوقد حراس المناظير الذين يلونهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسلحة في زمن قليل . ويقال لهذه المواقيد المناور أيضاً ( التعريف بالمصطلح الشريف ) ( ٢ ) المسلحة الثغر والراقب وجمعه مسالح وهي مواضع الخفاة وسموا مساحة لأنهم يكونون ذوي سلاح أو لأنهم يسكنون المسلحة وهي كالثغر والمزقب يكون فيه أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقتهم على غرة فاذا رأوهم أعلنوا أصحابهم لئلا يهاووا له . والفروج الثغور أي موضع الخفاة

كورة ويستعمل أناساً على السواحل من كل كورة أو يقسم المواريث بعد طاعون  
عمواس ، وكان هلك فيه من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً . وقيل إن عماله استقبلوه  
مرة بأبهة فنزل وأخذ بالحجارة ورممها بها وقال : ما أسرع ما رجعت عن رأيكم إياي  
تستقبلون في هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين  
لاستبدلت بكم غيركم . واعتذر له معاوية عامله في الشام عن الموكب الثقيل الذي  
كان له قائلاً : إنا في بلاد لا تمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرههم  
من هيبة السلطان فإن أمرتني بذلك قتت عليه ، وإن نهيتني عنه اتهمت . فلم  
يأمره به ولم ينهه عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : لَحَسَنٌ ما صدر من هذا  
الفتى عما أوردته فيه فقال : لحسن مصادره وموارده جشمناه ماجشمناه . وقيل إنه  
قدم معاوية على عمر من الشام <sup>(١)</sup> وهو أبيض <sup>(٢)</sup> الناس فضرب عمر بيده على  
عضده فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشرك فقال : هذا والله لتشاغلك بالحمامات  
وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك . وقال عمر : لئن عشت إن شاء  
الله لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني ، أما هم فلا  
يصلون إليّ ، وأما عيالهم فلا يرفعونها إليّ ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم  
أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى  
الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وخصلة أخرى أيضاً لعمر ، تعد من بدائع إدارته الحسنة ، وهو أنه ما كانت  
نفوته مسألة فيها تفوية قلوب الأمة والاعتداد على نفسها خطب مرة فقال : ( أعطوا  
الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إليّ فإنه ليس بيني وبين  
أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ، عزيز على عتبتكم ، وأتم أناس  
علمتكم حضر في بلاد ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه )

(١) الكامل للبرد (٢) يقال أبيض بض شديد البياض أو رقيق البشرة الذي يؤثر فيه كل شيء.

يريد أن يعلم الناس أن لا يكثرُوا من الرجوع إلى الحاكم للفصل بينهم في خصوماتهم ،  
ليصرف وقته في التفكير في أمورهم الخطيرة ، وأن يعتمدوا على أنفسهم لا على  
صاحب السلطان ، وأن يعرفهم حالة الحاضر والبادي منهم ، ويعلمهم أن يعملوا ولا  
يسرفوا لأنهم فقراء . ولطالما قال لقومه أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ولقليل في  
رفق خير من كثير في عنف . يريد أن يسوق الناس إلى المدنية بتؤدة على صورة  
فيها تدريج . وكان يقول من كان له مال فليصلحه ، ومن كانت له أرض فليعمرها  
وإنه يوشك أن يحيى . من لا يعطى إلا من أحب . ونظر إلى رجل مظهر للنسك  
متماوت فخفقه بالدرّة وقال له : لا تُمِت علينا ديننا أماتك الله . وكان يقول ليس قوم  
أكيس من أولاد السراي لأنهم يجمعون عزّ العرب ودهاء العجم .

وكان غرام عمر أبدأ أن يلتن قومه العمل ويبعد بهم عن حياة الكسل ،  
ولطالما قال لكتابه وعمله إن القوة على العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم لعد فإسكم  
إذا فعلتم ذلك تذاءبت (١) عليكم الأعمال فلا تدرّون بأيتها تداوت ولا بأيتها  
تأخذون . وما كان يرى ابعاد العامة عن المجالس العالية لثلا نفوتهم الفوائد وليترّبوا  
على أيديهم بما يسمعون وينقلون عنهم . ويوزع الأعمال بين الكفاة وأرباب  
التخصّص ويقول : أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب ،  
ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن  
النفقة فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله جعلني  
له خازناً وقاسماً .

وكتب عمر الناس على قبائلهم أي أحصاهم ، ففرض الفروض وأعطى العطايا  
على السابقة ، بدأ بالأقرب فالأقرب من الرسول وفرض لأهل بدر ولين بعدهم إلى  
الحديبية وبيعة رضوان ثم لمن بعدهم ولأهل القادسية واليرموك وأعطى نساء النبي

وغيرهم ورزق الصبيان والأئمة والمؤذنين والمعلمين والقضاة والشعراء . وحلف على  
إيمان ثلاث فقال : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق به من أحد  
والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً ، ولكننا  
على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه في  
الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وغناؤه في الاسلام ، والرجل  
وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظّه من هذا المال وهو  
يرعى مكانه .

جمع عمر المسلمين لأول عهده وقال ما يحلّ للوالى من هذا المال فقالوا جميعاً أما  
لخاصته فقوته وقوت عياله ، لا وكس ولا شطط ، وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف ،  
ودابتان إلى جهاده وحوانجه وصلاته وحججه وعمرته ، والقسم بالسوية وأن يُعطى  
أهل البلاء على قدر بلائهم ويرم أمور الناس بعد ، ويتعاهدهم عند الشدائد  
والنوازل ، حتى تنكشف ويبدأ بأهل الفيء . وكان عمر إذا احتاج أتى صاحب  
بيت المال فاستقرضه فر بما عسر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه فيجتال له  
عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه . وطلب من أحد أصحابه أن يقرضه مالا فقال له  
ما يمنعك أن تقترض من بيت المال فأجابته إنه إذا مات وهو له مدين ربما غفلوا  
عن تقاضى ما اقترض ، أما صاحبه فإنه لحرصه على ماله يطالب الورثة بماله فيستوفيه  
وتبرا<sup>١</sup> ذمة عمر .

ومما تعلقت به همة عمر إحداث أوضاع جديدة اقتضتها حالة التوسع في الفتوح  
فهو أول من حمل الدرة<sup>(١)</sup> وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين الفرس  
والروم ، دونها له عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من  
نهباء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس . والديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب

(١) الدرة كالخصرة أو خيرزانه صغيرة يضرب بها

يُكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وعرفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ماتعلق  
بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق  
بعد حين على جميع سجلات الحكومة وعلى المسكان الذي يجلس فيه القائمون على  
هذه السجلات والأضابير والطوامير . وثبت أنه كان له سجن<sup>(١)</sup> وأنه سجن  
الخطيئة على الهجو وسجن ضبيعاً على سؤاله عن الذاريات والمرسلات والنسازعات  
وشبههن . وضر به مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق ، وكتب أن لا يجالسه أحد فلو كانوا  
مائة تفرقوا عنه حتى كتب اليه عامله أن حسنت تو بته ، فأمره عمر نخلي بينه وبين  
الناس . وكانت أعمال عمر جداً كلها لا يجوز لأحد أن يجلس في المسجد في غير  
أوقات الصلاة ، وبني في المسجد رحبة تسمى البطيحا ، قال من كان يريد أن يلغظ  
أو يندش شعراً أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة . وما كان المسجد في أيامه لغير  
الصلاة والقضاء . وكان الخلفاء الراشدون يجلسون في المسجد لقضاء الخصومات .  
ولما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي وكثر الولدان أمر عمر ببناء  
بيوت للمكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم<sup>(٢)</sup>

وضع عمر أول ديوان في الاسلام للخراج والاموال بدمشق والبصرة والسكوفة  
على النحو الذي كان عليه قبل . وقيل إن أول ديوان وضع في الاسلام هو ديوان  
الانشاء<sup>(٣)</sup> ودواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ودواوين  
مصر بالقبطية ، يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين . والسبب في تدوين  
الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً بخمسة ألاف درهم فاستعظمها وجعل  
عليها حراساً في المسجد فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين  
يكتبون فيها « الأسماء ومالو واحد واحد وجعل الأرزاق مشاهرة » وجعل عمر

(١) تاريخ البقوي (٢) التراتيب الادارية لعبد الحى الكنتاني (٣) نهاية الارب للتويري  
وصح الأعتى للقلقشندى

تابوتا أى صندوقا لجمع صكوكه ومعاهداته . وجند الأجناد أى ألف الفيلق ، فسير فلسطين جنداً والجزيرة جنداً ، والموصل جنداً وقنسرين <sup>(١)</sup> جنداً ، وأصبح كل جند فى الشام والعراق يتألف من مقاتلة المسلمين ، يقبضون أعطياتهم من البلد الذى نزله ، فأصبحت الجندية خاصة بفتة من المسلمين ، ويسير الناس بقضيمهم وقضيمهم إلى الزحف عند الحاجة حتى النساء والأولاد . وما كان الجند يعملون كلهم فى المسالخ بل يترك بعضهم فى البلاد يكونون على استعداد للوثبة عند أول إشارة ، والغالب أنه كان يُترك فضل فى بيوت الأموال خارج الحجاز يستخدم فى ظاريه إذا طرأ . وما كانت الصوافى تحمل كلها إلى الحجاز ، بل يدخر بعضها فى بيوت الأموال فى الشام والعراق ومصر ، وجزءاً عظيم من دخل الدولة يصرف فى الوجوه التى أشرنا إليها . وعمر هو أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من استقضى القضاة ، وأول من أحدث التاريخ الهجرى فأرخ سنة ست عشرة بهجرة رسول الله من مكة إلى المدينة ، فكان أول من أرخ الكتب وختم على الطين . قال اليعقوبى وأمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأمره أن يكتب لهم صكاً كما من قراطيسه ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسفل الصكك . <sup>(٢)</sup> وغير أسماء المسلمين بأسماء الأنبياء . <sup>(٣)</sup> وكان أول من مصر الأمصار ، معتر المصربين البصرة والكوفة ، وكان إذا جاءته الاقضية المعضلة <sup>(٤)</sup> قال لعبد الله بن العباس : أنها قد طرت علينا أقضية وعضل فأنت لها ولأمثالها ، ثم أخذ بقوله . وما كان يدعو لذلك احداً سواه ، وكان فى المسائل العامة يسأل الناس فى المسجد عن آرائهم ثم يعرض رأيه ورأيهم على مجلس شوراه وهم من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه ، فكانت أعماله ثمرة ناضجة من الآراء الصائبة ، ولذلك ندرت هفواته فى الادارة بالقياس الى

(١) أفضية رسول الله للقرطى (٢) المعارف لابن قتيبة (٣) كانت العرب تنسب الى قبائلها فلما جاء الاسلام وغلب عليهم سكنى القرى والمدن حدث فيما بينهم الانتساب الى الاوطان كما كانت العجم . وأوضاع كثير منهم فلم يبق لهم غير الانتساب الى اوطانهم « ابن الصلاح » (٤) أسد الغابة لابن الاثير .

غيره ، لأنه يتروى ويعمل بأراء أهل الرأي . ولما أرسل عبد الله بن مسعود الى العراق وزيراً ومعلماً مع عمار بن ياسر الذي ولاه الامارة كتب الى أهل العراق « وقد جعلت على بيت مالكم عبد الله بن مسعود وآثرتمكم به على نفسي » وقد بيعت إلى بعض الأقطار عاملاً على الصلاة والحرب ويسميه أميراً<sup>(١)</sup> وعاملاً على القضاء وبيت المال ويسميه معلماً ووزيراً كما فعل في العراق ، أو يجمع للعامل بين الصلاة والخراج كعامل مصر . وتقسيم العائلات في الشام يختلف عن اليمن ، وعامل البحرين لا يكون كعامل اليمامة وقد بيعت أناساً لمساحة الأرض ، وأناساً لتقدير الخراج ، وآخرين لاحصاء الناس ، وقال لعاملين له توليا مساحة العراق ووضع الخراج على سوادها : أخاف أن تكونا حملتا الأرض ما لا تطيقه ، لئن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن الى رجل بعدى أبداً . وقال : اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار فإني انما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويعدلوا عليهم ويقسموا فيهم بينهم ويرفعوا الى ما أسكل عليهم من أمورهم .

وكان يرزق العامل بحسب حاجته وبلده ، ولما استعمل زيد بن ثابت على القضاء فرض له رزقا ، وكان يرزق عامله على حمص عياض بن غنم كل يوم ديناراً وشاة ومداً . وبعث الى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال . وأمر هذا أن يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وفرض لهم شاة كل يوم ، وجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف . كان أبو بكر يساوي<sup>(٢)</sup> الناس في العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول إنما عملوا لله فأجورهم على الله ، وإنما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لأعالمهم . وكان

(١) كان المغيرة بن شعبة أول من سلم عليه بالامرة وكانوا يكونون أمراءهم فقال : ينبغي أن يكون بين الأمير والرعية فرق ، وألزم أهل عمله أن يؤمروه ففعلوا واقتدى به سائر المسلمين في أمراءهم و لطائف المعارف للتعالي « (٢) سراج الملوك للطرطوشي

عمر يقول لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . ولم يقدر عمر الأرزاق إلا في ولاية عمار فأجرى عليه ستمائة درهم مع عطايه لولائه وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلي معه في كل شهر . وكان عطاء عثمان بن حنيف خمسة آلاف درهم وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم في كل شهر وربع شاة في كل يوم ، وأجرى على شريح القاضي مائة درهم في كل شهر وعشرة أجرة ، وإنما فضل عماراً لأنه كان على الصلاة . قال الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين ألفاً من الناس . وأناه<sup>(١)</sup> عبد الله بن عمر السعدي فقال له عمر : ألم أهدت أنك تلي من أعمال المسلمين أعمالاً فإذا أعطيت العالة كرهتها فقال : بلى . فقال عمر : ما تريد الي ذلك . قال : إن لي أفراساً وأعبداً وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين . فقال عمر : لا تفعل فإني كنت أردت الذي أردت ، وكان رسول الله يعطيني العطاء فأقول : أعطه أفقر اليه مني . فقال النبي : خذته فتموته وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف فخذ ، ومالاً فلا تتبعه نفسك .

كان عمر يأمر الناس بالتفقه في الدين ويُجِدُّ في إرسال الفقهاء إلى الأمصار يفقهون المؤمنين ويعلمونهم دينهم وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يُسَمَّى القاري من الصحابة غيره قال له : هل لك في الشام فإن المسلمين تزفوا وإن العدو قد ذثروا<sup>(٢)</sup> عليهم ، وذلك بعد طاعون عمواس . وكان يقول حين خرج معاذ<sup>(٣)</sup> بن جبل الي الشام : لقد أخلَّ خروجه بالمدينة وأهلها بالفق ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يجلسه لحاجة الناس اليه فأبى عليّ وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجلسه .

وفي كتب عمر الي قضائه وعماله كأبي موسى الأشعري والقاضي شريح وأبي عبيدة

(١) تيسير الوصول لابن الدبيع (٢) تزفوا فنوا ودأر عليه اجترأ (٣) طبقات ابن سعد

ومعاوية وغيرهم قوانين في التشريع والإدارة سنها للمسلمين لا تزال الى يوم الناس هذا هي المعمول عليها، ورسالته في القضاء الى أبي موسى الأشعري جمع فيها «جمل»<sup>(١)</sup> الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً، ولا يجد بحق عنها معدلاً، ولا ظالم عن حدودها محيصاً، ولقد قالوا: «إذا»<sup>(٢)</sup> اختلف الناس في أمر فانظر كيف قضى عمر، فإنه لم يكن يقضى في أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور» وكان أبدأ يأخذ آراء أصحابه لا يقطع أمراً عظيماً من دون استشارتهم ويقول: الرأي الفرد كالخيط السجيل، والرأيان كالخيطين المبرمين، والثلاثة مزار لا يكاد ينتقض. هذا ولو وضع علم عمر في كفة كما قال ابن مسعود، ووضع علم أحياء العرب في كفة لرجح بهم علم عمر. وأشد عمر ذات يوم شعر زهير بن أبي سلمى فلما بلغ قوله:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو<sup>(٣)</sup> يفار أو جلاء.

جعل يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول: لا يخرج الحق من إحدى

ثلاث، إما يمين أو محاكمة أو حجة

وكانت المدينة في أيامه أشبه بمدرسة يتخرج به فيها القضاة والعمال والقواد والأمراء فلا يبعث إلى الأمصار إلا من اختبره في الجلمة، وقلما أخطأت فراسته في الناس، وهو المثل الأمثل في جده. كان كعب بن سور جالساً عند عمر فجاءته امرأة تشتكي زوجها فقال لكعب: اقض بينهما، فلما قضى بما أعجبه وما لم يخطر له ببال قال لكعب: اذهب قاضياً على البصرة. ساوم عمر بفرس فركبه ليشوره<sup>(٤)</sup> فعطب فقال للرجل: خذ فرسك. فقال الرجل: لا. قال: اجعل بيني وبينك حاكماً. قال الرجل: شريح.

(١) الكامل للبرد (٢) طبقات ابن سعد (٣) النفاذ تنافر الى رجل يقين حجج الخصوم ويعمك بينهم والجلاء ان يكشف الامر وينجلي فتعلم حقيقته فيقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين (٤) من شار لدابة شوراً وشورا راضها وقيل ركها عند العرض على مشربها وقيل اختبرها ينظر ما عندها

فتحا كما إليه فقال شريح : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت ، أو رد كما أخذت . فقال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ، سر الى الكوفة فبعته قاضياً عليها . قالوا وإنه لأول يوم عرفه فيه . وبقي شريح قاضياً هناك ستين سنة .

ومن الفقهاء في أيامه أبو موسى الأشعري ، وسلمان بن ربيعة الباهلي ، وأبو قرّة الكندي ، وأبو الدرداء ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عباس . ومن عماله نافع بن عبد الحارث الخزاعي ، وسفيان بن عبد الله الثقفي ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وقتادة بن النعمان ، وعمير بن عوف ، وعمير بن وهب بن خلف الجُمحي ، وعتبة بن مسعود ، وعدى بن أبي الزغباء الجُهني ، وعويم بن ساعدة ، وسهيل بن رافع ، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصاري ، وواقد بن عبد الله التميمي ، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم . من كل من هو فرد في علمه ، متميز بحسن سياسته وإدارته . كتب إلى أبي موسى الأشعري : إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس فأكرم وجوه الناس ، فبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسمة . يعني أن عمر أوصى بالأعيان ، وإن كان يكره الشفاعة والوساطة . فقد توسط مولى عمر بأن يكتب كتاباً إلى عامله في العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها فأنه عمر وسبه وقال : أتريد أن يظلم الناس وهل هو إلا رجل من المسلمين يسه ما يسههم . ؟

كان ابن الخطاب يفحص أموراً لا تخطر ببال أحد . كتب إلى أبي موسى الأشعري « إني قد بعث اليك مع غاضرة بن سمرّة العنبري بسحف فإذا أتاك لكذا وكذا فأعطه مائتي درهم وإن جاءك بعد ذلك فلا تعطه شيئاً واكتب إلى في أي يوم قدم عليك » يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجسد والاهتمام

والحرص على الأوقات وضبط المواعيد ، هو يعطى من أرسله بالصحف مائتي درهم إذا جد فوصل البلد الذي عين له في الأجل المضروب وإلا فيحرم أجرته. وكتب إلى ابى موسى الأشعري أيضاً<sup>(١)</sup> إذا اناك كتابى هذا فاضرب كتابك سوطاً واعزله عن عمله . وذلك ان كاتب أبى موسى كتب إلى عمر ( من ابو موسى ) وكان عليه أن يقول ( من أبى موسى ) . ودبر عام الرمادة ( ١٧ — ١٨ ) تديراً إدارياً ناجماً عند ما رأى الناس يهلكون من المجاعة ، فكتب إلى أمراء مصر والشام والعراق أن يوافوه بالميرة فانتسه القوافل تحمل طعاماً كثيراً وغيره ، فوسع على الناس ، وكان قطع الطعام عن نفسه وأطعم الجياع ، ولولا تدايره هذه لهلك أهل الحجاز جميعهم .

ومن جملة تدايره الإدارية أنه<sup>(٢)</sup> « حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل فشكوه فبلغه فقام فقال : ألا إني قد سنت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جدعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سدسياً ثم بازلاً ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بزل<sup>(٣)</sup> ألا وإت قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا . إني قائم دون شعب الحرة أخذ بحلأقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار » . هذا مجمل من إدارة عمر ، وقد كان شديداً في إقامة الحدود يقيمها على أقرب الناس إليه : حد في الحجر ابنه ، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر ، لأن احد قبطنها استعداه عليه . قال السائب بن يزيد كنا نؤتي بالشارب على عهد رسول الله وإمارة أبى بكر وصدر من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرجلنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين ، حتى إذا عتوا وفسقوا جلدوا ثمانين .

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (٢) تاريخ الطبرى (٣) بزل البعير بزولا فطر نابه أى انشق بدخوله

ولما ضعف نصاب الشهادة على المعيرة بالزنا سُرِّي عنه لانه ما أراد أن يرحم أحد من الصحابة<sup>(١)</sup> وأراد أن يحد جملة بن الأبيهم من ملوك غسان لان رجلا فزارياً<sup>(٢)</sup> في الحج وطى على إزاره فلطمه جملة فهشم أنفه ، وشكاه الفزاري فاراد عمر جملة على أنت يفتدى نفسه أو يأمر الرجل بلطمه ، فقال جملة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكما ، وسوى بين الملك والسوقة في الحد . ففر جملة والتحق بالروم . وكان يساوى بين الناس في القضاء مها علت منزلتهم ، وبلغه عن بعض عماله وهو في دار الحرب أنه تعدى حداً من حدود الله فأغضى عنه لثلا يعتصم ببلاد الروم .

وكان يعرف أن الرسول قال : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً ، فسكت عمر عنهم ، وراعى اليهود التي أعطاهما الرسول لهم ، ولما كان من جملة شروط نصارى نجران أن لا يأكلوا الربا أمر باجلاهم ، واشترى منهم أرضهم وأوصى بهم أهل الشام والعراق . ولما انطلق انصارى بنى تغلب هار بين من الجزية أضعفها عليهم<sup>(٣)</sup> وشرط عليهم أن لا ينصروا أولادهم ، ولم يسمع لقول أحد بنى تغلب أنهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية ، وقوله له مهدداً : لا تعن عدوك عليك . وكان يتحامى استعمال النصارى وعرضوا عليه كتاباً منهم فأبى أن يستعملهم . وكان إذا أراد<sup>(٤)</sup> أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم إليهم بالوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم أمره . وما كان يميز أحداً من آل بيته في شيء ، وربما هضم بعض حقهم وأعطاه من هو أجدر منهم . قسم<sup>(٥)</sup> عمر مرطاً<sup>(٦)</sup> بين نساء المدينة فبقى فيها مرط جيد

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (٢) تاريخ أبى الفداء (٣) المعارف لابن قتيبة (٤) تاريخ الطبرى

(٥) تيسير الوصول لابن الديبع (٦) المرط كساء من خز أو صوف يؤزر به

فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك <sup>(١)</sup> فقال : أم سليط أحق به فإنها من بايع رسول الله ، وكانت تزفر <sup>(٢)</sup> لنا القرب يوم الأحد . وقال أحدهم لعمر اتق الله يا أمير المؤمنين فقال : لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم تقبلها منكم . وردت عليه امرأة فرجع اليها وقال : رجل أخطأ وامرأة أصابت .

وكان لا يقرب الشعراء ولكنه يُجرى عليهم رزقا يكفيهم . كتب مرة إلى للغيرة بن شعبة أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا في الجاهلية والإسلام <sup>(٣)</sup> فأرسل إلى الأغلب العجلي فقال إنه على استعداد لأن ينشده ، ثم أرسل إلى لييد ابن ربيعة فقال أنشدني . فقال : إن شئت أنشدتك مما عني عنه من شعر الجاهلية قال : لا أنشدني ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى أديم فكتب فيه سورة البقرة فقال : أبدلني الله مكان الشعر هذا . قال فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : إنه لم يعرف أحد من الشعراء حق الإسلام إلا لييد بن ربيعة فأنقص من عطاء الأغلب خمسمائة واجعلها في عطاء لييد .

\*\*\*

نهج عمر بن الخطاب لمن يخلفه النهج الذي يجب السير عليه في تدبير الملك . وأوصى الخليفة بعده أن يقر عماله سنة فيما قيل ، وأوصاه <sup>(٤)</sup> بتقوى الله لا شريك له وبالمهاجرين الأولين خيراً وأن يعرف لهم سابقتهم ، وأوصاه بالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصاه بأهل الأمصار خيراً فانهم رده العدو وحياة النبي ، وأن لا يحمل فيئهم إلا عن فضل منهم ، وأوصاه بأهل البادية خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حوائثي أموال أغنيائهم فيرده على فقرائهم ،

(١) يريد أم كلثوم بنت علي (٢) تزفر القرب تخطبها (٣) الاشراف لابن أبي الدنيا (٤) البيان والتبيين للجاحظ

وأوصاه بأهل الذمة خيراً وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يد وهم صاغرون ، وأوصاه بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم وأن لا يؤثر غنيهم على فقيرهم ، وأن يشتد في أمر الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذه في أحد رافة حتى ينتهك منه مثل ما انتهك من حرم الله ، ويجعل الناس عنده سواء لا يبالي على من وجب الحق ، ثم لا تأخذه في الله لومة لائم ، وأوصاه أن لا يرخص لنفسه ولا لغيره في ظلم أهل الذمة ، وأنشده الله أن يرحم جماعة المسلمين ويجلّ كبيرهم ويرحم صغيرهم ويوقر عالمهم ، وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالنبي فيغضبهم ، ولا يجرمهم عطايهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجرمهم في البعوت فيقطع نسلهم ، ولا يجعل المال ذولة بين الاغنياء منهم ، ولا يفلق بابه دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم .

ولما أفضى الأمر إلى عثمان بن عفان حافظ على الأوضاع التي وضعها عمر ، وكان أول كتبه إلى أمراء الأجناد : « قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملائنا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم » وكان أول كتبه إلى عماله : « فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وأن صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعظوم ما لهم وتأخذون بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعظوم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم » وكتب إلى عمال الخراج : « أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » وكتب في الأمصار أن يوافيه العمال في كل موسم ومن

يشكوههم ، وكتب إلى الناس في الامصار أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه فأبى مع الضعيف على القوى ما دام مظلوماً إن شاء الله . «  
 واعتمد عثمان لأول ولايته في مشورته على من اعتمد عليهم الشيخان من قبل ، وفي الولايات على بعض من كانوا عمالاً لعمر ثم على أناس من أهله وعشيرته ، ومن اعتمد عليهم مروان بن الحكم . وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول يستشيرهم ويعمل بما يجمعون له عليه . ولم يكن عثمان مبتدعاً بل كان متبعاً اتبع سيرة العمرين<sup>(١)</sup> في الحكومة . وما عزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة . وكثر المال في أيامه فكان لا يتوقف في إنفاقه . قيل انه باع غنائم افریقیة بمخمسائة الف دينار وأعطاهها مرواناً ولم يطالبه بها ، ولم يزل للمال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف . وأعطى عبد الله بن الأرقم وكان عمر استعمله على بيت المال ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال : عملت لله وانما أجرى على الله .

وكان عثمان جواداً ويحث عماله على الجود . قدم المدينة ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وهي أعمال غزنة فقال له عثمان : صل قرابتك وقومك . ففرق في قریش والأنصار شيئاً عظيماً من الأموال والكسوات<sup>(٢)</sup> . وأرسل الى علي بن أبي طالب<sup>(٣)</sup> بثلاثة آلاف درهم وكسوة ، فلما جاءته قال : الحمد لله انا نرى تراث محمد يأكله غيرنا . فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك أرسل الى علي بثلاثة آلاف درهم . قال :

(١) يقولون العمران لابي بكر وعمر لان أهل الجبل نادوا بعلي بن أبي طالب : أعطنا سنة العمرين ، وعمر اسم مفرد لا كابي بكر وإنما طلبوا الحقة « الكامل للبرد » (٢) أسد الغابة لابن الأثير (٣) طبقات ابن سعد

كرهت أن أغرق ولم أدر مارأيك قال : فأغرق . قال : فبعث اليه بعشرين ألف درهم وما يتبعها . قال : فراح على إلى المسجد فاتمى إلى حلقة وهم يتذاكرون صلوات ابن عامر ، هذا الحى من قریش . فقال على : هو سيد فتیان قریش غير مدافع . وكان ذلك من سياسة عثمان وحسن إدارته .

ومن ذلك أن عامله على الكوفة كتب اليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينفر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها فكتب اليه عثمان : أما بعد ففضل أهل السابقة والقُدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تفاقوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل . اه .

وكانت <sup>(١)</sup> مغازى أهل الكوفة في زمنه الرى وآذر بيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بآذر بيجان وأربعة بالرى وكان بالكوفة اذ ذلك اربعمائة مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف في كل سنة فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة .

وضعت الإدارة في النصف الأخير من عهد عثمان لشيخوخته ، ولأنه لا يستطيع من كان في سنه أن ينظر في جميع المسائل . واشتغل بعض كبار العال بأطعامهم في الولايات ، وشاغب المحرومون على المنصوبين ، وكثيراً ما كان يصر على تنفيذ أوامره لا يبالي كثيراً بالشكاوى لعله بأنها صادرة على الأكثر عن أعراض شخصية ، وما نفع اللين ولا الشدة يوم حُمّ القضاء فكان من قتله ما كان . ومن أهم

الأسباب في مقتله غلظة إدارية بدرت منه ساق إليها الغضب والعجلة . قالوا انه اجتمع<sup>(١)</sup> أناس من أصحاب النبي كتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ، وما كان من تطاوله في البنيان ، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلطة ، لا حجة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمر ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتم ، وتعطي له الحد عليه وتأخيره ذلك عنه « جلده حين شهد عليه بشرب الخمر وأنه تعاطاها » وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ، ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة ، وما كان من إداره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم حجة من النبي ثم لا يفزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران . ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب في يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب في يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقي وحده ، ففضى حتى جاء دار عثمان فاستأذن عليه فأذن له في يوم شات ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية فدفع إليه الكتاب فقرأه فقال له : أنت كتبت هذا ؟ قال نعم . قال : ومن كان معك ؟ قال : كان معي نفر تفرقوا فرّقاً منك قال : ومن هم ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : فلم اجترأت على من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعني عماراً) قد جرأ عليك الناس وانك إن قتلتهم نكلت به من وراءه . قال عثمان : اضربوه

(١) الامامة والسيادة المنسوب لابن قتيبة

فضر به وضرب به عثمان معهم حتى فتقوا بطنه ، فغشى عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار . وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم . ذلك لان عماراً كان من أعظم الصحابة ومن النقباء في مجلس شورى الرسول . ومناقبه كثيرة في الإسلام ، فمثل هذا لا يضرب على هذه الصورة البشعة ، ومكانته مكاتته بين المسلمين . والمثل العربي يقول العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه للملامة أو الإشارة ، ومعاملة عمار بهذه القسوة ساقته إلى ان كان من أعظم من آلب الناس على عثمان وخدم علياً ضروب الخدم حتى قتل في صفين .

ومن عمال عثمان عبد الله بن الحضرمي ، والقاسم بن ربيعة ، وعبد الله بن عامر ، وحبيب بن مسلمة الفهري ، وأبو الأعور الأسلمي ، وعلقمة بن حكيم ، وجابر بن فلان المزني ، وسماك الأنصاري ، والفقعاق بن عمر ، وجريير بن عيلان ، والأشعث ابن قيس ، وعتيبة بن النهاس ، ومالك بن حبيب ، وسعيد بن قيس ، والسائب بن الأقرع ، وعقبة بن عامر ، ومعاوية بن ابي سفيان ، والغالب عليه مروان بن الحكم . وكان عثمان ست سنين في ولايته وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب وكان عمر رجلاً شديداً<sup>(١)</sup> قد ضيق على قريش أنفاسها لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظماً له وإجلالاً وتأسياً به واقتداءً ، فلما وليهم عثمان وليهم رجلين ثم أنكر الناس عليه أشياء أشراً وبطراً . قال ابن عمر : لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

أما طريقة علي بن أبي طالب فكانت أيضاً في الادارة طريقة من سبقوه إلى الامامة : يولى العامل ويطلق يده على الجملة ويكشف حاله ، ويدعو عماله إلى التبليغ بميسور العيش والرفق بالرعية . ويضع لهم المنهاج الذي يسرون عليه . أوصى

(١) الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة

أحد عماله بأهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبين لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تقمه على رجله في طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج ، وإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم . ومما كتبه إلى الأشر النخعي وهو مما لم ينفذ وبقى في حيز الأقوال ، لمقتل الأشر قبل أن يبلغ مصر قوله : وتفقد أمر الخراج بما يصلح اهله فإن في إصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً . . . وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبير .

ومما جاء في هذا الكتاب : ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختياراً ولا تولم بحبابة وأثرة ، فإنهم جماع من شُعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدّم في الإسلام المتقدمة . فإنهم أكثر أخلاقاً وأصحّ أعراضاً وأقل في اللطماع إشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وأبعت العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموهم حدوداً لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، أكتفت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنه . . . وجاء في هذا الكتاب أيضاً : ثم ان للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتداول وقلة إصاف في معاملة ، فاحسم مادة أولئك

بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطن لأحد من حاشيتك وحامتك<sup>(١)</sup> قطيعة ،  
ولا يطعمن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل  
مشترك يحملون مؤنته على غيرهم .

ومن وصية لعل بن أبي طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهي  
أشبه بالأوامر العامة : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تُروِّعَنَّ  
مسلماً ، ولا تجتازنَّ عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . فإذا  
قدمت على الحى فأنزل بمأثمهم ، من غير أن تخالط أبياتهم . ثم امض اليهم بالسكينة  
والوقار . حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تُخدج<sup>(٢)</sup> بالتحية لهم ، ثم تقول :  
عباد الله أرسلني اليكم وليُّ الله وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله  
في أموالكم من حق فتودوه الى وليه . فان قال قائل : لا . فلا تراجعوه وان أنعم  
لك منم فانطلق معه من غير أن تُخيفه ، أو تُوعده ، أو تُعسفه أو ترهقه . فخذ  
ما أعطاك من ذهب أو فضة . فان كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا باذنه ، فان  
أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ،  
ولا تُنفرنَّ بهيمة ولا تُفزعنَّها ، ولا تسوان صاحبها فيها ، واصدع المأل صدعين ثم  
خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره . ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره . فإذا  
ختار فلا تعرضن لما اختاره . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفائه لحق الله في  
ماله ، فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله ، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذي  
صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله . ولا تأخذن عوداً<sup>(٣)</sup> ولا هرمة ولا  
مكسورة ولا مهلوسة<sup>(٤)</sup> ولا ذات عوار . ولا تأمنن عليها الا من تثق بدينه .  
رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله الى وليهم فيقسمة بينهم . ولا توكل بها الا ناصحاً

(١) الحامة بتشديد الميم الخاصة (٢) لا تنقص (٣) العود المسن من الابل (٤) المهلوسة  
المریضة قد هلها المرض وأفقى لها . والعوار العيب

شفيقاً وأميناً حفيظاً . غير معتفٍ ولا يحجف ولا ملغب ولا مُتعب<sup>(١)</sup> . ثم أخذر  
الينا ما اجتمع عندك نُصيرَه حيث أمر الله ، فاذا أخذها أمينك فاعز إليه أن  
لا يحول بين ناقة وبين فصيلها ، ولا يُمصّر<sup>(٢)</sup> لبنها فيضراً ذلك بولدها ،  
ولا يجهدنها ركوبا ، وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها ، وليرفه على اللأغب ،  
وليستأن بالنقب والظالم<sup>(٣)</sup> ، وليوردها ما تمرُّ به من القدر ، ولا يعدل بها عن  
نبت الأرض الى جواد الطرق . وليروحها في الساعات ، وليهلها عند النطاف<sup>(٤)</sup>  
والأعشاب ، حتى تأتينا باذن الله بُدناً مُنقىبات<sup>(٥)</sup> غير متعبات ولا مجهودات ،  
لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فان ذلك أعظم لأجرك وأقرب  
لرشدك ان شاء الله .

ومن كتاب له إلى بعض عماله وفيه جماع سياسة الخالفين والموافقين إذا جعله  
كل عامل دستوره في عمله قال : اما بعد فإن دهاقين<sup>(٦)</sup> أهل بلدك شكوا منك  
غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونظرت فلم أرحم أهلاً لأن يُذنوا لشركهم ، ولا أن  
يقصوا ويحفظوا لعهدهم ، فلبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة ، وداول  
لهم بين القسوة والرافة ، وأخرج لهم بين التقريب والإدناء ، والإبعاد والإقصاء ان  
شاء الله . وكتب إلى زياد وكان عامله على فارس : اما بعد فإن رسولى أخبرنى  
بموجب ، زعم أنك قلت له فيما بينك وبينه أن الأكراد هاجت بك فكسرت عليك  
كثيراً من الخراج وقلت له : لا تعلم بذلك أمير الأمنين . يا زياد وأقسم بالله إنك

(١) المعنف ذو العنف بالضم وهو ضد الرقيق، والمحجف الذى يسوق المال سوقاً عنيفاً فيحجف به  
أى يهلكه، والملغب المتعب واللغوب الاعياء (٢) المصر حلب ما فى الصرع جيمه (٣) الظالم  
الذى ظلم أى غمز فى مشيه، والنقب ذو النقب وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تحرقه (٤)  
النطاف جمع نطفة وهى الماء الصافى القليل (٥) البدن بالشديد السمان واحدها يادن ومنقىبات ذوات  
نقى وهو المخ فى العظم والشحم فى العين من السمن وأنقت الابل وغيرها سمتت وصار فيها نقى وناقة  
منقىة وهذه الناقة لا تنقى (٦) أرباب الاملاك من العمم

الكاذب ، ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتملاً . وكتب إلى كعب بن مالك : أما بعد فاستخلف على عملك واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السواد فتسأل عن عمالي وتنظر في سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب .

قال اليعقوبي <sup>(١)</sup> إن علياً حكم بأحكام عجيبه حتى إنه حرق قوماً ودخن على آخرين ، وقطع بعض أصابع اليد في السرقة ، وهدم حائطاً على اثنين وجددهما على فسق ، وكان يقول استتروا بيوتكم والتوبة وراءكم ، من أبدى صفحته للحق هلك ، إن الله أدب هذه الأمة بالسوط والسيف ، وليس لأحد عند الإمام هوادة . قالوا في القرآن أربعة سيوف : سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا فإما من بعد وإما فداء ، وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم في سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزاب . وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيف على أهل البغي وهو المذكور في سورة الحجرات ، ولم يسلم الرسول هذا السيف في حياته وإنما سلمه عليٌّ في خلافته ، وكان يقول : أنا الذي علمت الناس قتال أهل القبلة ، وله صلى الله عليه وسلم سيوف أخرى منها سيفه على أهل الردة وهو الذي قال فيه : من بدل دينه فاقتلوه ، وقد سلمه أبو بكر من بعده في خلافته على من ارتد من قبائل العرب . ومنها سيفه على المارقين وهم أهل البدع كالتخوارج . وروى عن علي أن النبي أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين . وقد حرق علي طائفة من الزنادقة فصب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار فقال علي : ويح ابن عباس لبغات عن الهنات .

وقالوا إن <sup>(٢)</sup> علياً كان يقسم ما في بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً ودخل مرة إلى بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : يا صفراء اصفرى ، ويا بيضاء

(١) تاريخ اليعقوبي (٢) تاريخ أبي الفداء.

ايضاً وغري غيري ، لا حاجة لي فيك . وانتهى اليه أن أحد عماله يفرق ويهب الأموال وكان عليها . ولامه أن قسم في ، للمسلمين في قومه ومن اعتراه من السائلة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء . كما يقسم الجوز . فأجابه عامله إنه منذ ولي العمل لم يرزأ من عمله ديناراً ولا درهماً ولا غيرها وأن العزل أهون عليه من هذه التهمة . وقال عليّ : لئن بقيت لنصاري بني تغلب لأقتلن المقاتلة ولأسبين الذرية ، فإني كتبت الكتاب بينهم وبين رسول الله علي أن لا ينصروا أولادهم . ورأى علي داراً للقاضي شريح عمرها فقومت عليه بمائتين ديناراً فوعظه وبكته ضمناً مع أنه كان يرزق خمسمائة درهم . وكان يقبل الهدية ويكافئ بمثلها . وهو من أكبر قضاة الصدر الأول .

ومن مجموع هذه الفقرات من كتب علي بن أبي طالب عرفنا متزعه في تدبير الملك ، وشدهته على من يطيل يده بالأذى إلى الرعية وإلى أموال الدولة ، وكان هديه هدى أصحابه الثلاثة من قبل ، ولكن التوفيق أخطأه ، استغرقت الفتن أيامه ، أكثر من التنظيم والإدارة . وفقد الاستقرار في البلاد للنزاع الذي قام بينه وبين خصومه . قال الجاحظ لا يعلم رجل في الأرض متى ذكر السبق في الإسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الإسلام ، ومتى ذكر الفقه في الدين ، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي يتناصر الناس عليها ، كان مذكوراً في هذه الخلال كلها إلا عليّ .

ومما يعد من خطيئاته الإدارية مبادرته إلى عزل جميع عمال عثمان ولم يتر بص بالأمر وصول البيعة اليه من أهل الامصار<sup>(١)</sup> ، ولم يصح إلى تحذير المخذرين ولا نصح الناصحين بل أبي من الإبقاء عليهم أو أحداً منهم إباءً تاماً كأنه قد وفر في نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلبوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد

(١) تاريخ الإسلام — الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار

منهم يوماً كاملاً نقص في دينه، ولو أنه اتأد في الأمر، وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان في عزل الولاية شياً، لأن الخليفة هو الذي يعطى الولاية سلطانهم، فهو حر في اختيار عماله. ولما طالب أصحاب الرسول بإقامة الحد على من شرك في دم عثمان بين لهم أن القوم الذين في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم، وقد تارت اليهم العبدان وقات اليهم الأعراب، وبأيديهم الحول والطول بالمدينة، وأهلها لا يقدرون منهم على شئ، وطلب اليهم إنظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم. ومن عماله عبد الله بن عباس وكان واليه على البصرة واليه الصدقات والجند والمعاون وقثم بن العباس وعبيد الله بن عباس وأبو الأسود الدؤلي وسهل بن حنيف وغيرهم.

## إدارة الامويين

### الإدارة على عهد معاوية بن أبي سفيان

ما عرفت للحسن بن علي طريقة في الإدارة لأنه لم يطل أمره غير بضعة أشهر وذلك في العراق والحجاز ، أما سائر الأقطار فكانت في يد معاوية ، ولكن عبد الله ابن عباس من أعظم أنصار علي كتب إلى الحسن أن يولي أهل البيوتات والشرف يستصلح بهم عشائرهم حتى تكون الجماعة ، فان بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تدعو إلى ظهور العدل وعز الدين ، خير من كثير مما يحبون ، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور ووهن الدين . حتى إذا كان عام الجماعة ونزل الحسن عن الخلافة وأجمع المسلمون على استخلاف معاوية ( ٤١ هـ ) التفت هذا إلى سياسة الملك بحزم شديد وعزم أكيد ، وقد كان من قبل يسوس الناس تحت سلطان أعظم من سلطانه ، فأصبح يسوسهم بسلطانه مباشرة ، ولا يطلب منه حساب لغير نفسه وديانته . وساعد معاوية على حسن إدارة الملك سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت منذ كان كاتب وحى رسول الله يشهد روعة الرسالة ، ويأخذ من البيئة النبوية ، فتشغف على أتم ما يكون من السكال ، ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الغناء فولى الشام عشرين سنة تدرس<sup>(١)</sup> خلالها بالسياسة ، واتسع أمامه أفق جديد من النظر ، فادھش من تولى أمرهم بحلمه وعلمه وثاقب رأيه وفرط دهائه ، وكان أبوه من قبل يعالج شؤون الناس ويتألفهم ويعرف ما يصلحهم ،

(١) تدرس وامترس بالشئ احتك به وتدرس بالنواب والمصنومات مارسها

وعنه أخذ شيئاً في هذا المعنى ، والناتى . في مثل هذه الأعمال يتحنك في الإدارة ويكون إماماً في صناعته .

حافظ معاوية على أصول الرسول والراشدين في الإدارة ، وما حاد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ودعا اليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سداجة البداوة إلى مجبوحة الحضارة ، وعرف فوائد الثورى فما كان يصدر في المهفات إلا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعى أن يأخذ بأراء أشراف القوم ، وينزل على حكم وفود<sup>(١)</sup> البلاد ، وله ولآل بيته مجالس يعقدونها في المسجد الجامع ، تدور أبحاثها على سياسة البلاد وحكمها في الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والشيوخ والولايات ، وما كان الأمويون إلى الاستبداد بالرأى في معظم حالاتهم ، ولا سيما فيما له مساس باصلاح الراعى والرعية .

كان معاوية يفض مشاكلة بالحسنى يلين للناس ويشفع الجملة بالاحسان ، يوليه كل ناب<sup>(٢)</sup> نابه في قومه ، سيد مسود في أهله ، ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة وأخراجها عن بيته بعد ان آلت اليه ، وما كان مع من يظلم رعاياه إلا شديداً ، ويستميل القلوب بالعتاء وبالاقناع أو بالاغضاء أو بالمجادلة التى هى أحسن ، وبلغ من سعة الصدر ووافر الحلم أن ضرب للمثل بحلمه ، وكان إذا لم تنجع فى الناس وسائله اللينة ، يعمد بعد التماس كل حيلة إلى القوة ، وهو القائل لا أضع سبى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، وقيل وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا مدوها خليتها ، وإذا خلّوها مددتها . وقال : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . ومن المستحيل كم<sup>(٣)</sup> الأفواه أو تنطق بما يراد ، ورضا الناس

(١) خطب الشام للنزلف (٢) الناب سيد القوم والنابه الفطن ذو الباعة (٣) كم البعير شدفه

بالكلام والكلام كالسكامة ما يك به فم الحيوان لئلا يعطس أو يأكل

غاية لا تدرك . فما دام الأمر يفض بالكلام ، ولا يقوم رجل جده يقلقل أمر الجماعة فالعالم أحرار في أقوالهم ، ومتى لجأوا إلى القوة وتطالوا إلى الفتنة انكفاً عليهم بقوته ، وما برحت همته منذ تولى الحكم مصروفة إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء والمذهب ، وهو يستشير أرباب الرأي من أنصار دولته ، ولا يأتمن في إدارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من آل بيته ، فإذا أتفق أن كان فلان ينزع إلى كذا أو يحب فلاناً من خصومه أو يغلظ في بيان رأيه يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبير أمر عنده .

فالساسة هي كل ما حصر فيه معاوية وكده ، ومن أجل توطيد دعائمها لجأ إلى طرق في الدعوة مؤثرة ، فجعل القصاص أو الوعاظ في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من أعدائها ، وذلك لما رأى علياً<sup>(١)</sup> عند منصرفه من صفين قنت في الصلاة ودعا على من خالفه . فوقع في نفس معاوية أن يعامل علياً بالمثل وأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعوه ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله في عاصمته ، فأحدث قصص الخاصة ، عهد بها إلى رجال يهتمون بسلطانه . وظل قصاص العامة يجتمع اليهم النفر من الناس يعظونهم ويذكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرق قلوبهم ، وكان القصاص إذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحمده ومجده وصلى على نبيه ، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، وعلى أهل حربه وعلى الكفار كافة . ومن القصاص من كانوا يرفعون أيديهم في قصصهم كما كان سليم بن عتر قاص الجند زمان عمرو بن العاص .

ويقول من أمعنوا في درس تاريخ معاوية ان دعوى سنه لعن

(١) تاريخ القضاة والولاة للكندي

على<sup>(١)</sup> عقبى كل خطبة<sup>(٢)</sup> لم يبق عليها دليل ثابت يركن اليه ، وما من أثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم ، وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة . وجلب لعن الأمويين علياً من<sup>(٣)</sup> البغضاء المستترة أكثر مما نالهم من الفائدة الحقيقية ، كما اخطأ معاوية باطلاق يد زياد في سياسة القمع في العراق على صورة هائلة تحالف ما كانت عليه سياسة معاوية من اللين ، وكان عليه أن يطبق بنفسه هذه السياسة مباشرة . وابتشر لعن الطالبين للأمويين ولعن الأمويين للطالبين في كل مكان ، وقد لعن الأمويون علياً على منابرهم نحو الف شهر ، ولم تبطل هذه البدعة السيئة إلا في عهد عمر بن عبد العزيز ، استعاض عنها بآية : ( ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا في الإيمان ) الآية وقيل بل جعل مكان ذلك : ( إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر ) وقيل بل جعلهما جميعاً . وكان العلويون يقفون عقب الصلوات يلعنون نبي أمية يشفون بذلك نفوسهم الثائرة ، من أجل دماء مطلوقة ، وطوائف<sup>(٤)</sup> طويلة ، وملك مستأثر به .

واقفني معاوية فعلم عمر بن الخطاب في العلم بأخبار رجاله ورعيته فانتظم له أمره ، وكذا كان زياد بن أبيه وعبد الملك والحجاج . قال الجاحظ : ثم لم يكن بعد

---

( ١ ) كان اللعن منذ القرن الأول من أيسر ما يقابل به خصم خصمه وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً وانطوا ذلك البساط بما عليه جملة ، لم تشتف صدور شيعة علي من النيل من الراشدين والأمويين والعباسيين حتى كاد لعنهم يعد من أركان المذهب ، وصار بعضهم ينعنون الشيخين بصنعى قريش ويقذفون بابتقيهما الطاهرتين ، وأصبح اللعن سنة من سنن العباسيين ، يلعنون كل من حارب سلطانهم ، وقد عزم المعتضد على سب معاوية على المنابر فحذره وزيره من اضطراب العامة وأمر المتمد بعن ابن طولون على المنابر لما استأثر بولاية مصر والشام فلعن ينعداد وسائر العراق ، ولعن ابن طولون المتمد على المنابر في جميع أعماله بمصر ، وعهد الى هذا اللعن السياسي بعض خلفاء بني العباس . أما الاسلام فلم يجوز اللعن إلا على الكفار لاعل التعيين . وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في لعن الظالمين والمنافقين إكباراً لعلتهم في خراب العمران ، وما يشاهد في بعض الكتب من لعن بعض أهل القبلة وغيرهم فإنا هو من زيادات النسخ على ما حقق ذلك المارفون من العلماء . ( ٢ ) الكامل للمبرد ( ٣ ) معنة الاسلام . مادة أمية ( ٤ ) ظل دمه هدره والطوائف جمع طائفة وهي العداوة والفتنة

هؤلاء. أحد في مثل هذه السياسة حتى ملك المنصور . وتقل عن زياد أن رجلا  
كلمه في حاجة وجعل يتعرف اليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال : أنا فلان بن فلان ،  
فتبسم زياد وقال له : أنت تعرف اليّ وأنا أعرف منك بنفسك ، والله إنى لا أعرفك  
وأعرف أباك وامك وأعرف جدك وجدتك وأعرف هذا البرد الذي عليك وهو  
لفلان وقد أعارك إياه، فبهت الرجل وأرعد<sup>(١)</sup> حتى كاد يقش علىه .

قلنا إن معاوية كان يتخير عماله من كفاة أهل بيته أو من غيرهم من رجال  
دولته وأنصار دعوته . وقد انتهى إلى علمه أن ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم  
عامله على الكوفة قد أساء السيرة في إمارته فعزله وأقصاه عن الحكم . وقيل إن  
سبب عزله أن عبد الله بن همام السلولى قال شعراً وكتبه في رقع ألقاها في المسجد  
الجامع وهي :

ألا أبلغ معاوية بن صخر	فقد خرب السواد فلا سوادا
أرى العمال أقساء علينا	بعاجل نفعهم ظلموا العبادا
فهل لك أن تدارك ما لدينا	وتدفع عن رعييتك الفسادا
وتعزل تابعاً أبداً هواه	ينحرب من بلادته البلادا
إذا ما قلت أقصر عن هواه	تمسدى في ضلالته وزادا

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلا من بني حرب ولاء الطائف ، فإن رأى  
منه خيراً وما يعجبه ولاء مكة معها ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً  
جمع له معها المدينة . فكان إذا ولى الطائف رجلا هو قيل في أبي جاد ، فإذا ولاء  
مكة قيل هو في القرآن ، فإذا ولاء المدينة قبل هو قد حذق<sup>(٢)</sup> . وأوصى أحد  
أقاربه ممن استعمله فقال : لا تبين كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ،

(١) أرعد أخذته الرعدة ( بفتح الراء وكسرهما ) وهي الاضطراب يكون من الفزع وغيره

(٢) تاريخ الطبرى

واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء. تخف عليك المؤنة وعلينا منك ، وافتح بابك للناس ، وقال لآخر : إذا أعطيت عهداً فبه ، ولا تخرجن منك أمراً حتى تبرمه ، فإذا خرج فلا يردن عليك ، ولا تطمعن أحداً في غير حقه ولا تؤيسن أحداً من حق له . قواعد وضعها معاوية لعماله وفيها شئ من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض ، وارضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولائهم ، ليعتقدوا أنهم لا يكذبون وأنهم إذا قالوا فعلوا .

ومن بين الدولة الأموية أن كانت لا تستعمل من العمال إلا من ثبتت كفاءته ونجدته في تأييد سلطانها ، يحضونها النصح ولا يفعلون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم ، واتخاذ الطرق المفضية إلى ما فيه راحتهم وهناؤهم ، وإذا تبرم أهل قطر بتدبير من ولهم ينقله الخليفة إلى قطر آخر يستعيب عنه أكفاً منه أو من كان على شاكلته أو ألين منه عريكة ، يريد عاملاً حقيقياً للعمل لا عمالاً لعامل يرزقه ، يتطلب عاملاً إذا عرضت له المعضلات أن يفتق له وجه الحيلة ما يتوجه له فيه وجه . أو عز زياد إلى والى خراسان أن يصطفى معاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة عمالاً بكتاب ورد عليه من الخليفة . فكتب والى خراسان إلى زياد : بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وإني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو أن السماء والأرض كانتا رتقاً<sup>(١)</sup> على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام . وقسم الفىء بين الناس من الذهب والفضة ، ولم ينفذ ما أمر به الخليفة من أمر يحجف بأرباب الاستحقاق في العطاء من الجند والعمال ، ذلك لأنه رأى في ولايته مالم يره الخليفة ولا عامله الأكبر زياد . وهذا مما يشعر بما كان للعامل الأمين في عهد معاوية من الحرية فيما يرتبه لإصلاح عمله . والإدارة في قطر قد لا تصلح لقطر آخر . والحاضر يرى ما لا يراه الغائب

(١) الرتق ضد الفتق والصدع وفي التنزيل كانتا رتقا ففتقناهما أى مصمتين منضمتين لا فرجة بينهما

قال زياد ما غلبني أمير المؤمنين إلا في واحدة ، طلبت رجلاً فلجأ إليه  
وتحرّم<sup>(١)</sup> به فكتب إليه : إن هذا قصاد لعملي إذا طلبت رجلاً لجأ إليك وتحرّم  
بك . فكتب إليه معاوية : إنه لا ينبغي أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون  
مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأنا كون أنا للرافة  
والرحمة ، فيستريح الناس بيننا . . وأعظم يمثل هذا الدهاء ، وقديماً قالوا : الدهاة  
أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبدية ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ،  
وزياد لكل كبيرة وصغيرة . وقال بعضهم : دهاة العرب وذوو الرأي والمكيدة  
معاوية وعمرو والمغيرة وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل بن ورقاء . وأربعة ممن  
ذكر دبروا ملك بني أمية والآخرا كانا من جماعة علي .

علمنا أن معاوية ما كان يستخدم الحسام ، إذا أجزأه<sup>(٢)</sup> الكلام ، رمى أهل  
مصر بعمرو بن العاص لأنهم اشتركوا في مقتل عثمان ، كما اشتركت الكوفة والبصرة  
وبعض أهل المدينة ، ولما هلك ولّى مصر أخاه عتبة بن أبي سفيان<sup>(٣)</sup> . وكان وإلى  
عمر على الطائف وصدقاتها ، وهو من بلغاء الخطباء ، قيل لم يكن في بني أمية أخطب  
منه . فاشتد على أهل مصر وطأمن من جماعهم ، وأدخل الرهبة على قلوبهم .  
ومن جملة ما خطبهم ، وفيه نموذج من خطته وخطة أخيه ، قوله : يا أهل مصر خفت  
على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأتم تأتونه ، كالحمار يحمل  
أسفارا أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإني والله لا أدوى أدواءكم بالسيف ، ولا  
أبلغ السيف ما كفاني السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرة ، ولا أبطئ<sup>(٤)</sup> عن  
الأولى إن لم تصلحوا عن الأخرى ، ناجزاً<sup>(٥)</sup> بناجز ، ومن حذر كمن بشر ، فدعوا  
قال ويقول ، من قبل أن يقال فعل ويفعل ، فإن هذا اليوم الذي ليس فيه عقاب ،

(١) يقال تحرمت بطعامك وبجسك أي حرم عليك مني سبهما ما كان لك أخذه وتحرّم فلان فلان  
إذا عاشره وماله وتأكدت الحرمة بينهما (٢) أجزأ عن أغنى (٣) أسد الغابة لابن الأثير (٤) التناجز  
والتجز الحاضر

ولا بعده عتاب . وخطب الناس بمصر عن مَوْجِدَةٍ<sup>(١)</sup> فقال : يا حاملي الأم آنف<sup>(٢)</sup> ركبت بين أعين ، إني إنما قلت<sup>(٣)</sup> أظفاري عنكم ليلين متى لكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقياً عليكم ، فأما إذ أبيتم إلا الظعن على السلطان ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت أدواؤكم وإلا فإن السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم ، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، إذ جدتم بالمعصية ، ولا أؤيسكم من مراجعة الحسنى ، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى .

واستخلف عتبة هذا عاملاً له على أهل مصر ، وكانت له شدة ، فامتنع عليه بعض أهلها فكتب إلى عتبة . فقدمها فدخل المسجد ورتى المنبر وقال : يا أهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض اللع منكم ، لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من إن قال فعل ، فإن أبيتم درأكم<sup>(٤)</sup> بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ، ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول : إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه . فناداه المصريون من جانب المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » . تهديد نافع هدد به عتبة أهل مصر ليحملهم على الطاعة ، ويدفع عن البلاد عائلة الفتن بموعظته في خطبته ، وأسلوب جميل في الإدارة من أنفع الطرق التي تنجح فيها الخطابة السياسية .

وكما لمح عتبة شرارة الفتنة خطب القوم بما يطفئها من معين بلاغته . احتبست كتب معاوية حتى أرجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته . فصعد عتبة المنبر والكتاب بيده وقال : يا أهل مصر ، قد طالت معاتبتنا إياكم

(١) الموجدة الغضب (٢) الآنف جمع أنف ، وتجمع على أناف وانوف (٣) قلم الظفر قطع ما كان منه وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء . فقد قلبته (٤) درأه دفعه شديداً .

بأطراف الرماح وظلمات<sup>(١)</sup> السيوف حتى صرنا شجى في هواتكم<sup>(٢)</sup> ما تسيغنا  
حلوكم ، وأقذاء<sup>(٣)</sup> في أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، فحين اشتدت عرى  
الحق عليكم عقداً ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا . أرجفتم بالخليفة وأردتم  
توهين السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقدم عهدكم به حديث ، فارجحوا  
أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ، والعهد  
القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر  
نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وإن أسررتم شراً ، فانكم حاصدون  
ما أنتم زارعون ، وعلى الله تتوكل وبه نستعين اه .

وخطب عتبة في الموسم في سنة احدى وأربعين ، وعهد الناس حديث  
بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : « أيها الناس إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله  
فيه للمحسن الأجر ، وعلى للمسيء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق الى غيرنا ، فانها تنقطع  
دوننا ، ورب متمن حتفه في أميته ، أقبوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم » وقد  
عرفنا بهذه النموذجات من الخطب كيف أخذ بنو أمية يصفون البلاد من كدورات  
الفتنة . وبعثة وبأمثاله أدخلوا الناس في الطاعة ، وكانوا ركبوا رؤوسهم<sup>(٤)</sup> في  
القوائل وأوغلوا ، وبعثة وبأمثاله من العمال الذين كانوا يعملون للجماعة بمقوهم  
وقلوبهم ، وهم على اقتناع من صحة دعواهم ، دفعوا الناس إلى الانقطاع الى أعمالهم  
واضطروهم إلى أن يتركوا الخوض في سياسة الملك ، إلى من يحسن القيام عليها .  
ومن نظر في سيرة أولئك العمال يأخذه العجب من عفتهم عن الأموال وتبلغهم  
بالقليل وانفاقهم بلا حساب لتأليف الشارد واستمالة الخصم المعاند ، فقد ذكر

(١) الفظة حد السيف أو السنان ونحوهما واجمع ظلمات وظلي . (٢) واللهاة اللحم المشرقة على  
الحلق في أقصى سقف الفم وجدها هوات وظلمات وظلي . والشجى ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .  
(٣) القذى ما يقع في العين وفي الشراب من تبنه وغيرها (٤) ركب رأسه مضى على وجهه بغير روية

المؤرخون أن عمرو بن العاص الذي ولي مصر مرتين وجعلها له معاوية في المرة الثانية طعمه بعد الاتفاق على مراقبتها إذا هو ساعده على قتال عليّ . ان هذه الطعمة لم تعد على عمرو بثروة تذكر . وما اشتد عمرو على أهل مصر اشتداد عتبه لأن هذا كان في سن الكهولة وعمرو في سن الشيخوخة . والشيوخ في الادارة أقرب إلى الخنكة<sup>(١)</sup> والروية من الشباب على الأغلب . أما سائر عمال الدولة فكانوا بحسب الحال : على طريقة عتبه الناطقة أو على طريقة عمرو الصامتة .

كانت العراق بعد حوادث عليّ تغلي غليان للرجل<sup>(٢)</sup> بالثوار، وتعيج بأرباب الشعب، فرامهم معاوية بزياد بن أبي سفيان فخطب أهلها قائلاً : « حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً واحراقاً ، إياي ودبج<sup>(٣)</sup> الليل ، فاني لا أوتى بمدبج إلا سفكت دمه ، وإياي ودعوى الجاهلية فاني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً وأحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً أغرقته ، ومن أحرق قوماً أحرقته ، ومن نكب بيتاً نكبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا أيديكم وألسنتكم أكف عنكم ، وقد كانت بيني وبين أقوام أشياء قد جعلتها دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان محسناً فليزدد ، ومن كان مسيئاً فلينزح . اني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدي لي صفحته<sup>(٤)</sup> فاذا فعل ذلك لم أناظره ، فأعينوا على أنفسكم وأنفخوا<sup>(٥)</sup> أمركم » ومعنى هذا أن زياداً أعلن في العراق الادارة العرفية العسكرية ، وصرح بأنه يتناسى ما سبق للقوم من الخطيئات للدولة ولنفسه ، إذا أحسنوا السيرة ، وأنه ينوي افتتاح عهد جديد يغاث فيه الناس ويستريح

(١) حنك وأحنك وتحنك الدهر الرجل جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكماً والخنكة الاسم من حنك الدهر (٢) الرجل كئيب القدر من الحجارة أو التحاس (٣) الدبج سير الليل كله أو في آخره . (٤) صفحة الرجل عرض صدره والصفحة الورقة والجنب ومن المجاز أبدي له صفته كاشفه (٥) أتف واستأف الشيء أخذه فيه وابتدأه .

السلطان . ومع هذه الشدة البادية في كلام<sup>(١)</sup> زياد كان يبعث إلى الجماعة منهم فيقول : ما أحسب الذي يمنعكم من إتياني إلا الرُّجلة<sup>(٢)</sup> فيقولون : أجل . فيحملهم ويقول : آغشوني الآن وأسمروا عندي . يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم من طرف خفي ، والبعد جفاء ، والعمل مضطر إلى أن يعلم البواطن والظواهر ، ولا ميدان للتقاط الفوائد إلا في المجالس الخاصة . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرّة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام في شامهم ، وجبى العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف هـ .

كان زياد إذا ولي رجلاً قال له : خذ عهدك وسر إلى عمالك ، واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنتك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك : إذا وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتك من موتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك ، وأحسننا على خيانتك أدبك فأوجعنا ظهرك ، وأثقلنا غرْمك ، وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرّتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً زدنا في عمالك ، ورفعنا لك ذكرك ، وأكثرنا مالك وأوطأنا<sup>(٣)</sup> عقبك . مثال من أعمال عمال معاوية وما يريدون أن يكون عليه من يتصرفون للسلطان ليستقيم أمر البلاد . وكان زياد يقول : استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضع استخف به إلا انتقمته له منه . قال زياد لحاجبه : كيف تأذن للناس ؟ قال على البيوتات ، ثم على الأنساب ، ثم على الآداب ، قال فمن تؤخر ؟ قال : من لا يعبا الله بهم . قال : ومن هم . قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء . وقال

(١) الكامل للبرد (٢) الرجلة المشى (٣) يقال فلان موطأ المقب أى كثير الاتباع

لحاجبه : وَلَيْتَكَ حِجَابِي وَعَزَلْتِكَ عَنْ أُرْبَع : هذا المنادى إلى الله في الصلاح والفلاح لا توقفه عني ، ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه ، فشر ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد . قال العتيبي : كان في مجلس زياد مكتوب : « الشدة في غير عنف ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازي باحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته ، الأعطيات في أيامها ، لا احتجاب من طارق ولا صاحب ثغر . » وكان زياد يؤثر الأعمال على الأقوال لعله بأنها تنادي على نفسها . فقد بنى بالبصرة أحياء ودوراً ومساجد وحفر أنهاراً وترعاً وكل ما بنى فيها أو صنع فإنه نسب إلى غيره<sup>(١)</sup> .

وزياد في الواقع لم يزل بالمدارة من يوم كان أميراً على فارس ، وهي تضرم ناراً<sup>(٢)</sup> حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب . وكان أهل فارس يقولون ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمدارة والعلم بما يأتي . ولما قدم فارس بعث إلى رؤسائها فوعدهم من نصره ومناه وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضاً ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً ، وفعل ذلك بكرمان . وقدم زياد العراق وهي جرة تشتعل<sup>(٣)</sup> فسل أحقادهم وداوى أدواءهم . وابنه عبد الله تولى العراق بعده ، وهو أول من عرف العرفاء ، ودعا الفقراء ، ونكب<sup>(٤)</sup> المناكب ، وحصل الدواوين ، ومشى بين يديه بالعمد ووضع الكراسي ، وعمل للمقصورة ولبس الزيادي ، ورابع الأرباع بالكوفة وخمس الأخماس بالبصرة ، وأعطى في يوم واحد للمقاتلة والذرية

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه (٢) تاريخ الطبري (٣) المعقد الفريد لابن عبد ربه (٤) نكب على قومه ينكب نكابة ونكوباً إذا كان منكباً لم يعتمدون عليه والمنكب عريف القوم أو عونهم

من أهل البصرة والكوفة وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً ومقاتلة البصرة ثمانين ألفاً والذرية مائة ألف وعشرين ألفاً . وضبط زياد وابنه عبد الله العراق بأهل العراق . هكذا كانت أعمال العمال تسير على أجمل مثال .

كتب معاوية إلى سُلَيْمِ بْنِ عَتْرِ قاضي مصر يأمره بالنظر في الجراح والحكم فيها ، وكان الرجل إذا أصيب فخرج بذلك الجرح فقضته على عاقلة<sup>(١)</sup> الجراح ، ويرفعها إلى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتضى من أعطيات عشيرة الجراح ما وجب للمجروح وينجم<sup>(٢)</sup> ذلك في ثلاث سنين . والقاضي سُلَيْمِ هذا أول من سجل في مصر سجلاً بقضائه ، وذلك أنه اختصم إليه في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه ، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ثم سجله . وكان من سياسة معاوية أن يحصى عماله الصادقين ، وما كان يقيد من عماله ويدي<sup>(٣)</sup> من بيت المال .

وابتكر معاوية في الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها<sup>(٤)</sup> ، منها أنه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التي يصلى فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، وهو أول مسلم غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعة صور وعكا وطرابلس، وغزا الروم، ولما فتح قبرس ورودس كان معه ١٧٠٠ سفينة، وأهم ما قام به تنظيم الجيش فضاعف عطاءه ووقت أوقافاً لتناول أرزاق الجند، ووفق إلى استخدام أكبر رجال الإدارة وأعظمهم : زياد ثم عمرو بن العاص والمعيرة بن شعبة والضحاك بن قيس وأبو الأعور السلمي ومسلم بن عقبة وبسر بن أبي ارطاة

---

(١) العاقلة العصبة والأقارب من قبل الأب أي بنو العم الأذنون الذين يعطون دية قتل الحفظاً  
(٢) نجم المسال جملة نجومياً والنجم الوقت المضروب ، ونجمت المال وزعته كأنك فرضته أن تدفعه عند طلوع كل نجم ثم أطلق النجم على وقته ثم على ما يقع فيه (٣) أفاد القاتل بالقتيل قتله به بقيدته إقادة واندى فلان ابتداء أخذ الدية ولم يثار بقتيله وأصله إوتدى (٤) خطط الشام للذؤف

وحبيب بن سلمة . وكان إذا لامه أهله على كثرة بذله المال للعلويين والهاشميين أجابهم ان الحرب تستلزم نفقات أكثر من هذا العطاء .

وهو أول من وضع البريد ، أحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد ، وأخذوا له بغالا بأ كف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم . واستكتب عبد الله ابن أوس الغسانی سيد أهل الشام ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلا يصيح كل يوم فيدور على المجالس ، فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ، فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم . ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وبياله ، فإذا فرغ من القبيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك ، وعلى هذا كانت الدولة تحصى السكان ، ولا يفوتها خبر من يفتقل في أرجاء البلدان .

واستخدم معاوية النصارى في مصالح الدولة وكان عمر يمتنع من استخدامهم إلا إذا أسلموا ، فعهد إلى سرجون بن منصور ، ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام ، بإدارة أمواله . وكان منصور والد سرجون على المال في الشام من عهد هرقل قبل الفتح ، ساعد المسلمين على قتال الروم بأن أبى أن يمسك الرجال بالمال<sup>(١)</sup> قائلا ان الملك أى هرقل غير محتاج إلى هذا العسكر العظيم ، لأنه يحتاج إلى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم ، قالوا انه أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم ، فيتفرق الجند ويسلم المدينة إلى العرب .

كان معاوية يحب الاتفاف من كل قوة تستخدم في قيام الدولة وتعين على انتظام الجماعة . ولما رحل حيلة به الأيهم<sup>(٢)</sup> إلى الروم وارتد عن إسلامه دعا معاوية بن أبى سفيان إلى الرجوع إلى الإسلام ووعده إقطاع الغنوة بأسره . يريد

(١) خطط الشام للؤلؤف (٢) الأغانى للاصفهاني

بذلك تلافى خطأ عمر بن الخطاب يوم أبي إلا إقامة الحد على جبلة فكان من ذلك فراره إلى الروم . و « كان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام كما كان آل نصر عمال الأكاصرة على عرب العراق . »

وباتخاذ دمشق دار الخلافة بعد أن كانت دار إمارة الشام وحدها ، انتقلت سياسة الملك من المدينة فكثير سكان الفيحاء من العرب ، يقصدها طلاب العمل وغيرهم من الأقطار ، ويختص الخليفة أهل الشام بعنايته ، ويستعمل الصالحين من أهل النمة في أعماله الادارية . ورأى النصارى أكثرية في الشام ، فنقل إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة ، وأنزل بعضهم أنطاكية ، وأصل الزط من السند يغلب السواد على سحناتهم ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور ونقل من أساورة<sup>(١)</sup> البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية جماعة . هذا عدا القبائل العربية التي أسكنها الشام فزجهم بأهلها الأصليين حتى يكون آمناً في دار ملكه . وبعمله هذا أصبح الساحل الشامي غاصاً بالعجم والعرب ، وذلك تفادياً من أن يستأثر النصارى وحدهم بمفتاح البلاد من البحر ، وفي مزج العرب بالفرس بسكان البلاد الأصليين يصبح كل عنصر رقيباً على العنصر الآخر ومنافساً له . ولما صالح صاحب قبرص خير أهلها بين أن يسكنوا الشام أو يرحلوا إلى بلاد الروم . ولئن غدت دمشق قبلة الاسلام ودار الملك فقد ظلت المدينة عاصمة الفقه والدين مدة خلافته وخلافة من خلفوه ، وما جعل مقره في الشام إلا لأن أهلها أحبوه لما بلوه ، وكفى بعهد إمارته عليهم أن يعرفهم ويعرفوه ، ويطلع طباعهم بطابع الطاعة والتزام جانب الجماعة . وخصلة أخرى أيضاً وهي أن دمشق متوسطة بين البلاد الاسلامية أكثر من الحجاز ، وفي الشام من

(١) الاساورة قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً كالأحامرة بالكوفة قيل أصل الاساورة أساور والتا. عوض عن الباء كالزناديق والزنادقة

الخيرات الطبيعية والأعمال الصناعية ما يمتار منه الجيش ويرتقى ، وما يترفه به العلية من رجال الدولة ويقوون ، ونحن على صواب إذا قلنا إن دمشق أصبحت في عهد معاوية ثم في عهد الخلفاء مدرسة يتخرج فيها القواد والأمراء ، والجند .

ومن أهم ما قام به معاوية للتأثير في الرأي العام حسن معرفته باستخدام الشعراء (١) وكان الشعراء كأرباب الصحافة في ذلك العصر ، فانتفع بهم لمصلحة الدولة ، وتكوين الوطنية العربية ، فأبعد الشعر عن الهجو المألوف بين القبائل وجعله أداة عمل صالحة . ولم يغفل معاوية في وقت من الأوقات عن تعهد الزراعة وعنى بها في الحجاز عناية خاصة ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، وأقام أسدداً للانتفاع بالمياه ، وسرت أسرته ومعاصروه على طريقته ، فشهدت الحجاز قرناً من الارتقاء لم تره من بعد . هذا مع أن طبيعة الحجاز قاسية غير ملائمة ، ولكن الخليفة العاقل ما أحب لأهل الحجاز أن يعيشوا من العطايا والصدقات وموسم الحج ، لأنها موارد غير طبيعية في العاش ، ومذاهب في الاتكال لا يؤمن مع زوالها عيش ونعمة . وصالحت الروم معاوية على أن يؤدي اليهم مالاً وارتمن معاوية منهم رهناً فوضعهم بعبليك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من في أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا وفاء بقدر خير من غدر بقدر .

كان معاوية في الابداع بتأسيس دولة الأمويين كعمر بن الخطاب في إبداعه بإنشاء دولة الراشدين ، ومع هذا فقد قيل إن أحد الصلحاء سئل أيام معاوية كيف تركت الناس قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهي . كأنه يريد أن تكون إدارة الملك على عهد ابن أبي سفيان ، كما كانت على عهد عمر بن الخطاب ، وفاته أن لكل عصر طريقته ورجاله . والغالب أن البعيد لا يقدر الأمور بقدرها كالقريب ، وأرباب الصلاح يتوهمون أن العدل المطلق يستفيض في الناس بأمر

(١) معلة الاسلام . مادة معاوية

من الخليفة أو بعناية عماله وحدهم ، وأن كل خير لا يأتي إلا من السلطان ، أما المحكومون فليس لهم كبير أثر في إفاضة العدل في العالم ولا تلحق بهم تبعه ، والنقد سهل والصعوبة في الابداع .

قال المسعودي - وهو مشهور بتشدهد في تشيعه - : وأخبار معاوية وسياساته وما أوسع الناس من أخلاقه ، وما أفاض عليهم من بره واعطائه وشملمهم من إحسانه ، مما اجتذب به القلوب واسترعى به النفوس حتى آثروه على الأهل والقربان . وقد كان اثم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ، ولا اتقانه للسياسة ، ولا التأني للأمر ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم ، ورفع لهم على طبقاتهم .

#### إدارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك

مضت أيام معاوية الطويلة ؛ عشرون سنة أميراً وعشرون أخرى خليفة ، وأوصى ابنه يزيد عند موته بقوله : أنظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده ، وانظر أهل العراق فإن سألك عزل عامل في كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم . ثم انظر أهل الشام فأجعلهم السمار دون الدثار ، فإن رابك من عدو ريب فارمه بهم ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم لا يقيموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير آدابهم . وجه نصيحته إلى قلب المملكة الحجاز والعراق والشام ، لأنها إذا استقامت لا يخشى على الأطراف . وقد كان معاوية عني في آخر أمره بتخريج يزيد ابنه وولي عهده يستشير في المسائل الطارئة ويأخذ برأيه أحياناً ويبعث همته على العمل ، ليتولى الأمر عن كفاءة ، وقد علمه أنساب الناس والنجوم والعربية ، أقام أستاذاً له في ذلك

دغفل بن حنظلة الشيباني ، ومشى يزيد في إدارته على أثر أبيه ، فكان لا يرضن بالمال مهما عظم في سبيل الخلافة . وفد عليه عبد الله بن جعفر فقال له : كم كان عطاؤك . فقال له : ألف ألف . قال : قد أضعفناها لك . قال : فذاك أبي وأمي ، وما قلتها لأحد قبلك . قال : قد أضعفناها لك ثانية . فقيل ليزيد : أتعطى رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف . فقال : ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده إلا عارية ، وما زال يزيد يزيد في إعطائه لمنزلته ، ولأنه يريد أن يتألف بواسطته أهل المدينة ، ويرفع يد ابن الزبير عنها وعن دعوى الخلافة .

وما أثر عن يزيد أنه غير شيئاً من أصول إدارة أبيه لاستغراق حرب الحسين ابن علي في العراق وعبد الله بن الزبير في الحجاز معظم أوقانه ، أما ابنه وخليفته معاوية الصغير أو الثاني فكانت خلافته أياماً وما أراد أن يدخل في شيء من مهامها .

كان مروان كعواوية آية في عقله وسياسته وتدييره ، درس الإدارة زماناً طويلاً في الحجاز ، وعرف ما يفسد الناس ويصلحهم ، وما يهيجهم ويسكنهم ، ولكن أمره لم يطل كثيراً ، وتستين محاسنه في تدييره الملك بما وقع لابنه عبد العزيز معه ؛ فان مروان لما ولي الخلافة جاء إلى مصر فأقام بها شهرين ثم جعل ولايتها إلى ابنه عبد العزيز ؛ جعل إليه صلاتها وخراجها فقال عبد العزيز<sup>(١)</sup> : يا أمير المؤمنين كيف للمقام ببلد ليس به أحد من بني أبي ؟ . فقال مروان : يا بني عمهم بإحسانك يكتونوا كلهم بني أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره<sup>(٢)</sup> وينقاد قومه إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك في بيتك .

(١) تاريخ الولاة والقضاة للكندي (٢) العين الجاسوس

هكذا دبر مروان ابنه ليخرجه في الادارة ويعلمه حكم الناس ، جعل له موسى ابن نصير وزيراً ، وهو ما هو بعلمه وعقله وحسن سياسته ، وفارق موسى أميره عبد العزيز بعد حين ذاهباً إلى إفريقية والمغرب ، ففضى على البربر والرومان ، ثم فتح الأندلس . أما بشر بن مروان مؤنس أخيه يوم تولى مصر ، فقد تقلد البصرة والكوفة فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان ، ليس على بابه حجاب ولا ستر ، ولا بن عبدل في بشر بن مروان :

ولو شاء بشر كان من دون بابه طاطمٌ سودٌ أو صقالبه حمر  
ولكن بشرأً أسهل البواب التي يكون لبشر عندها الحمد والأجر  
بعيدٌ مراد العين مارداً طرفه حذار الغواشي بابُ دار ولا ستر  
استعمل عبد الملك بشرأً وأمره بالشدة والغلظة على أهل المعصية<sup>(١)</sup> وباللين على أهل الطاعة وخلف معه أربعة آلاف من أهل الشام منهم رُوح بن زنباع ورجاه بن حَيوة الكندي ، وهما من أمثل رجال بني أمية وأعلمهم وأسوسهم . وكان من سياسة بشر أو من سياسة دولته عامة أنه إذا ضرب البعث<sup>(٢)</sup> على أحد من جنده ثم وجده قد أخل بمركزه أقامه على كرسى ثم سمر يديه في الحائط ثم انتزع الكرسى من تحت رجله فلا يزال يتخبط حتى يموت . وبهذه الشدة على المجندين ما كانت تحدث أحداً نفسه بالهزيمة من الخدمة ، وكان جيش أمية أطوع جيش عربي . ولا يستغفر بن أحد هذه الشدة لجزء الفار من الجندي في يومنا . هذا القتل .

رأينا عبد العزيز بن مروان أمير مصر وما كان من نصيحة أبيه له في سياسة الروساء ليسلس له قياد المرؤوسين ، وكيف لقنه أبوه أقرب الطرق إلى استماله القلوب ، وكان عند حسن ظنه به ، فجاء عبد العزيز نابعة في إدارته عمرت مصر في أيامه

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢) البعث الجيش أو كل قوم بعثوا واجمع بعث بضمين وبموت

عمراناً ليس مثله ، ومما بنى في حلوان الدور والمساجد وغيرها أحسن<sup>(١)</sup> عمارة وأحكمها ، وغرس نخلها وكرمها ، وكان له ألف جفنة<sup>(٢)</sup> كل يوم تنصب حول داره ومائة جفنة يظاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر .

ولى عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها إليه ، فلم يوجد له مال ناض<sup>(٣)</sup> يوم موته إلا سبعة آلاف دينار ، وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، على حين لما مات عبد الله بن عبد الملك بن مروان وكان عاملاً على مصر ترك ثمانين مداً من الذهب . وتقدم إليه أبوه أن يعفى آثار عمه عبد العزيز لمكانه من ولاية العهد فاستبدل بالعمال عمالاً والأنصحاب أصحاباً ، ذلك لأن عبد العزيز لم يرض أن ينزل عن ولاية العهد لابن أخيه في حياته ، وعبد العزيز هو والد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العادل .

وجرى عبد الملك بن مروان في إدارة الملك على طريقة والده وطريقة معاوية في تخريج آله وعماله في سياسة البلاد ، فزادت الأمور استقراراً والأعمال تسلياً ، والعمال رغبة ورهبة ، والرعايا أمناً ودعة . وكثيراً ما كان يعمد إلى الشدة لا تأخذه رافة بخصوم دولته . قتل مصعب بن الزبير وكان أحب الناس إليه وأشدهم له إلفاً ومودة وقال في الاعتذار عن عمله : « ولكن الملك عقيم<sup>(٤)</sup> » ولقد قيل له أن يأخذ بسيرة عثمان فقال : « وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته إلا باللين فان عثمان لان لهم حتى ركب ، ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا » . وقال : إنى رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أى باللين أُغبر على الناس في بيوتهم ، وقطعت السبل ، وتظامم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالى أن يسير في كل زمان بما يصلحه .

(١) الولاية والقضاة للكندى (٢) الجفنة القصة الكبرى (٣) الناض الدرهم والدينار (٤) الملك عقيم أى لا ينفع فيه نسب لأنه يقتل في طلبه الأب والولد والأخ والعم سمي به لقطع صلة الرحم بالتزاحم عليه

وهذا هو السر العظيم في نجاح الممالك في كل عصر وأمة . وقال عبد الملك يوماً :  
أنصفونا يا معشر الرعية تريدون مناسرة أبي بكر وعمر ولا تسرون فينا ولا في  
أنفكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر ، نسأل الله أن يعين كلاً على كل . وسأله ابنه الوليد  
يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة  
بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع <sup>(١)</sup> .

ولى عبد الملك العراقين الحجاج بن يوسف الثقفي فقال : دلوني على رجل  
أوليه ، فقيل له أى الرجال تريد؟ قال : أريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين  
الأمانة ، أعجف الخيانة ، لا يحنق في الحق على مرة ، يهون عليه سؤال الأشراف في  
الشفاعة . فقيل عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي فأرسل إليه فاستعمله فقال له :  
لست أقبلها إلا أن تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك . فقال الحجاج : يا غلام ناد  
من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه . قال الشعبي : فوالله ما رأيت قط  
صاحب شرطة مثله كان لا يجس إلا في دين ، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم  
وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً  
ودفنه فيه حياً ، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة وأظهر سلاحاً قطع يده ، فربما أقام  
أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد ، فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .  
خطب الحجاج أهل العراق : « إني رأيت آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما  
صلح به أولها : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني أقسم بالله لأخذن  
الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، وللطبيع بالعاصي ، حتى يلتقي الرجل أخاه فيقول :  
أنج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لى قناتكم » ولما اتصل بعبد الملك إسراف  
الحجاج في <sup>(٢)</sup> القتل وأنه أعطى أصحابه الأموال كتب إليه : أما بعد فقد بلغني  
سرفك في الدماء وتبذيرك الأموال ، وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس ، وقد

(١) الصنائع جمع صنعة أى الاحسان والصنائع المصطنعون (٢) الاشراف لابن أبى الدنيا

حكمت عليك في القتل بالقود ، وفي الخطأ بالدية ، وان ترد الأموال الى أصحابها فانما المال مال الله ونحن خزانه ، وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا . كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك للتروك ، وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً » .

وكان الحجاج يأخذ بأيدي العلماء ممن لا يتدخلون في سياسته ولا يشاركونه في سلطانه ، ويضع في كل يوم <sup>(١)</sup> ألف خوان في رمضان وفي سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بكر ، وكان يحمل في محفة ويدار به على موائده ويتفقدتها ، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليحجيء ، بسكرها فابطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر بضربه مائتي سوط ، فكانوا بعد ذلك لا يمشون إلا متأبطي . خرائط السكر . وكان يوسف بن عمر والي العراق في أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خوان ، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة ، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره ، فكان عند الناس أحمد .

واشتهر عهد الحجاج <sup>(٢)</sup> باصلاح الموازين والخراج والزراعة فهو رجل الدولة باصلاحاته ، ولم يكن مصلحاً فحسب بل كان مصلحاً وموجداً ، ومن إيجاده وضع الحركات والاعجام في المصاحف لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يعلم القرآن . واتخذ <sup>(٣)</sup> الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلصه الزيوف والسقوفة والهرجة ، ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الأجرة للصانع والطباعين وختم أيدي الطباعين

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢) معلة الاسلام — مادة الحجاج (٣) فتوح البلدان للبلاذري

حرّض عبد الملك ابنه على المشاورة في قضاء الأمور لما وسد إليه إمارة مصر قائلاً له : أنظر أى بنى إلى أهل عملك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعييتك منك كذب ، فأنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم فإن لم يستبن لك فاكذب إلى يأتك رأى فيه إن شاء الله ، وإن كان بك غضب على أحد من رعييتك فلا تؤاخذ به عند سورة<sup>(١)</sup> الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون ، وأنت ساكن الغضب مطفاً الحجر ، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والبروة فيكونوا أصحابك وجلساءك ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك « وهذا من أجل أساليب الإدارة وسياسة الناس : لا تأخير في الفصل بينهم ، ولا كذب في الوعود والمواعيد ، واستشارة العارفين والعالمين ، وجعلهم وحدهم بطانة وسماراً وجلساء ، ولا إسراع في إنزال العقوبات حتى يذهب الغضب .

وبلع عبد الملك أن بعض كتابه قبل هدية فقال له : والله إن كنت قبلت هدية لا تنوى مكافأة المهدي لها إنك لثيم دنى ، وإن كنت قبلتها تستكفي رجلاً لم تكن تستكفيه لولاها إنك خائن ، وإن كنت نويت تعويض المهدي عن هديته وأن لا تحون له أمانة ولا تنلم له ديناً فلقد قبلت ما بسط عليك لسان معاملتك ، وأطمع فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هيبة سلطانك ، ثم صرفه عن عمله . ذلك لأن غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على أصول نقية من الشوائب ، والرشوة من طريق الهدايا تذهب بها حقوق أحد المتنازعين أو حقوقهما معاً . وكان

(١) سورة الغضب شدته

عبد الملك بن رفاعة أمير مصر (٩٦) يقول : إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق .

وأدخل عبد الملك أموراً جديدة في الإدارة وهو أول من أفرد للظلمات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر ، وكان إذا قعد للقضاء أقيم على رأسه بالسيوف وينشد قول سعيد بن عريض بن عادياء من يهود الحجاز :

إنا إذا مالت دواعي الهوى      وأنصت الساكت للقائل  
واصطرع الناس بألباسهم      نقضى بحكم عادل فاضل  
لا نجعل الباطل حقاً ولا      نلظ<sup>(١)</sup> دون الحق بالباطل  
نخاف أن تسفه أعلامنا      فنخمل الدهر مع الخامل

وزاد عبد الملك الجزية ، وأقل الجزية ديناراً وأكثرها مفوض إلى الاجتهاد ، استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة — وكانت ديناراً على كل جمجمة ومدين فحماً ؛ وقسطين زيتاً وقسطين خللاً ، وضعها عليهم عياض بن غنم في الفتح — فأحصى عبد الملك الجاجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه<sup>(٢)</sup> وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير ، فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة ، ثم حمل الأموال على قدر قربها وبعدها<sup>(٣)</sup> ، وهذا خلا نوائب الرعية وهو ما يضر به عليهم الامام من الحوائج كاصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم .

وفي أيامه نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية فكان ذلك من أهم الأسس التي أقيمت في بناء القومية العربية في الممالك

(١) لظ بالامر لزمه و لظ عليه الخير ستره (٢) الادم ما يؤتدم به واتدم أكل الخبز مع الادم وإدام الطعام هو ما يجعل مع الخبز فيطيه (٣) الخراج لأبي يوسف

الاسلامية كافة ، وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم ، فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها . وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخشني من أهل الأردن أول مسلم ولي الدواوين كلها ، وكان يتولاها القبط والروم والعجم ، وكان بالبصرة والسكوفة<sup>(١)</sup> ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب العربية ، وديوانان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية ، فحول ديوان العراق إلى العربية أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصرى ، قدمه لذلك الحجاج فكان كتاب العراقيين كلهم غلماناً وتلاميذه<sup>(٢)</sup> ونقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر في خلافة الوليد ابن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية ، وجعل على الديوان ابن يربوع الفزارى من أهل حمص ، وتأخرت بعض البلاد في هذا التغيير من رسم الإدارة ، فان أول من كتب بالعربية في ديوان اصبهان سعد بن إياس كاتب عاصم بن يونس عامل أبي مسلم صاحب الدعوة . وهو أول من أخذ الناس بتعلم القرآن من أهل اصبهان ، يقال إنه استقرأ المسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلاً لم يكن فيهم من يحفظ القرآن إلا ثلاثة ، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه .

وعبد الملك أول من كتب على الدينار (قل هو الله أحد) وذكر النبي في الطوامير<sup>(٣)</sup> ، وكانت الدينار رومية تدخل من بلاد الروم ، والدرهم كسروية وحميرية<sup>(٤)</sup> قليلة ، فهو أول من ضرب الدرهم المنقوشة ، وكان على خاتمه قبيصة ابن ذؤيب والبريد اليه ، يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها<sup>(٥)</sup> . ومن أهم أعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة ، ومن أعماله أن يجلب الناس ويحافظ على الخليفة ، وكان الأمويون لا يأذن خلفائهم بالدخول عليهم إلا

(١) أدب لكتاب للصولي (٢) خطط المقرئ (٣) الطومار الصحيفة والجمع طوامير (٤) الاحكام

السلطانية للباردى (٥) طبقات ابن سعد

بالترتيب الذي عينوه . والولاة ينزلون في المعسكر تحيط بهم الجند لتسهيل المحافظة عليهم فلا يقتلهم مغتال . وقد يتنقلون في عمالاتهم ، فزياد يقيم بالسكوفة ستة أشهر وفي البصرة مثلها<sup>(١)</sup> ، وهو أول من سير بين يديه بالحراب والعمد واتخذ الحراس خمسمائة لا يفارقون مكانه . وكانت تقرأ عهود القضاة الذين نصبوا حديثاً في المسجد الجامع أولاً ، ثم يقصدون دار الأمير فيقرأ أمامه عهد القاضي . والقضاة يقضون في الجوامع ، وكان الجامع في الاسلام هو الجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ما له علاقة بالسلطان والسكان .

أما الولاة فيدبرون ولاياتهم في المعسكرات ، والمعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة . و« ليس<sup>(٢)</sup> من مدينة عظيمة إلا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلوات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » وإذا رحل الجيش واضطر إلى النزول في القرى لشدة البرد في الشتاء يؤيه أهلها ثلاثة أيام ويطعمونه مما يطعمون .

كان جيش عبد الملك ومن بعده من العنصر العربي ، ولما توسع الأمويون في فتوحهم شمالي إفريقيا وفتحوا الأندلس جندوا أناساً من البربر ومزجواهم بجند العرب . بعث عبد الملك ابنه مسلمة لغزو الروم فقدم الناس من جميع الآفاق ، وكان فيهم من العرب كندة وغان وتميم ومحمدان وربيعة وطى وخنم وجذام وقيس وجماعة بنو أمية وقريش ورؤساء أهل الحجاز والجزيرة والشام ومصر . ثم عرض الناس فانتخب منهم ثلاثين ألفاً من أهل البأس والنجدة ، واتخذ من الخيل والفرسان ثلاثين ألفاً ، وولى على رؤساء كل طائفة واحداً منهم . ويقول البلاذري<sup>(٣)</sup> إن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه نساءه وحمل ناس ممن معه نساءهم . وكانت بنو أمية تفعل ذلك إرادة الجد في القتال للغيرة على الحرم . هكذا كان

(١) تاريخ أبي الفداء . (٢) المسالك والممالك لابن حوقل (٣) فتوح البلدان للبلاذري

ترتيب جيوشهم في هذا الدور . وكانت أمور الحرب بيد الولاة في الولايات تقوم<sup>(١)</sup> بها القبائل المهاجرة إليها ، أما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن أجناد الشام فكان خاصاً بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية ، وبفضل هذه القوى المخلصة للأمويين ظفروا في الحرب الأهلية سنة ٦٤

وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزياد والحجاج في أخذ نفسه بالتطلع إلى استعلاء بواطن أمور الرعايا ، وكذلك كان في التطلع إلى أخبار الروم وغيرهم ممن كانوا يودون أبدأً أن يكيدوا للمسلمين . نار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين في سنة سبعين فصالحهم عبد الملك على أن يؤدي إلى ملكهم في كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين ، وطمع الروم لافتراق الكلمة وقتال الأمة على الملك<sup>(٢)</sup> لما دعا عمرو ابن سعيد بن العاص الأشدق إلى نفسه بالخلافة ، واستولى على دمشق لما سار عبد الملك بجيوشه إلى العراق ، ليملكها من ابن الزبير . فعمل عبد الملك في اتقاء بأس الروم كما عمل معاوية لما شغل بقتال على ، فصالح الروم على مال يؤديه إليهم ، وليس من الحزم في دولة أن تحارب حريين داخلية وخارجية في وقت واحد . وفعل عبد الملك مثل ذلك في مداراة الروم تجدد الهدنة مع ملكهم على أن يدفع لهم كل يوم ألف دينار وفرنساً ومملوكاً ويقاسم ملكهم على خراج قبرص وإرمينية على شرط أن يخرج اللبنانيون من جبلهم وكانوا عصوا عليه واتفقوا مع الروم ، وآلى اللبنانيون بعد ذلك أن لا يتعرضوا للعرب ، فلقب اللبنانيون بالردة لأنهم عصوا أمر ملك الروم . وما كان عبد الملك إلا محافظاً على اعتداله لا يدهش لما يحل به من المفطعات<sup>(٣)</sup> يحل مسائل الدولة بروية وتعقل وصبر .

ويدع عبد الملك في العلماء كما يعد من أكبر الساسة . قال الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قریش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها قبل أن يستخلف

(١) معلة الاسلام - مادة أمية (٢) دول الاسلام للذهبي (٣) المفطعات الأمور الشديدة الشبهة

ورعاً وزهداً . وهو أول من لقب من الخلفاء بلقب الموفق لأمر الله ثم لقب الوليد  
للمنتقم<sup>(١)</sup> لأمر الله . ولم يشتهر بهذين اللقبين كثيراً<sup>(٢)</sup> . وأوصى عبد الملك أولاده  
أن يعطف الكبير منهم على الصغير ، وأن يعرف الصغير حق الكبير ، وحثهم  
البنى والتحاسد ، وأوصاهم بأخيهام مسلماً وأن يصدروا عن رأيه ، وأن يكرموا  
الحجاج فإنه هو الذى وطأ لهم هذا الأمر . أوصى به ولطالما تبرم من أعماله فى  
حياته . والحجاج وزىاد وعتبة بن أبى سفيان وخالد القسرى الذى تولى العراق  
زمناً طويلاً ، وقتيبة بن مسلم أمير خراسان وفاتح خوارزم وسمرقند وبحارى الذى  
دخل إلى ملك الصين وضرب عليه الجزية وأمثالهم ، كانوا فى بنى أمية « قطب  
الملك الذى عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير وينابيع البلاغة وجوامع البيان ،  
هم راضوا الصعاب حتى لانت معاودها ، وخزمو الأنوف حتى سكنت شواردها ،  
ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها ، واستفتحوا مغالقتها حتى  
استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان<sup>(٣)</sup> » .

### إدارة الوليد وسليمان

وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة فسار على سيرة أبيه وراعى إخوته وحث  
أولاده على اصطناع المعروف ، وكان غرامه بعمران البلاد وإقامة للمصانع والجوامع  
واعتماد<sup>(٤)</sup> الضياع فقلده رعاياه فى ذلك ، فكان الناس فى أيامه يخوضون فى رصف  
الأبنية ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات<sup>(٥)</sup> لوفرة  
الثروة فى أيدي الناس . وقد كتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك أن يبوت الأموال

(١) معاصرات الراغب الأصفهاني (٢) اصطنع بعضهم ألقاباً للخلفاء الراشدين ومن يندم إلى  
دولة بنى العباس فرد الناقدون هذه الألقاب المفتعلة (٣) المقدم الفريد لابن عبد ربه (٤) اعتقد الضياع  
اقتناها واعتقد مالا جمعه (٥) لطائف المعارف للتعالي

قد ضاقت من مال الخمس فكتب اليهم أن يبنوا المساجد . وأجرى الوليد على القراء وقوام المساجد الأرزاق ، وكذلك على العميان وأصحاب العاهات والمجذمين ، وأخدم كل واحد منهم خادما ، وكان يهب أكياس الدراهم تفرق في الصالحين ، وأخرج لعائلات الناس الطيب والكسوة وزاد الناس جميعاً في العطاء عشرة عشرة ، وذلك للشاميين خاصة ، وزاد أهل بيته في جوائزهم الضعف . وفي منات الألوف من الدنانير التي أنفقها على إقامة الجوامع والمصانع ، وما كان في خزائنه من الأموال التي تنكفي الدولة خمس عشرة سنة مقنع لمن أراد أن يتصور الأموال التي احتجتها هو ومن قبله من الخلفاء استعداداً للطوارئ .

ودخلت الدولة في حالة استقرار ونظام في الإدارة وانتهى<sup>(١)</sup> تعريب المملكة والإدارة ، وأخذت الوظائف الكبرى من النصارى ونُحى آل سرجون الدمشقيون عن إدارة الأموال وبلغت الفتوحات أقصى حدودها . وظهرت أبهة الملك والسلطان ، ومالت الدولة إلى إقامة الأعمال العظيمة على الدهر ، تحليداً للذكر وإشادة بالفخر ، والوليد هو الذي جوّد القرايطيس وجلل<sup>(٢)</sup> الخطوط ونغم المكتبات وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فإنهما جريا في المكتبات على طريقة السلف . ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطناب . وكان الوليد موفقاً في فتوحه في الشرق والغرب بفضل قواده وولائه ممن كان يعرف لهم أقدارهم ، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر في عمران البلاد . ومن خلق الوليد أنه كان سمحاً يسره أن يرى لعماله شيئاً من الرفاهية . كتب إليه الحجاج إنه أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار فإن يكن أصابها من حبلها فرحمه الله ، وإن تكن من

(١) معلة الاسلام . الوليد (٢) جليل عظم

خيانة فلا رحمه الله . فكتب اليه الوليد إن محمد بن يوسف أصاب ذلك المال من  
تجارة أحلناها له ، وأمره أن يترحم عليه .  
وتوسع الأمويون في هذه الحقبة في إفاضة الأموال على عمالهم ، وكان القاضي  
بمصر مثلاً يرزق الف دينار في السنة . كان ابن حجيرة الأكبر في مصر (٦٩-٨٣)  
على القضاء والقصاص<sup>(١)</sup> وبيت المال ، فكان رزقه من القضاء مائتي دينار ، وفي  
القصاص مائتي دينار ، ورزقه في بيت المال مائتي دينار وعطاؤه مائتي دينار وجائزته  
مائتي دينار . على أن العادة الجارية عندهم أن لا يعطى العامل سوى رزق واحد .  
ولم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو ، فمنهم من يغزو ومنهم  
من يخرج بدلا . وكانوا يصيرون أنفسهم في أعوان الديوان في بعض ما يجوز لهم  
للقيام به ويوضع به الغزو عنهم . أما الحجاج فكان يشتد في تجنيد الناس لأنه يقظ  
حذر دائما ، فكان لا يدع قرشياً ولا رجلاً من بيوتات العرب إلا أخرجه « وضرب<sup>(٢)</sup>  
البعث على المحتملين ومن أنبت من الصبيان ، فكانت المرأة تجيء الى ابنها وقد  
جرود فتضمه اليها وتقول له : بأبي ، جزعاً عليه ، فسمى ذلك الجيش جيش بأبي »  
وكان تجريد الشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب أجسامهم فينبذ السقيم ويخند  
السليم . وخطب الحجاج لما جاء والياً على العراق ، وقد بعث بشر بن مروان  
للمهلب إلى الحرورية ومما قال : وإياي وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما  
يقولون وفيهم أتم ، والله لتستقيم على طريق الحق أو لادعن لكل رجل شغلاً  
في جسده ، ومن وجدته بعد ثلاثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وانهبت ماله  
وهدمت منزله . فشمع الناس بالخروج الى المهلب . ولا يمنع بعث البعوث عند  
الشدائد من وجود حيوش عند الخليفة وعماله في الأقطار تشبه الجيش الدائم تحت  
السلح يتيسر حشده عند الحاجة بقليل من العناية .

(١) صبح الاعشى للقلقشندي (٢) الأغاني للاصفهاني

وكان سياسة الدولة في هذا العهد كانت صورة من سياسة الحجاج فقد كتب إليه الوليد يأمره أن يكتب إليه بسيرته فكتب إليه : إني أيقظت رأبي وأنت هواي ، وأدريت السيد المطاع في قومه . ووليت الحرب الحازم في أمره ، وقلدت الخراج الموفراً لمأنته ، وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً أعطيته حظاً من لطيف عنايتي ونظري ، وصرفت السيف إلى النطف<sup>(١)</sup> المسمى ، والثواب إلى المحسن اله . ، تخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب اه .  
ولما أفضى الأمر إلى سليمان بن عبد الملك أقرّ عمال من كانوا قبله على أعمالهم ، وجلس في صحن المسجد وقد بسطت لديه البسط والنمارق<sup>(٢)</sup> عليها ، وصفت الكراسي ، وأذن للناس بالجلوس ، وإلى جانبه الأموال والكساوي وآنية الذهب والفضة ، فيدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتمكلم عنهم وعن قدموا من عنده ، فيأمر سليمان بما يصلحهم ويرضيهم ، فما يطلب أحد شيئاً إلا نوله مرامه ، ورد المظالم وعزل عمال الحجاج وأخرج من كان في سجنه في العراق وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساحم .

#### إدارة عمر بن عبد العزيز

عمل الخلفاء السبعة الأول من الأمويين في إدارة الملك الاسلامي بما أوحاه إليه عقلهم وعملهم ، فكان الصحابة منهم والتابعون على مثال خالفوا فيه مرغمين بعض طريقة الراشدين ، لأن علمهم بالناس زاد بما فتح الله عليهم من البلاد ، ولأنه نشأت أحداث جديدة ، ودخلت في الاسلام عناصر أخرى . وكان عهد الأمويين صورة من دولة عادلة تتساهل في الأخذ بما لا يضر من الأوضاع ، وتقتبس ما تضطرها إليه طبيعة البلاد المفتوحة . وأكثر ما اهتموا له توفير الجباية

(١) النطف المريب (٢) الفرقة والفرق الوسادة والجمع نمارق

مع النظر إلى عمران البلاد والدفاع عن الحوزة ، والحساب للمستقبل بادخار فضل الأموال ، والظهور بمظهر دنيوى لا يعبت بأصل من أصول الدين .

كان أكثر خلفاء الأمويين يقلبون العامل إذا حدث في جهته خرق لا يستطيع رتقه ، أو فتنة تهرق فيها الدماء ، وتكلف الدولة مالا ، وجعلوا مهمهم في مقاتلة الخوارج والشيعية في الداخل ، وغزو الروم والتوسع في الفتح من الشرق والغرب في الخارج ، وكثيراً ما كانت بعض الأنحاء تثور على الدولة ، إما بسبب تفاحش الخراج ، أو لأسباب أخرى كما كان من قبط مصر فخرجوا غير مرة على الأمويين وعلى من خلفوهم ، وكانوا يرجعون مخذولين ، وربما كان من بعض عمالهم من اشتط في تقاضى الخراج والجزية والصدقات ، والظلم ما خلا عصر منه ، وخصوصاً في دولة ليست مشاكها متشاكه ، ولا أجيال الناس في أصقاعها متوحدة متماثلة ، وغاية ما يقال في الادارة المتبعة أبدأ توسيع سلطة العامل ، حتى يسرع في فض مصالح الناس ، ذلك لأن العرب ألفوا التقاضى على عجل ، وما عرفوا التطويل في الخصومات والمراجعات . وهذا ما كان ظاهراً كل الظهور في عهد الخوالف من بنى أمية ، ولاسيما في خلافة عمر بن عبد العزيز واسطة عقد الأمويين ، والمثل الأعلى للعدل الاسلامى .

كان عمر قبل أن يتقلد الخلافة عهد اليه الوليد بن عبد الملك بإمارة الحجاز « مكة والمدينة والطائف » فأبطأ عن الخروج فقال الوليد لحاجبه : وما بال عمر لا يخرج الى عمله . قال : زعم أن له اليك ثلاث حوائج قال : فمجهله على فخاء به الوليد . فقال له عمر : إنك استعملت من كان قبلى فأنا أحب أن لا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم والجور . فقال له الوليد : إعمل بالحق وإن لم ترفع البينا درهماً واحداً<sup>(١)</sup> . فلعمرو إذاً طريقته في الادارة اشترط قبل أن يتولى الامارة أن تترك له

(١) - سيرة عمر بن عبد العزيز

حرية العمل . وكان يشعر قبل الخلافة بأن في إدارة الدولة شيئاً من الظلم . فقال يوماً لأسامة بن زيد - وقد بعثه سليمان بن عبد الملك على ديوان جند مصر وحثه على توفير الخراج - : ويحك يا أسامة إنك تأتي قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل ، فإن قدرت أن تمنعهم فأنعشهم .

ولما بويع عمر شرع لأول أمره بصرف عمال من كان قبله من بني أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته<sup>(١)</sup> ، وأخذ يرد للظالم مظلمة مظلمة لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته إلا رده . وكتب إلى جميع عماله إن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنن سيئة سنتها عليهم علماء السوء ، قلما قصدوا الحق والرفق والإحسان . وكان أول خطبة خطبها : أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقر بنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه ، ولا يفتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

وبدأ بنفسه فنزل عن أملاكه التي انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعي . ورد على رجل قدم عليه من حلوان ادعى أن والده عبد العزيز لما كان والياً على مصر أقطع عبد الملك بن مروان أرض حلوان فورثها عمر وإخوته . فقال عمر : إن لي فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أفضي فيها بغير قضاء قاض . وقام معه إلى القاضى فقعده بين يديه ، فنكلم عمر بحجته وتسكلم المدعى فقضى القاضى له ، فقال عمر : إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم . قال القاضى : قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك . فتلجت نفس عمر بحكم القاضى وقال : وهل القضاء إلا هذا ، تالله لو قضيت لي ما وليت لي عملاً ، وخرج إلى الرجل من<sup>(٢)</sup> حقه . وأراد أهله على أن يتخلوا عن أملاكهم فقطع بالمقراض كتب الإقطاعات بالضياع والنواحي .

(١) المحاسن والمساوى للبيهقي (٢) مروج الذهب للسعودي

قالوا ولما أقبل عمر على رد المظالم وقطع عن بني أمية جوائزهم وأرزاق حراسهم ، ورد ضياعهم الى الخراج ، وأبطل قطائعهم ضجوا من ذلك على رؤوس الملا في المسجد . وكانت انتهت لهم هذه الإقطاعات من الخلفاء السالفين . ذكروا أنه كانت غلة عمر لما بويع بالخلافة بين أربعين وخمسين ألف دينار ، وما زال يردها حتى كانت يوم وفاته مائتي دينار ، ولو بقي لردها كلها فأفقر نفسه حتى يقوى على بعض آله ، فيسترد منهم ما أخذوا من عقار ومزارع . وخلف من الناض بضعة دنائير ولم يرتزق من بيت مال المسلمين شيئاً ولم يرزاه<sup>(١)</sup> حتى مات . وأداه اجتهاده إلى أن في صيغة امثلاك آل بيته الضياع والرباع نظراً ، وأن ماورثه وورثوه بالطرق المشروعة يقضى العدل المطلق برده على من أخذ منه . واعتقاد الضياع واستثمار الأموال من شأن الرعايا لا الرعاة ، فكان نظره أعلى ، وطريقته أمثل وأعدل .

وكان الرسول أقطع بلال بن الحرث المزني أرضاً فيها جبل ومعدن فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها فظهر فيها معدن أو قال معدنان فقالوا : إنما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن وجاءوا بكتاب النبي لهم في جريدة فقبلها عمر ومسح بها عينه وقال لقيمه : انظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة ورد عليهم الفضل

وأبطل عمر بن عبد العزيز هدايا النيروز والمهرجان<sup>(٢)</sup> وكانت تحمل إلى معاوية ومن بعده وقدرها عشرة آلاف ألف ، وهي من العادات الفارسية ، وأقرها معاوية وأنكرها علي . وقضى عمر بأن يكتبني بالخراج وزن سبعة « ليس

(١) رزاه ماله يكمله وعله يرزوه رزاً أصاب فيه شيئاً كارتزاه (٢) النيروز أو النوروز اسم أول يوم من السنة عند الفرس عند نزول الشمس أول الحمل ، معرب نوروز أي اليوم الجديد والمهرجان أول نزول الشمس في برج الميزان (٣) رزاه ماله يكمله وعله يرزوه رزاً أصاب فيه شيئاً كارتزاه

لها آيين<sup>(١)</sup> ولا أجور الضرايين ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج<sup>(٢)</sup> ولا أجور البيوت ولا دراغم النكاح، ورفع الخراج عمن أسلم من أهل الأرض « وأبطل جوائز الرسل وأجور الجهابذة وهم القساطرة وأرزاق العمال

(١) الآيين العادة والقانون ، وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة . ويقول البيروني في الآثار الباقية : كان من آيين الأكاسرة أن يبدأ الملك يوم النيروز فيعلم الناس بالجلوس لهم والاحسان إليهم ، وفي اليوم الثاني يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفي اليوم الثالث يجلس لساورته وعظما. موابذته ، وفي اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وعاصته . وفي اليوم الخامس لولده وصنائه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والاكرام ويستوفي ما استوجبه من البرة والانعام ، فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم فتوزر نفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنه ومن يصلح لخلوته ، وأمر باحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين فيتأملها ويفرق منها ما يشاء. ويودع الخزان ما شاء .

وفي كتاب أخلاق الملوك للجاحظ أن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والعة في ذلك أنهما فصلا السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إذن بدخول فصل الحر . إلا أن في النيروز أحوالا ليست في المهرجان ، فمنها استقبال السنة وافتتاح الخراج ، وتولية العمال والاستبدال وضرب الدرهم والدنانير وتذكية بيوت الثيران وصب الماء وتقريب القران وإشادة البيان وما أشبه ذلك ، فهذه فضيلة النيروز على المهرجان ، ومن حق الملك أن يهدى إليه الخاصة والحامة ( العامة والخاصة من الأهل ) والسنة في ذلك عندهم أن يهدى الرجل ما يحب من ملكه إذا كان في الطبقة العالية ، فان كان يحب المسك أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزة وليسه أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدى فرساً أو ربحاً أو سيفاً ، وإن كان رامياً فالسنة أن يهدى نشاباً ، وإن كان من أصحاب الاموال فالسنة أن يهدى ذهباً أو فضة ، وإن كان من عمال الملك وكانت عليه موانيد ( متأخرات أو بقايا ) للسنة الماضية ، جمعها وجعلها في بدر حرير صيني وشريحات فضة وخيوط إبريسم وخواتيم عنبر ثم وجهها . وكذلك كان يفعل من العمال من أراد أن يترين بفضل ثقافته أو بفضل عماله أو أداء أمانته . وكان يهدى الشاعر الشعر والخطيب الخطبة والتديم التحفة والطرفة والباكورة من الحضرات . وعلى خاصة نساء الملك وجواربه أن يهدين إلى الملك ما يؤثره ويفضله ، ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها أن تهديها إليه بأكل حالانها وأفضل زينتها وأحسن هيأتها ، فإذا فعلت ذلك فن حقها على الملك أن يقدمها على نساته ويخصها بالتمتة وزيدها في الكرامة . ومن حق البطانة والخاصة على الملك في هذه الهدايا أن تعرض عليه وتقوم قيمة عدل . وكان من تقدمت له هدية في النيروز والمهرجان صفت أم كبرت كثرت أم قلت ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نائمة تنوبه أو حق يلزمه ، فعليه أن يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه الخ . والغالب أن هدايا النيروز والمهرجان عادت تحمل الى الخلفاء ولا سيما في عهد بني العباس فقد ذكر صاحب نسوار المحاضرة أنه حملت الهدايا الى المتوكل في مثل هذه المواسم من كل شئ عظيم طريف ملبح .

(٢) الفيوج جمع فوج وهو الساعي أى رسول السلطان الذى يسمى بين يديه

وأنزاهم ، وأبطل السخرة والعتاء وورث العيالات على ما جرت به السنة وأقر القطائع<sup>(١)</sup> التي أقطعها أهل بيته ، ولم ينقص العطاء في الشرف ولم يزد فيه ، وزاد أهل الشام في أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى الرجوع عنها . وورد كتابه على عامله في مصر بالزيادة في أعطيات الناس عامة ، وكسرت دنان الحجر وعطلت حاناتها ، وقسم للفلاحين بخمسة وعشرين الف دينار ، ونزعت مواريث القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها .

ووضع المكس<sup>(٢)</sup> عن كل أرض واكتفى بالعشر ، والعشر ما يجب في الزروع التي سقيت بماء السماء وما يؤخذ من أموال أهل الحرب إلى بلد الاسلام المتاخم لهم ، وإذا استقر الصلح معهم على أخذ العشر أو الخمس أو أكثر منه أو أقل منه أثبت ذلك الشرط في الديوان . ووضع الجزية عن كل مسلم ، وأباح الجزائر والأسماء كلها إلا النقيع<sup>(٣)</sup> وقال في الجزائر هو شيء أثبتته الله فليس أحد أحق به من أحد ، وفرض للناس إلا للتاجر لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح للمسلمين ، وسوَّى بين الناس في طعام الجار ، وكان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرادب ونصف أرادب لكل إنسان . وكتب إلى أحد عماله أن يستبرئ الدواوين<sup>(٤)</sup> وينظر إلى كل جور جاره من قبله من حق مسلم أو معاهد فيرده عليه فإن كان أهل تلك

(١) أقطعها فطيعة من الأرض والقطائع ، طائفة من أرض الخراج (٢) المكس الظلم وهو ما يأخذه العشار وهو مكس وما كس . والاحكام جمع حمى وهو موضع فيه كلاب يحمى من الناس أن ترعى . قال الشافعي في تفسير الحديث لا حمى إلا لله ولرسوله: إن الشرف من العرب في الجاهلية كان إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً يحمى لخاصته مدى عوار الكلاب ، لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم في سائر المواقع حوله ، فبني الرسول أن يحمى على الناس حمى كانوا في الجاهلية يفعلون إلا ما يحمى لحيل المسلمين وركابهم التي ترصد للجهاد ويحمل عليها في سبيل الله وإلى الزكاة كما حمى عمر النقيع لنعم الصدقة والحيل المعدة في سبيل الله - نقله في التاج . والجزيرة هي الأرض التي لا يعلوها السيل ويصدق بها وفي الأصل كل أرض ينجز عنها المد (٣) النقيع البئر الكثيرة الماء والجمع أنقعة والنقيع موضع على مقربة من المدينة حماه عمر لنعم التي وخيل المجاهدين لا يرعاه غيرها والأرجح أنه المقصود هنا (٤) استبرأ طلب الأبرار من الدين والذنب واستبرأ الشيء طلب آخره ليقطع الشبهة عنه

المظلمة قد ماتوا يدفعه الى وراثتهم . وقضى على عماله بإبطال المائدة والنوبة<sup>(١)</sup> ،  
ومن أدى زكاة ماله قبل منه ، ومن لم يؤد فآله حسيبه . ورد الخس على أهله  
وعلى أهل الحاجة ، وقضى أن لا يؤخذ من المعادن الخس بل تؤخذ الصدقة ،  
وضرب أحدهم سبعين سوطاً لأنه سخر دواب النبط .

وجرت عادة الخلفاء ، إذا جاءتهم جبايات الأمصار أن يأتهم مع كل جباية  
عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار  
ولا درهم حتى يحلف الوفد ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات  
أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذي حق حقه ، أى فضل أعطيات  
الأجناد وفرائض الناس . وقضى عمر على عماله أن ينظروا الأرض ولا يحملوا  
خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وإن أطاق الخراب شيئاً يؤخذ منه ما أطاق  
ويصلح ليعمر ، ولا يؤخذ من عامر لا يعتمل شيئاً ، وما أجذب من العامر يؤخذ  
خراجه في رفق . وكانوا بفارس يحرصون الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون  
سعر الناس الذى يبتاعون به فيأخذونه ورقاً على قيمهم التى قوموا بها ، فرد عمر إلى  
من شكوا الثمن الذى أخذ منهم وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض غلتهم .

كتب إلى عامله إلى البصرة : أما بعد فانى كنت كتبت إلى عمرو بن عبد الله  
أن يقسم ما وجد بعُمان من عشور التمر والحب فى فقراء أهلها ومن سقط إليها من  
أهل البادية ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل فكتب إلى أنه  
سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل اليك ثمنه ، فاردد  
إلى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه فى المواضع  
التي أمرته بها ويصرفه فيها ان شاء الله والسلام .

(١) النوبة النازلة جمع نوب ونواب الرعية ما ينحتم عليهم من إصلاح الغناطر والطرق وسد الشقوق ،  
ولعل المائدة ما كان يألفه العمال من إطعام الناس على مواعدهم ، وهذا مال كبير يمكن اقتصاده حتى  
لا يسرف فى بيت المال .

وأمر عماله بالرفق بأهل الذمة وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة فإن كان له حميم ينفق عليه حميمه ، كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن بد من الاتفاق عليه حتى يموت أو يعتق . وكتب إلى عامله على السكوفة أن قو أهل الذمة فإننا لا نزيدهم لسنة ولا لسنتين ، وأعطى بطريقاً<sup>(١)</sup> ألف دينار يستألفه<sup>(٢)</sup> على الاسلام .

خاصم حسان بن مالك<sup>(٣)</sup> عم أهل دمشق إلى عمر في كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعه إياها ، فقال عمر: ان كانت من الخمسة العشرة الكنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك عليها . وخاصم عم أهل دمشق إلى عمر في كنيسة كان فلان أقطعها لبني نصر بدمشق فأخرجها عن المسلمين وردها إلى النصارى . وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد فهم أن يعيدها اليهم لولا أن المسلمين أقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الفوطة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلك وأعجبهم فكتب به إلى عمر فسرّه وأمضاه .

وعمر أول من ندب نفسه للنظر في المظالم في الدولة الأموية فردها ، وذلك لانتشار الأمر حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب فاحتاجوا في ردع المتغلبين وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذي تبرز به قوة السلطة بنصفه القضاء . وما شرهت قط نفس عمر إلى أخذ أموال الناس بل ما كان يجب أن يأخذ منهم أكثر من الفضل ويسامح بكثير من هذا الفضل . كتب اليه عامله على العراق ان أناساً قبله قد اقتطعوا من مال الله مالا عظيماً ليس يقدر على استخراجه من

(١) ان الطريق غير البطريرك فالأول لقب ذي منصب سياسي والآخر لقب ذي منصب ديني ، والأول Patrique و Patrice بالفرنسية والثاني Patriarche وقد عربته العرب أيضاً بقولهم بطريرح وفي بعض الأحيان يختصرونه ويقولون بطرك - قاله أحمد زكي (٢) استألف طلب إلفاً صديقاً مؤانسا (٣) فتوح البلدان للبلاذري

أيديهم إلا أن يسهم شيء من العذاب . فكتب إليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كآثي لك جنة<sup>(١)</sup> من عذاب الله ، وكان رضاي ينجيك من سخط الله ، فانظر فيما قامت عليه البينة فخذ بما قامت عليه ، ومن أقر لك بشيء فخذ بما أقر به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخل سبيله ، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلي من ألقى الله بدمائهم » وكتب إليه عامله على مصر حيان بن شريح : إن أهل الذمة قد أسرعوا في الاسلام وكسروا الجزية حتى استلقت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار لأنتم بها عطاء أهل الديوان ، وطلب إليه أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الاسلام . فأجابته عمر : « قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً » وكتب إليه عامله على العراق عدوى بن أرطاة : إن الناس قد كثروا في الاسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب إليه : « والله لو ددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . » وقال في إحدى خطبه : وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوي نحن وعم وأكون أنا أولهم . ثم قال : مالي وللدنيا أم مالي ولها .

ولم يشهد مثل تحرى عمر في اختيار العمال وتعليمهم إحصان العمل ، وكان يرى كل مظلمة تقع في أقصى البلاد إذا لم يرد لها ويكشف ظلامتها صاحبها ، كأنه هو فاعلها أو على الأقل المسؤول عنها . وإذا شكى إليه عامل وتحقق ظلمه جاء به مقيداً ولا يُخلّيه من ضرب يوجهه به . وكان لا يفتأ يبحث عن سيرة عماله ورضا الناس عنهم ، وإذا عزلم لا يستعين بهم بعدها أبداً . كتب إلى أحد عماله : « أما بعد فإذا دعمتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم ، فاذا كر قدرة الله عليك وفناء ما توتى

(١) قوله جنة أي الجنة

اليهم وبقاء ما يأتون اليك» وكتب إلى عامله على العراق: «إن العرفاء من عشائركم  
بمكان، فانظر عرفاء الجند فمن رضيته أمانته لنا ولقومه فأثبته، ومن لم ترضه  
فاستبدل به من هو خير منه، وأبلغ في الأمانة والورع» وما كان يضمن على عماله  
بالمشاهرات الحسنة وقد قيل له: ترزق الرجل من عمالك مائة دينار ومائتي دينار  
في الشهر وأكثر من ذلك قال: أراه لهم يسيراً إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه،  
وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهم بما يشعرونهم. وقال: ما طوعني الناس على ما أردت  
من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً.

وأخذ عمر نفسه بالسير في إصلاحه بالتدريج، ناظراً قبل كل اعتبار إلى الدين  
لا يجيد عن صراطه قيد أملة، ولو كان في ذلك بعض الضرر على بيت المال أو  
إدخال بعض الوهن على ما اصطالحوا عليه من قبله، إرادة القاء الهيبة في النفوس.  
قال لابنه: ما مما أنا فيه أمر هو أهم إلى من أهل بيتك، هم أهل العدة والعدو  
وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره على، ولكني  
أنصف من الرجل والاثني فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له، فإن يرد الله إتمام  
هذا الأمر أمه، وإن تسكن الأخرى فحسب عبد الله أن يعلم الله أنه يجب أن  
ينصف جميع رعيتيه. وكتب إلى عامله على خراج خراسان: «إن للسلطان أركاناً  
لا يثبت إلا بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن  
الرابع أنا، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلى ولا أعظم عندي من ثغر خراسان،  
فاستوعب الخراج وأحرزه في غير ظلم، فإن يك كفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك،  
وإلا فاكتب إلي حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم. ولما وجد خراج  
تلك البلاد يفضل عن أعطيات جندها وأهلها قسم عمر الفضل في أهل الحاجة.  
وكتب إلى أمصار<sup>(١)</sup> الشام أن يرفعوا إليه كل أعشى في الديوان أو مقعد أو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي

من به فالج ، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة ، فأمر لكل أعمى بقائد ، ولكل اثنين من الزمى بخادم . وأمر أن يرفعوا إليه كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونهم بالسوية ، وفرض للعوانس الفقيرات ، وكان لا يفرض المولود حتى يقطع ، فنادى مناديه لا تعجلوا أولادكم عن الطعام ، فانا نفرض لكل مولود في الاسلام واتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل ، وأوصى أن لا يُصيب أحد من هذه الدار شيئاً من طعامها لأنه خاص بمن طبخ لهم . وقسم في ولد عليّ ابن أبي طالب عشرة آلاف دينار ، وكان الناس في عهده يعرضون على ديوانهم لتناول عطايتهم ، فمن كان غائباً قريب الغيبة يعطى أهل ديوانه ، ومن كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه إلى أن يقدم أو يأتي نعيّة أو يوكل عنه الوالى بوكالة بينة على حياته ليدفعه إلى وكيله . ونظر في السجون وأمر أن يستوثق من أهل الدعارات (١) ويكتب لهم برزق الصيف والشتاء ويعاهد مريضهم ممن لا أهل له ولا مال ، ولا يجمع في السجون بين قوم حبسوا في دين وبين أهل الدعارات في بيت واحد ، ولا حبس واحد ، وجعل للنساء حبساً على حدة ، وعهد بالحبوس إلى من يوقن بأمانتهم ومن لا يرتشى « فإن من ارتشى صنع ما أمر به » وأنشأ الخانات في بلاده يقرى من مر بها من المسلمين يوماً وليلة ويتعهد دوابهم ، ويقرون من كانت به علة بومين وليلتين ، فان كان منقطعاً به يقوى بما يصل به إلى بلاده ، وأمر أن لا يخرجن لأحد من العمال رزق في العامة والخاصة ، فانه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين في الخاصة والعامة . وأطلق الجسور والمعابر للسابلة يسرون عليها بدون جعل لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به ، وجعل لكل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة .

(١) استوثقت منه أخذت في أمره بالوثيقة ، وأهل الدعارة أهل الفساد والشر

ولى عاملا له على الموصول فلما قدمها وجدها من أكثر البلاد سرقا<sup>(١)</sup> وبقيا ، فكتب إلى عمر يعلمه حال البلد ويسأله أخذ الناس بالظنة ، وضربهم على النعمة أو يأخذهم بالبينة . فكتب : أن خذ الناس بالبينة وما حرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . وكتب إليه أحد عماله يذكر شدة الحكم والجباية ، فأجابه أنه لم يكلفه ما يُعنته وأن يجي الطيب من الحق ويقضى بما استنار له من الحق ، فإذا التبس عليه أمر يرفعه إليه قائلا : فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا . وكتب إلى أحد عماله : إن العمل والعلم قريان فكن عالما بالله عاملا له ، فإن أقواما علموا ولم يعملوا فكان عملهم عليهم وبالآ . وكتب أيضا : أما بعد فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين . وكتب إلى عامل : أن دع لأهل الخراج من أهل الفرات ما يتختمون<sup>(٢)</sup> به الذهب والفضة ، ويلبسون الطيالة ويركبون البراذين ، وخذ الفضل . وكتب إلى عامله : أما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون .

وكتب إلى أمير مكة أن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجرا فإنه لايجل لهم لقوله تعالى : « سواء العاكف فيه (أى فى البيت) والبادى . والبادى من يخرج من الحجاج والمعتمرين سواء فى المنازل ينزلون حيث شاءوا ولا يخرج أحد من بيته . وكتب إلى عماله على مكة والطائف أن فى الخلايا صدقة تخذوها منها ، والخلايا الكواثر كواثر النحل . وكتب إلى عامله على اليمن يأمره بالغاء الوظيفة والانتصار على العشر ، وقال والله لان لا تأتيني من اليمن حفنة كتم أحب إلى من إقرار هذه الوظيفة . وكان ضربها محمد بن يوسف على أهل اليمن ، وهى الخراج جعله وظيفة .

(١) يقال السرقة والسرق والسريق (٢) يختم بالعقيق لونه وبالذهب والفضة أيضا

وما كان عمر منذ كان والياً على المدينة يقطع أمراً بدون استشارة ، وكان دعا إليه عدة من الفقهاء وحرصهم على أن يبينوا له زلاته إذا رآوا منه ذلك وسمعوا ، فكان إذا جلس مجلس الإمارة في عهد خلافته أمر فألقى لرجلين منها وسادة قبالتة فقال لها إنه مجلس شيرة وفتنة ، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلى فإذا رأيتماني شيئاً لا يوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل . وكان يقول ، بعد أن ولي الخلافة ، لأن يكون لي مجلس من عبيد الله — أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ومؤدبه لما كان صغيراً — أحب إلي من الدنيا وما فيها . وقال : وإني والله لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بألف دينار من بيت المال . فقالوا : يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحريكك وشدة تحفظك . فقال : أين يذهب بكم والله إني لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف . وكان يحب السمر مع أهل الفضل فقيل له في ذلك فقال : لقاء الرجال تلقيح الأبواب . وقال : إن في المحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهمم ، وتنقيحاً للأدب . وما زال يرد المظالم ويحبي السنن ويطفي البدع ويقسم الأموال والأعطيات بين الناس . ورد ذلك إلى ما كانت عليه أي إلى آل الرسول .

أبعد عمر بن عبد العزيز عن حماء الشعراء والخطباء ، وما كان يحب للدمج والمجاء ، وهو يعرف استرسال الشعراء في المحجون والهزل<sup>(١)</sup> ، وأنهم يمدحون من يعطيهم ويهجون من يرضن عليهم ، وإذا كان رجل جده وتقوى حجبه فانتشعوا<sup>(٢)</sup> عنه كلهم ، وثبت الفقهاء والزهاد فكان يعطيهم عطاءً كثيراً ، أما الشعراء فآكتفوا بالقليل الذي كان يعطيهم من ماله الخاص ، وأعطى قوماً في حمص نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا مائة دينار لكل رجل منهم ، يستعيتون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين . وبحسن سياسته سكنت الخوارج في

(١) العقد الفرید لابن عبد ربہ (٢) تفرقوا

أيامه فلم يشوروا لأنه ناقشهم فأخهم وأقسموا أن لا يشعبوا مادام خليفة . وما حدثته نفسه قط بإهراق دماء من خالفوه في مذهبه . وقد كتب إلى عامله على الكوفة أن يستيب القدرية مما دخلوا فيه ، فإن تابوا يخلى سبيلهم وإلا فينفيهم من ديار المسلمين . أراد بذلك حقن دماهم ، وكان غيره من الخلفاء يبادر إلى قتلهم . وطريقة عمر في إدارة ولاياته طريقة أسلافه في اطلاق الحرية للعامل ، لا يشاور الخليفة إلا في أم المهمات مما يشكل عليه أمره . كتب إلى عامله على اليمن : أما بعد فاني أكتب إليك أمرك أن ترد على المسلمين مظلهمهم ، فتراجعني ولا تعرف مسافة ما بيني وبينك ، ولا تعرف أحداث الموت حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت أردھا عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظلهمهم ولا تراجعني . وأمل على كاتبه يوماً كتاباً إلى عامله على الكوفة قال فيه : « إنه يُخيل إلى أني لو كتبت إليك أن تعطى رجلاً شاة لكتبت إلى أضأن أم ماعز ، فان كتبت بأحدهما كتبت إلى أصغير أم كبير ، فإن كتبت إليك كتبت إلى أذكر أم أنثى ، فاذا أتاك كتابي هذا في مظلمة فاعمل به ولا تراجعني » وكتب إلى آخر : « إنك تردد إلى الكتب فنغد ما أكتب به إليك من الحق ، فانه ليس للموت ميقات نعرفه » .

قال له بعض أصحابه عليك بأهل العذر قال : من هم ؟ قالوا : الذين إن عدلوا فهو مارجوت منهم ، وإن قصرُوا قال الناس قد اجتهد عمر . وكان ينهى عماله عن اللثة<sup>(١)</sup> في العقوبة أي جز الرأس واللحية ، وينهاهم عن الاسراف حتى في القراطيس التي يكاتبونه فيها . فقد قيل له : ما بال هذه الطوامير التي تكتب بالقلم الجليل وتمد فيها وهي من بيت مال المسلمين . فكتب إلى العمال أن لا يكتبن في طومار ولا يمدن فيه . قالوا وكانت الطوامير شبرا ونحو ذلك . ومما كتب إلى أحد

(١) اللثة بضم الميم وفتحها العقوبة والتكبير

عماله : أدق قلمك ، وقارب بين سطورك ، واجمع حوائجك فاني أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا يفتنهمون به . وكان عمر من كبار الكتاب والخطباء ، وكان إذا خطب على المنبر يخاف فيه العجب قطع ، وإذا كتب كتاباً يخاف فيه العجب مزقه ، ويقول : اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي . ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتباً فأملى عليه كتاباً واحداً من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة فأملى أحسن إملاء . وأبلغه وأوجزه ، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد . قالوا وجعل يكتب بيده إلى العمال في الأمصار <sup>(١)</sup> .

كان عمر يحسن ظنه بعماله ولا يتخلى عن كشف أحوالهم فقد وفد عليه بلال ابن أبي بردة بخصاصة فقال عمر للعلاء <sup>(٢)</sup> بن المغيرة بن البندار ، وقد رأى بلالاً يديم الصلاة : إن يكن سرُّ هذا كعلائته ، فهو رجل أهل العراق غير مدافع . فقال العلاء : أنا أتيتك بحبره ، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال : اشفع صلاتك فإن لي اليك حاجة ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفت حالي من أمير المؤمنين فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال : لك عمّالتي <sup>(٣)</sup> سنة ، وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم . قال فاكتب لي بذلك . قال : فأرقد <sup>(٤)</sup> بلال إلى منزله فأنتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك . فأنتى العلاء عمر بالكتاب ، فلما رآه كتب إلى والي الكوفة : « أما بعد فإن بلالاً غرنا بالله ، فكدنا نفتر ، فسبكتناه فوجدناه حبيباً كله والسلام » وبلال هذا كان فيما يقال أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم ، وكان أمير البصرة وقاضياً . وكان عمر يقول : لا ينبغي للرجل أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالماً قبل أن يستعمل ، مستشيراً لأهل العلم ، ملقياً للرئع <sup>(٥)</sup> ، ومنصفاً للخصم ، ومقتدياً بالأئمة .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (٢) الكامل للبرد (٣) العمالة الأجرة (٤) أرقد أسرع

(٥) الرئع الطمع

سخط مسleme بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه : إن من حفظ أنعم الله رعاية ذوى الأسنان ، ومن اظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنوب ، ومن تمام السوداء حفظ الودائع واستتمام الصنائع . وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك فلبت بها عجلة سُخطك وما أنصفته ، غصبتُه على أن وليته ثم عزلته وخليته ، وأنا شفيعه ، فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ، ولا تخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما أودعته وتوى<sup>(١)</sup> ما أفدته . فعفى عنه ورده الى عمله .

خطب يوما فقال : أيها الناس ، لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإني لست بقاض ، ولكنى مقتد ، ألا وإني لست بمبتدع ولكنى متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ولكن الامام الظالم هو العاصى ، ألا لاطاعة مخلوق فى معصية الخالق . وقال من خطبة : وما منكم من أحد تبلغنا حاجته يتسع له ما عندنا إلا حرصنا أن نسد حاجته ما استطعنا ، وما منكم من أحد تبلغنا حاجته لا يتسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بى وبحاصتى حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . ومن غريب أمره فى إطلاق حرية القول أن يخطب الناس عبد الله بن الأهم ، ويذكر ما آل إليه أمر الأمة على عهد صاحب الشريعة والخليفين من بعده ثم يقول : إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع<sup>(٢)</sup> أعوج . يقول هذا فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، وعمر يسكت عنه ، ولطالما أسمعه بعض الناقلين على أهل بيته ما يغضب له الحليم ، فما كان يقابلهم بغير الاغضاء يفهمهم من طرف خفى أنه لا يليق بالرجل أن ينال من آله .

وكان عمر يجلس الى قاص العامة ويرفع يديه إذا رفع ، وقاصه محمد بن قيس . وعلم أن أناساً من القصاص يصلون على خلفائهم وأمرائهم يلتمسون الدنيا بعمل

(١) توى كرضى هلك واتواه الله فهو توى أذبه فهو ذاهب والتوى الهلاك (٢) الضلع الميل

الآخرة، فأمرهم بالدعاء للمؤمنين عامة وأن يلفوا ما سوى ذلك . وأدرك أن البادية  
يتحفزون إلى أن يرجعوا إلى سيرتهم في الجاهلية ، فبعت إليهم برجلين من أرباب  
الفرقة يفقهان الناس في البدو وأجرى عليها رزقاً . وكأنه قطع عهداً على نفسه إذا  
ولى أمر المسلمين « أن لا يضع لبننة على لبننة ولا آجرة على آجرة » لئلا يقع في  
ذلك حيف على الرعية . وهم يتولون من ذلك ما يصلحهم من إقامة القصور والبيوت،  
أما هو فيعمل لإغنائهم وحملهم على الجادة ، حتى لم يبق فقير في أيامه في أكثر  
الأمصار ، لكثرة ما وزع على الفقراء من أموال الصدقات : يقبض عماله الصدقة ثم  
يقسمونها في الفقراء حتى إنه ليصيب الرجل الفريضان أو الثلاث فما يفارقون الحيَّ  
وفيهم فقير ، ولا ينصرفون إلى الخليفة<sup>(١)</sup> بدرهم . بعث عاملاً على صدقات إفريقية<sup>(٢)</sup>  
فأراد أن يعطى منها الفقراء فالتهمهم في كل مكان فلم يجد فيها فقيراً يقبل أن يأخذ  
صدقة بيت المال ، فاشترى بها رقاباً وأعتقها وجعل ولاءهم للمسلمين . وما مات عمر  
حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما  
يبرح حتى يرجع بماله ، لا يجد من يضعه فيهم ، لكثرة ما أغنى الناس عمر .  
ومن أهم ما عمله عمر في حسن الإدارة والسياسة أنه لم يشأ — لما وسدت إليه  
الخلافة — أن يبدأ بعمل قبل أن يستدعى المسلمين من أرض الروم ، وقال : لَرَجُلٌ  
من المسلمين أحب إلي من الروم وماحوت . وفي سنة ١٠٠ أمر أهل طرندة بالقفول  
عنها إلى ملطية ثم اشترى ملطية من الروم بمائة ألف أسير ، فجعل لدولته سداً منيعاً ،  
وأخذ المسلمين من ذل الأسر . وأراد هدم المصيصة ونقل أهلها عنها لما كانوا يلقون  
من الروم فتوفي بعد ذلك .

ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريرته وبكى وذكر من مآثر  
عمر أمام وفد من العرب ، كان ذهب للفداء بين المسلمين والروم ، ما أبكى القتل ،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم

ومما قال : لقد بلغني من بره وفضله وصدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموقى لظننت أنه يحيى الموقى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكنى عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهدها فيها حتى صار مثل الراهب (١) .

وأحب عمر أن يجلى المسلمين من الأندلس لأنه كان يعتقد أن مقامهم فيها غير طبيعى ، لأنهم محاطون بالأعداء بعيدون عن مقر الخلافة . فأمر أحد عماله أن يرسم له مصوراً الأندلس ليرى في إجلاء المسلمين رأيه . وكتب إلى عامله عبدالرحمن ابن نعيم يأمره باقتال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم فأبوا ، وكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه : « اللهم إني قد قضيت الذى على فلا تغزُ بالمسلمين تخسبهم الذى قد فتح الله عليهم » كل أولئك يدل على أن عمر ما كان يريد التوسع في الفتوح ، ويحاول أن يقتصر على البلاد التى دخلت في المملكة الإسلامية حتى لا تهرق الدماء على غير طائل ، ويعمر الناس البلاد ، ويصلح أهلها صلاحاً دائماً على ان يكونوا بين أخرى يرجو ثواب الله ، وديناوى يستجمع صفات الشرف في نفسه . وكتب إلى ملوك الهند يدعومهم (٢) إلى الاسلام والطاعة على أن يؤمنوا بهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . ولما ولى اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم ببلاد المغرب سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الاسلام ، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتاباً يدعومهم إلى الاسلام فقرأه اسماعيل عليهم في النواحي فقبل الاسلام على المغرب . وكتب في اللواتيات : ان من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليرددها إلى أهلها ، ولواتية قرية من البربر كان لهم عهد . ولما استخلف كتب إلى ملوك

(١) مروج الذهب للسمعودى . (٢) فتوح البلدان للبلاذرى

ما وراء النهر بدعواهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عن أسلم بخراسان  
وفرض لمن أسلم ، وابتنى خانات . ثم بلغ عمر عن عامله عصبية وكتب إليه أنه  
لا يصلح أهل خراسان إلا السيف فأنكر ذلك وعزله وكان عليه دين فقضاه .  
ووفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه ان قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين  
على غدر ، فكتب إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فان قضى  
باخراج المسلمين أخرجوا ، فحكم القاضى باخراج المسلمين وعلى أن يناذروهم على  
سواء<sup>(١)</sup> ، فكره أهل سمرقند الحرب وأقروا فأقاموا بين أظهرهم . قال عمر لمزاحم  
مولاه : إن الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي فإن سمعت  
منى كلمة تراءى بي عنها أو فعلا لا تحبه ، فعظني عنده وانهي عنه . وكان عنده رجلان  
يُجعلان يلحنان فقال الحاجب : قوما قد آذيتا أمير المؤمنين . فقال عمر : أنت آذى لي منها .  
هذا يجعل ما تم في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من الإصلاح فأعاد  
إلى الخلافة جمالها وجلالها على ما كانت عليه أيام جده لأنه عمر بن الخطاب .  
ولكن عمر بن عبد العزيز عمل في غير زمان عمر بن الخطاب وعمل بغير رجاله .  
وكان دأب عمر بن عبد العزيز أن يذكر الناس بالآخرة ويخوفهم العذاب ، ودأب  
ابن الخطاب أن يذكرهم العمل للدنيا مع شدة التمسك بحق الأخرى . فكانت  
إدارة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه وسيرة حفيده كذلك . لأن الناس فسدوا في  
أواخر القرن الأول أو بدأوا بالفساد ، فكان هجيره أن يذكرهم بالمعاد ويظهر  
أخلاقهم . وعمل عمر كل هذا في سنتين وخمسة أشهر وهذا من أعجب ما يدون  
في تاريخ عطاء الأرض . ولما مرض مرضته التي مات فيها دخل عليه مسلمة بن  
عبد الملك فقال : ألا توصي يا أمير المؤمنين ؟ . فقال : فيم أوصي ، فوالله إن لي من

(١) قوله تعالى : فانذ بهم على سواء . معناه اذا هادنت قوما فعلت منهم النقص للعهد فلا توقع بهم  
سابقاً إلى النقص حتى تعلمهم انك نقصت العهد فتكونوا في علم النقص مستوين ثم أوقع بهم ( المصباح )

مال . فقال : هذه مائة ألف فخر بها بما أحببت . وقال : أو تقبل ؟ . قال : نعم .  
قال : ترد على من أخذت منه ظلماً . فبكى مسلمة ثم قال : يرحمك الله لقد أنت  
مناقلوناً قاسية ، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً .

إدارة يزيد بن عبد الملك وهشام ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد .

ولم يكده عمر بن عبد العزيز يلحق بمولاه حتى عادت الدولة الى سابق عهدها  
إلا قليلاً . وعزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً وأعاد سب عليّ  
على المنابر ، وكتب إلى عمال عمر : أما بعد فإن عمر كان مغروراً غرتموه أنتم  
وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة ، فإذا أتاكم كتابي  
هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس الى طبقهم الأولى ، أخصبوا  
أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا والسلام . ويزيد هذا أحد إخوة أربعة  
تولوا الخلافة ولقبوا بالأكابش الأربعة ، وهذا كان على غير طريقة إخوته .

وجاء دور هشام في الخلافة وناهيك به من « رجل محشو عقلاً » وفيه من  
الحلم والأناة والعفة ما ظهرت آثاره في إدارة الملك وعدّه أحد السواس الثلاثة من  
بنى أمية وهم معاوية وعبد الملك وهشام ، وبه ختمت أبواب السياسة وحسن  
السيرة ، وكان يحب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال وتقوية الثغور وإقامة  
البرك والقنى في طريق مكة وغير ذلك : ويسير بموكب كسائر الخلفاء من أهل بيته ،  
ولم يكن مثل ذلك لغير أخيه مسلمة بن عبد الملك . وافتتح عهده بعزل عمر بن  
هبيرة عن العراق وتولية خالد بن عبد الله القسري ، فأدار هذه الولاية (١) العظيمة  
نحو خمس عشرة سنة بإقامة العدل وإفاضة السلام والعمل الصالح . وكان هشام  
على غاية الإخلاص متقللاً متقشفاً في ذاته ، يقوم بواجب الخلافة حق القيام ،

(١) معلة الاسلام . مادة هشام

ومن أكبر همه إصلاح أموال الدولة ، وغلب عليه الاقتصاد حتى كاد ينقلب الى شح . بينما هو يوصى عقّال بن شُبّة<sup>(١)</sup> لما وجهه الى خراسان نظر هذا الى قباة الخليفة فقال : مالك ؟ قال : رأيت عليك قبل أن تلي الخلافة قباة ، فنك<sup>(٢)</sup> أخضر فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك أم غيره . فقال : هو والله الذي لا إله إلا هو ذلك ، مالى قباة غيره ، وأما ما ترون من جمعى هذا المال وصونه فإنه لكم .

وكانت دواوينه مثال التدقيق والعناية في معاملة الرعية ومحاسبة العمال الذين يتصرفون له يتخيرهم من الأمناء البعيدين « من الفساد ومن الرشا ومن الحكم بالهوى » ويعتمد في توسيد الأعمال على أناس من أهل بيته . قال عبد الرحمن ابن علي : جمعت دواوين بني مروان فلم أر ديواناً أصح للعامة وللسلطان من ديوان هشام . وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بني مروان أشد حصرآ في أمر الصحابة ودواوينه ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام .

كتب هشام إلى والى العراق لما أخذ ابن حسان النبطى فضربه بالسياط ، وكان أوغر صدر هشام عليه من إفراط الدالة واحتجان الأموال وكفر ما أسداه إليه من توليته إياه العراق : « ان هشاماً آترك بولاية العراق ، بلا بيت رفيع ولا شرف قديم ، وهذه البيوتات تعلقك وتعمرك وتسكتك وتتقدمك في المحافل والجامع عند بدءة الأمور وأبواب الخلفاء . ومما قال له : أنه استعان بالجوس والنصارى وولاهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وسلطهم عليهم . وقال له : والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك أمير المؤمنين ما أفسدت من مال الله ، وضيعت من أمور المسلمين ، وسلطت من ولاية السوء على جميع أهل كور عملك تجمع اليك الدهاقين<sup>(٣)</sup> هدايا النيروز والمهرجان ، حابساً لا أكثره ، رافعاً لأقله مع مخابث مساويك<sup>(٤)</sup> »

(١) تاريخ الطبرى (٢) الفنك محرقة جلد بليس فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعدلها صالح يجمع الامزجة المعتدلة (٣) الدهقان جمع دهقانة ودهاقين ، الشاجر وزعيم فلاحى العجم ورئيس الاقليم أو مقدم قرية أو صاحبها بخراسان والعراق (٤) يقال هو خبيث نخبت وفيه مخابث جمعة

وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة ، وكان الأسطول يشترك مع الجيش البري من الياسة ، وذلك بقيادة ابنه معاوية وسليمان . وتقدمت جيوشه في الشرق فغزا الترك وأخذ دعاة بني العباس وثوار الخوارج في أيامه يعملون سرّاً وجهرّاً إذا أمكنتهم الحال ، وعلى ما في هشام من بعد نظر لم يقدر مدى الدعوة التي عادت بعد على دولته بالوبال ، مع أنه كان معروفاً بالشدة في مثل هذه المسائل . وظلّ أعداءه الدولة ينتقون في أساسها ، وما كان بما عرف فيه من العقل يريد إثارة الخواطر فيما لا يعود على السلطان بفائدة ، فقد لقيه في الحج سنة ١٠٦ - سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان وقال له : يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن الصالحة أبا تراب ( علي بن أبي طالب ) فأمر المؤمنين ينبغي له أن يلعنه في هذه المواطن الصالحة . فشق ذلك على هشام وثقل عليه كلامه ثم قال : ما قدمنا لشم أحد ولا للعنه ، قدمنا حججاً ، ثم قطع كلامه <sup>(١)</sup> .

وذكروا أن هشاماً كان ينزل الرضاة من أرض قنشرين وكان سبب نزوله إياها أن الخلفاء كانوا ينتبذون <sup>(٢)</sup> ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجاً عن الناس ، فلما أراد هشام أن ينزل الرضاة قيل له : لا تخرج فإن الخلفاء لا يطعنون ولم ير خليفة طعن . فقال : أتريدون أن تجربوا بي ! فنزل الرضاة وهي برية وابتنى بها قصرين . وكان <sup>(٣)</sup> لا يدخل بيت ما له مال حتى يشهد أربعمائة <sup>(٤)</sup> أنه أخذ من حقه وأعطى لكل ذي حق حقه . وهو من أحزم بني أمية ومن أعقلهم يفضل على العلماء والفقهاء كثيراً .

وتولى يزيد بن الوليد الخلافة فنقص الناس من عطائهم ، وكان أشد ضنائة

(١) تاريخ الطبري (٢) اتبذ الرجل ، اعتزل ناحية (٣) تاريخ الطبري (٤) القسامة الذين يسمون على دعواهم

بالمال من هشام ، فسمى يزيد الناقص ، فاضطربت عليه البلدان ، وكان الخليفة من  
بنى أمية إذا مات وقام آخر زاد في أرزاقهم وعطاياهم عشرة دراهم فيقولون : ( عَزْرُ  
بَعِيرٍ <sup>(١)</sup> وَزِيَادَةُ عَشْرَةٍ ) أى رجل برجل وزيادة عشرة . فسار هذا القول مسير  
الأمثال عند أهل الشام . وكان يزيد يهتم باللهو واللذة والركوب للصيد وشرب  
النبيذ ومنادمة الفساق ، وأفسد على نفسه بنى عميه ولد هشام وولد الوليد ابني  
عبد الملك بن مروان . وأفسد على نفسه اليمانية وهم أعظم جند الشام . ولعل هذه  
الغلطات الادارية جسمت ما اتهم به ، فكانت حجة للخوارج عند العوام حتى  
أوردوه موارد الهلكة . وقال خالد بن يزيد : يا أمير المؤمنين قتلت ابن عمك لاقامة  
كتاب الله تعالى وعمالك يفسمون ويظلمون . قال : لا أجد أعواناً غيرهم وإني  
لأبغضهم . قال : يا أمير المؤمنين ول أهل البيوتات وضم إلى كل عامل رجلا من  
أهل الخير والعفة ، يأخذونهم بما في عهدك . قال : أفعل .  
وأمر الوليد بن يزيد بعض رجاله بتعذيب بعض العمال لأنه كان رفع إليه أنهم  
أخذوا مالا كثيراً <sup>(٢)</sup> ولما قتل الوليد ( ١٢٦ ) كان في بيت المال سبعة وسبعون  
ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها ، وتعهد للناس أن لا يضع حجراً فوق  
حجر ولا لبنه على لبنه ولا يكرى نهراً ولا يكثر مالاً ولا ينقل مالاً من بلد إلى بلد  
حتى يسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقله إلى البلد الآخر الذي  
يليه ، ولا يعلق بابه دونهم ولم أعطيائهم في كل سنة وأرزاقهم كل شهر حتى  
يكون أقصاهم كأدناهم . أما مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فقد كان شيخ بنى  
أمية وكبيرهم <sup>(٣)</sup> « ذا أدب كامل ورأى فاضل » وهو أحزم بنى مروان وأنجدهم <sup>(٤)</sup>  
وأبلغهم ، ولكنه ولى الخلافة والأمر مدبر عنهم .

(١) العير السيد والملك (٢) تاريخ الطبرى (٣) الأخبار الطوال لآبى حنيفة الدينورى

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه

هذا ما كان من إدارة دولة امتد حكمها مسافة (١) مائتي يوم من المشرق إلى المغرب تقرأ آي القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة . ويتلاقى الهندي مع السوداني في مكة للحج . وكلاهما يدين لبني أمية ، وفي أيامهم ظهرت على الممالك قدرة وغنى ، وكانت كفة الدولة نافذة في ثلاثة أقسام من الأرض : آسيا وإفريقية وأوربا . ملكوا من برارى جبل الطور إلى قفاز ما وراء النهر ، ومن وادي كشمير إلى منحدر جبل طوروس على البحر للتوسط وأطراف الأناضول وسائر مملكة الأ كسرة وما عجز عنه الأ كسرة ، وأخذت الجزية التي قررها عمر بن الخطاب من النوبة كما أخذت من الهند والصين على ما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلى . وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق ، حتى صارت دمشق في نظر المسلمين كأنما هي رومية في نظر المسيحيين ، وانتشرت حضارة الاسلام (٢) في نصف قرن تقريباً من سواحل البحر الاطلنطى إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها إلى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت في حوزة الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية « العرب والسريان والكلدان » ومن السلالة الحامية « المصريين والنوبيون والبربر والسودان » ومن السلالة الآرية « الفرس واليونان والاسبان والأهانداهى الهنود » ومن السلالة المسماة بالتورانية « الترك والتتار »

كل هذا وما كان جميع الناس راضين عن إدارة الأمويين ولا سيما خصومهم السياسيون . ومتى كان الخصم ينصف خصمه . وإليك مثلاً من ذلك صدر عن أحد نساك الاباضية وخطبائهم وهو أبو حمزة يحيى بن مختار الخارجى ، خطب في مكة ووصف سيرة الخلفاء الراشدين ثم قال في بنى أمية : وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون بالفريضة من غير موضعها ، ويضعونها

(١) حجة الاسلام لمصطفى نجيب (٢) الحضارة الاسلامية لأحمد زكي

في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف فقال : ( إنما الصدقات  
للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل  
الله وابن السبيل ) فأقبل صنف تاسع منها فأخذ كلها ، تلكم الفرقة الحاكمة بغير  
ما أنزل الله اه والله أعلم بمقدار ما في هذا الخطاب — على جلالة قدر صاحبه — من  
الخطأ والخطل . وفي حديث عليّ : وأما إخواننا بنو أمية فقادة ذادة ، والنادة جمع  
ذائد وهو الحامي الدافع ، قيل أراد أنهم يذودون عن الحرم<sup>(١)</sup> . ولكن غضب  
العربي في رأسه فاذا غضب لم يهدأ حتى يخرج به لسانه أو يده كما قال ابن عياش .  
لا جرم أن إدارة الأمويين لم تكن في كل أيام خلفائهم بريئة من العيوب ،  
ولم تضعف في الحقيقة إلا في أيام يزيد بن الوليد ، وكان على غير طريقة أسلافه في  
أعماله . وكان آخرهم مروان بن محمد على عظم همته وشدة بأسه مشغولاً بالدفع عن  
الخليفة وكثرت الفتوق فضعفت إدارة المملكة . كانت حكومتهم عربية صرفة  
يتولها أهل البيوتات والأشراف على الأكثر . وقيل إن من أوكد الأسباب في  
زوال سلطان بني أمية استتار الأخبار عنهم وإغضاب قواد الدولة ، وانقسام البيت  
الأموي على نفسه بسبب ولاية العهد . ثم كان تأخير العطاء عن الجند فظاهروا  
غيرهم من العباسيين ولم يقاتلوا بإخلاص للخليفة كما كانوا من قبل . وساعد التوسع  
في الفتوح على عهد هشام على اختلال نظام الدولة فاتسعت دائرة ملكهم الى ما لم  
تبلغه دولة الرومات . ثم إن انقسام العرب في خراسان إلى مضرية ويمانية وتنازع  
رؤسائهم على الولاية كان من الأسباب المسهلة لقيام الدعوة العباسية في خراسان  
نفسها ، ولم يغن عن الأمويين من قتل من دعاة العباسيين الذين عملوا لدولتهم في  
أرض أعدائهم وتحت سمع عمالهم وبصرهم .

(١) النهاية لابن الأثير

## أدارة العباسيين

### تراير السفاص والمنصور

اختار محمد بن على بن عبد الله بن العباس - يوم قام يدعو آل العباس ويحاول انتزاع الملك من الأمويين - بلاد خراسان ميداناً لإظهار دعوته لأنه كان جازماً بكل الجزم ، أن أهل الشام والجزيرة والعراق والحجاز لم يكن هوامم مع آل العباس . بل كانوا متشبعين بالروح الأموي يعلنون في سرهم وجهرهم ولاء بني مروان ، وأن في أهل خراسان « العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدم عليها الفساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى ونوارب وأصوات هائلة ، ولغات نخمة تخرج من أجواف<sup>(١)</sup> منكرة » وليس فيهم التحزب للقبيلة<sup>(٢)</sup> والعصبية للعشيرة ، وهم مظلومون يؤملون الدول ولم يكونوا على العهد الأموي محل الرعاية ، وأقسام الأمويون عن الحكومة وجلبوا لهم العمال من الأحزاب العربية . وأن أهل خراسان لم يزالوا في أكثر ملك العجم لقاها<sup>(٣)</sup> لا يؤدون إلى أحد إتاوة ولا خراجاً<sup>(٤)</sup> ، فلما كان الاسلام صالحوا عن بلادهم فخف خراجهم ولم تسفك بينهم الدماء .

وأخذ الدعوة يدعوون إلى الرضا من آل محمد ، ومن مرو الشاهجان ظهرت دولة بني العباس في سنة ١٢٧ وفي دار شخص منها يعرف بأبي النجم المعيطى صبع أول سواد لبسته للسودة . وفي شهر رمضان سنة ١٢٩ نشر العلم الأسود على

(١) معجم البلدان لياقوت (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣) الحى اللقاح والقوم اللقاح الذين لا يدينون للولك أو لم يصهم في الجمالية سباً (٤) كتاب العرب أو الرد على الشعوبية لابن قتيبة (٥) الفخرى لابن المقفلق

خراسان ، وكان الخراج يجبي لابراهيم الامام وهو في الشام والحجاز . ولا مال لديه ولا نسب . ومروان بن محمد الجعدي الخليفة الأموي المبايع ومعه الجند والسلاح والمال والدنيا جميعها عنده ينتثر ملكه عقدة عقدة . وقلما سمع أهل بلد يجيش خراسان إلا سودوا أي لبسوا السواد شعاع بن العباس قبل أن يوافيهم ، ونزعوا البياض شعاع الأمويين المبيضين . وجيش خراسان أي الجيش العباسي على قلته يغلب وجيوش الأمويين على كثيرتها تتوالى هزائمها . ويكتب كاتب مروان عبد الحميد بن يحيى كتاباً إلى أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة باسم مروان ويضمنه ما لو قرى . لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم ، وكان من كبر حجمه يحمل على حمل<sup>(١)</sup> ، فلا يرضى أبو مسلم أن يقرأ الكتاب ويجعله طعاماً للنار . ومن الخزم أن لا يسمع وعداً ولا وعيداً ما دام قد دبر أمره تديين من طب لمن حب<sup>(٢)</sup> . وكان الامام يوصي جماعته أن لا يتجاوزوا الفرات . ومن حسن طالع الجيش الفاتح أنه اجتاز الفرات في مده ، فهلك القائد وانتصر جيشه . فلما بلغ مروان الجعدي ذلك قال : هذا والله الإدبار والافن سمع بميت يهزم حياً !

داول أبو العباس السفاح بين الكوفة والأنبار والحيرة والهاشمية من المدن ، فكان يتنقل فيها ، ولم يجعل له عاصمة مستقرة . واتخذ له وزيراً أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان وسلمه الدواوين ، وكان يسمى وزير آل محمد . وأصبحت الوزارة في الدولة العباسية مقررة القواعد والقوانين ، وما كانت تعهد في الدولة الأموية ، وكان من يستشيرهم الأمويون يسمون كتاباً ومشيرين على الأغلب ، ويسمى وزيراً من باب التجوز لا على مثال بني العباس . استوزر السفاح خالد بن برمك بعد أن قتل أبا سلمة الخلال ، فجعل خالد له دفاتر في الدواوين من الجلود وكتب فيها

(١) شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (٢) يقال فلان طب بكذا أي عالم به وفي الحكم : وسمعت الكلابي يقول إعمل في هذا عمل من طب لمن حب . وعن الأحمر من أمثالهم في التوق في الحاجة وتحسنا أصنعه صنعة من طب لمن حب أي صنعة حاذق لمن يحبه ( التاج )

وترك الدروج . وكانت كتابة الدواوين في صدر الاسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفاً مدرجة . دام ذلك مدة بنى أمية . ولما تصرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك في الأمور أيام الرشيد اتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعد<sup>(١)</sup> .

عهد السفاح بإدارة البلاد الى رجال من آل بيته يستأصلون قواد الأمويين وجماعاتهم ، لا تأخذهم بهم رأفة ولا هوادة ، ويقتلون حتى من استأمنوا ، ويبحثون عنهم حتى في أقصى حدود المملكة ، ليجتثوا أصولهم ، فانتقموا لمن قتله الأمويون على نسبة عظيمة جداً ، أخذوا ثأرهم من أحيائهم بالقتل ، ومن أمواتهم بإحراق جثثهم وتعفية آثارهم ، وما ارتكبوه في دمشق من نسف قبور خلفاء الأمويين والقضاء على كل أثر لهم كان سيئة وأى سيئة .

ولم يتفرغ أبو العباس السفاح لوضع أساس ثابت للإدارة لإنصرافه جملة واحدة الى توطيد دعائم الفتح وقتال الخوارج عليه ، وسار في الجملة على نظام الأمويين ، وكان أخوه أبو جعفر يتولى لأخيه كل أمر عظيم ، وكانت العراق على حظ وافر من ترتيب دواوينها وانتظام شؤون إدارتها على العهد الأموي بفضل من وليها من أكبر رجال الإدارة والسياسة من بنى أمية . وكذلك الحال في معظم الأقطار تبدلت دولة بدولة وخليفة بخليفة ، ونسج الآخر على منوال الأول اضطراراً واختياراً ، وقل أن خالفه في ترتيبه ونظمه . وخطب السفاح قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً ، فضج الناس وقالوا : أحييت السنة يا ابن عم رسول الله . وكان السفاح جميل العشرة جواداً بالمال ويحب مسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلاً ، فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل الى امرأة وجارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ويرى نقصاً . فقال له الهذلي : لذلك فضلكم

(١) مروج الذهب للسعودي

الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين . ومن أئمن ما وصل إلى أبي العباس من ميراث بنى أمية بركة الرسول وقضيبه . وكان مروان<sup>(١)</sup> بن محمد حين أحيط به في مصر دفعهما إلى خادم له وأمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال . فلما أخذ الخادم في الأسرى قال : إن قتلتموني ضاع ميراث النبي ، فأمنوه على أن يسلم لهم ذلك . وكان للبردة والقضيب شأن وأى شأن عند جميع الخلفاء من بعده .

ولى المنصور الخلافة وكان أسن من أخيه أبي العباس السفاح ، ودبر للملكة في أيامه تدبيراً حسناً . أفضى إليه الملك وهو حنيك<sup>(٢)</sup> كما قال عن نفسه ، قد حلب هذا الدهر أشطره<sup>(٣)</sup> ، وزاحم المشاة في الأسواق ، وشاهدتم في المواسم . وغازم في المعازي قال : فوالله ما أحب أن أزداد بهم خبراً على أنى أحب أن أعلم ما أحدثوا بعدى ، مذ تواريت عنهم بهذه الجدارات ، وتشاغلتم عنهم بأموارهم ، مع أنى والله ما لمت نفسي أن أكون قد أذكيت عليهم العيون حتى أتتني أخبارهم وهم في منازلهم . والواقع أن أبا جعفر المنصور في تأسيسه دولة بنى العباس كعاقبة في تأسيس دولة بنى أمية ، مع اعتبار الفرق بين عصريهما ، والسر الأعظم في نجاحهما أنهما مرنا على الإدارة قبل أن توسد الخلافة اليهما .

ولى المنصور أهله البلدان وفرق العائلات بين قواد من العرب وقواد من مواليه . فكان ينقل قواد العرب في أعماله لثقتهم واعتمادهم عليهم ، ثم استعمل مواليه وغلمانهم في أعماله ، وصرّتهم في مهاتمه ، وقدمهم على العرب ، فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٢) الحنيك والمحنك والمحنك والمحتنك والحنك

هو المحرب البصير بالأمر (٣) يقال الرجل المحرب للامور فلان قد حلب الدهر أشطره أى قد قاسى الشدائد والرغاب وتصرف في الفقر والغنى وأشطره خلوفه أو أخلاف من أخلاف الناقة . وحلب فلان الدهر أشطره أى مر به خيره وشره

مراتبها . فهو الذى « أصل<sup>(١)</sup> الدولة ، وضبط للملكة ، ورتب القواعد ، وأقام  
الناموس ، واخترع أشياء ، ولم تكن الوزارة فى أيامه طائفة لاستبداده واستغنائه  
برأيه وكفاءته ، على أنه كان يشاور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيئته تصغر لها  
هيبة الوزراء » واجتمع له كثير من الخيل لم يعرف مثله فى جاهلية ولا إسلام ،  
واستجاد الكساء والفرش وعدد الحرب ومؤنها ، واصطنع الرجال وقوى الثغور .  
ولقب بأبى الدوانيق لتشدده فى محاسبة العمال والكتاب . وجماع سياسته المالية  
أن يدخر المال قائلاً : « من قلّ ماله قلّ رجاله ، ومن قلّ رجاله قوى عليه عدوه ،  
ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه ، ومن اتضع ملكه استبيح حماه » وذكر أنه أخذ  
أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلاً<sup>(٢)</sup> . وكان يعطى الجزيل والخطير<sup>(٣)</sup>  
إذا رأى فى العطاء فائدة ، ويمنع البير والخطير إذا كان عطاؤه تضييعاً ، فكان  
كما قال زياد لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب لقمته عليه قيام من  
لا يملك غيره . ومن أجل هذا كان يشر ماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق  
صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الخطب والتوابل .  
وعند محمد بن عبد الله لما خرج عليه إذا رجع إلى طاعته من قبل أن يقدر عليه  
أن يعطيه ألف ألف درهم ، ويؤمنه على نفسه وولده وإخوته ، ومن بايعه وتابعه  
وشايعه ، ويطلق من فى سجنه من أهل بيته وأنصاره ، لأنه آثر أن يحقن الدماء  
ويعطى هذا العطاء على أن يبعث البعوث وينفق الأموال . وأنفق ثلاثة وستين  
ألف ألف درهم على جيش واحد كان مؤلفاً من خمسين ألفاً وجهه إلى إفريقية لقتال  
الخوراج ، بمعنى أن أبا جعفر كان الحزم كله فى تدبير ملكه ، والحزم كله فى جمع  
المال للشدائد والإتفاق منه عند الحاجة لقيام الدولة ، ويذكرون له فى باب الامساك  
أخباراً كثيرة .

(١) الفخرى لابن الطقطقى (٢) تاريخ اليعقوبى (٣) مروج الذهب للسمودى

يقول المسعودي إن المنصور<sup>(١)</sup> كان في الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وهو أول من رتب المراتب من الخلفاء<sup>(٢)</sup> وكان لبني أمية بيوت بلا منعة ولا إذن، وإنما كان الناس يقفون على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو يُصرفوا . فلما ولي بنو العباس و بنى المنصور بيته اتخذ في قصره بيوتاً للإذن ، فحجى الأمر على ذلك . وكانت أرزاق السكاتب في أيامه ثلثمائة ثلثمائة ، وكذلك كانت في أيام بني أمية . وكان المنصور متقللاً متشققاً لا يحب البذخ والرفاهية يعكذ كل ما يأكل ويلبس نعمة عظمى بالقياس الى حاله قبل الخلافة . فهو شديد في قتال أعدائه ، شديد في نظامه وترتيبه ، يعرف قيمة الوقت لا يصرفه إلا فيما ينفع الدولة فيعمل في خدمتها ليله ونهاره ، وكان شغله<sup>(٣)</sup> في صدر نهاره بالأمر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ، ومصالحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره ، وهو على انتباه لسكل دقيق وجليل . وكان يقول ما أحوجنى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم ، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، ثم عَض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه . قيل ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

استعمل المنصور في ولاياته وأعماله قليلا من عمال الدولة البائدة وكثيراً من أهل بيته ورجالات العرب وبعض الفرس ، واستوزر ابن عطية الباهلي وهو من صميم العرب كما وزر له أبو أيوب المورياتي الخوزي وهو فارسي ، إلا أنه لا يترك

(١) مروج الذهب للمسعودي . (٢) لطائف المعارف للتحالبي . (٣) تاريخ ابن الأثير

الوزير يعمل برأيه فقط بل ينهى إليه كل ما يعرض له من أمور الدولة قبل البت فيها . وطريقته في حكم الأمصار طريقة اللامركزية ، أى طريقة الأمويين والراشدين من قبل . دعاه إلى اتخاذ هذه الطريقة تباعد ما بين أجزاء المملكة وبعد الشقة في نقل الأخبار على وجه السرعة ، على ما كان في عهده من انتظام البريد وحمام الزاجل تطير في المهمات السريعة . كتب المنصور إلى مسلم بن قتيبة بأمره بهدم دور من خرج مع أحد الخوارج وعقر نخلمهم . فكتب إليه : بأى ذلك تبدأ أبا نخل أم بالدور ؟ فكتب إليه أبو جعفر : « أما بعد فاني لو أمرت بك بإفساد ثمرهم لكتبت إلى تستأذن في آية تبدأ أبا البرني أم بالشهرين <sup>(١)</sup> » وعزله .

لم يفتق على المنصور في ملكه الواسع خرق إلا سده ، لأن جيشه كثير ، وآلته تامة ، وقواده يعرفون منه أن من سياسته أن يقتل على التهمة ، فهم يصدعون بأمره كله ، ولا يخرمون منه مادة واحدة . إحتل الروم طرابلس الشام وظهر في الشام رجل من أهل المنيطرة <sup>(٢)</sup> (١٤٢ - ١٤٣) وسمى نفسه ملكا ، ولبس التاج وأظهر الصليب ، واجتمع أنباط جبل لبنان وغيرهم ، ثم استفحل أمرهم فظهر عليهم الجيش العباسي ، فأمر أمير دمشق بإخراج من بقي في الجبل وتفرقهم في بلاد الشام وكورها ، فكان هذا التدبير الإداري مما انتقده الامام الأوزاعي بشدة ، لأنه إن كان من نصارى لبنان المعتدى على حقوق السلطان ، فإن منهم البريء وليس من الجائز <sup>(٣)</sup> أن يُجلى عن أرضه ويعامل الطائع كالعاصي .

كان المنصور في أكثر أموره وسياسته وتدييره متبعاً في أفعاله لهشام بن عبد الملك لكثرة ما كشفه من أخبار هشام وسيرته ، وكان يقول إنه أى هشام فتى القوم أى رجل بنى أمية . وقال : الملوك ثلاثة معاوية وكفاه حجاجه ، وعبد الملك

(١) البرني تمر أصفر مدور وهو أجود التمر واحده برنية . والشهرين ضرب من التمر في نواحي

البصرة (٢) تاريخ ابن عساكر (٣) فتوح البلدان للبلاذري

وكفاه زياده ، وأنا ولا كافي لى . وكان يقول لأهل بيته : إني لأجهل موضعى حتى أحذر منكم لأنه ما فيكم إلا عم وأخ وابن عم وابن أخ ، فأنا أراعيكم ببصرى وأهتم بكم بنفسى فالله الله فى أنفسكم فصونوا ، وفى أموالكم فاحتفظوا بها ، وإياكم والاسراف فيوشك أن تصيروا من ولد ولدى إلى من لا يعرف الرجل حتى يقول له من أنت .

وكان المنصور آية فى الاسراف على عماله واراقتهم على العدل ، يهددهم بالعقوبات إذا ولآهم ، وأكثروهم يصححون ويناصحون ، ويختار أهل البلاء منهم . ولقد وفد عليه قاضى إفريقية ، وكان رفيقه فى طلب العلم ، فسأله كيف رأيت سلطانى من سلطان بنى أمية ، وكيف مامررت به من أعمالنا حتى وصلت إلينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيت أعمالا سيئة وظلماً فاشياً ، والله يا أمير المؤمنين ما رأيت فى سلطانهم شيئاً من الجور والظلم إلا رأيت فى سلطانك ، وكنت ظننته لبعده البلاد منك ، فجعلت كما دنوت كان الأمر أعظم . فنكس الخليفة رأسه طويلاً ثم رفعه وقال : كيف لى بالرجال ؟ . فقال القاضى : أليس عمر بن عبد العزيز كان يقول ان الوالى بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فان كان برآ أتوه يبرهم ، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم . ووعظ الأوزاعى المنصور فقال له : إن السلطان أربعة : أمير يظلف (١) نفسه وعماله ، فذلك أجر المجاهد فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع وترتع عماله فذلك يحمل ألقاه وألقاه مع ألقاه ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذلك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذلك شر الأكياس .

كان المنصور يقول لابنه : يا أبا عبد الله ليس العاقل الذى يحتال للأمر الذى وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكن الذى يحتال للأمر الذى غشيه حتى لا يقع فيه .

(١) يكلف نفسه

وكتب إليه عامله على إزمينية يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال  
فوقع في كتابه : « إعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت  
لم ينهبوا . » ولقد حدث أن المنصور ولى المدينة رياح بن عثمان فخطب أهلها يهددهم  
ويقول : أنا الأفعى بن الأفعى ، أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة ،  
اللييد خضراءكم المغنى رجالكم ، والله لأدعنها بلقماً لا ينبح فيها كلب . فوثب عليه  
قوم منهم وكلموه وقالوا : والله يا ابن الجلود حدّين لتكفن أو لنكفنك عن أنفسنا .  
فكتب الوالى إلى المنصور يخبره بسوء طاعة أهل المدينة فأرسل المنصور إلى رياح  
رسولاً وكتب معه كتاباً يقول فيه : وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا لبيدلكم  
بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالاً غلاظ الأكباد  
بعاد الأرحام . فلما قرى عليهم نادوه من كل جانب كذبت يا ابن الجلود حدّين ،  
ورموه بالحصى وبادر المقصورة فأغلقها . فدخل عليه أيوب بن سلمة المخزومي فقال :  
أصلح الله الأمير إنما تصنع هذا راع الناس . وقال بعض من حضر من وجوه بنى  
هاشم : لا ترى هذا ، ولكن أرسل إلى وجوه الناس وغيرهم من أهل المدينة فأقرأ  
عليهم كتاب المنصور ، فجمعهم وقرأ عليهم فقالوا : ما أمرتنا فعصيناك ولا دعوتنا  
فخالفناك . وانفض الأمر بسلام .

وعنى المنصور بالعمارة في ملكه يعمر الجسور والقنى والآبار ، ففشت في أيامه  
أعمال العمران ، وحمل المهندسين من الآفاق إلى العراق خصوصاً لبناء مدينة بغداد ،  
واختار المنصور موقعها بنفسه لاحاطتها بدجلة والفرات بحيث يصعب على أكثر  
الجيوش تخطيمها ، ولأن مواد الشام والجزيرة تأتيها بالقرات ، ومواد الموصل وما  
وراءها تحمل إليها في دجلة . وبنى الرصافة لابنه المهدي ليصير ابنه في مدينة ،  
وعسكر بالجانب الشرقى ، ويصير المنصور في مدينة ، وعسكر بالجانب الغربى ،  
فلا يشعب الجند .

وحج المنصور آخر حجة وكان موقناً أنه لا يرجع من حجه ، زاعماً أنه عرف ذلك من المنجمين ، فقال لابنه وأشار إلى سَفَط له فيه دفاتر وعليه قفل لا يفتحه غيره : أنظر إلى هذا السفظ فاحتفظ به ، فان فيه علم آباتك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة . فان حزبك أمر فانظر في الدفتر الكبير فان أصبت فيه ما تريد وإلا ففي الثاني والثالث ، حتى تبلغ سبعة ، فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فانك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة أى بغداد ، وإياك أن تستبدل بها غيرها ، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كفئك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصالحة البعوث فاحتفظ بها ، فانك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً . وأوصى ابنه بأهل بيته وأن يحسن اليهم ويقدمهم ، ويوطىء الناس أعقابهم ، ويوليهم المنابر . وأوصاه بأهل خراسان خيراً لأنهم أنصاره وشيعته الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولته ، وأوصاه أن لا يدخل النساء في أمره ، وأن يعد الكراع والرجال والجند ما استطاع ، وأن يعد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وأن يباشر الأمور بنفسه ، وأن يستعمل حسن الظن ويسىء الظن بعالمه وكتابه ، وأن لا يُبرم أمراً حتى يفكر فيه ، فان فكر العاقل مرآة تريه حسنه وسيئه . وقال له : يا بني لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختياره . وقال له أيضاً : إني تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيراً لا يرجو إلا غناك ، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك ، ومسجوناً لا يرى الفرج إلا منك ، فاذا وليت فأذقهم طعم الرفاهية ، لا تتمد لهم كل اللد .

هذا إجمال ما عمله أبو جعفر المنصور وما أوصى به ابنه لاتمام ما بدأ به من

التراتب . وقد أبت الأيام كتابا لابن المقفع في الصحابة<sup>(١)</sup> أى أصحاب الخليفة ، كتبه إلى أبي جعفر أورد فيه ما يحتاجه الملك من الإصلاح ليسير على قواعد مطردة سليمة من الشوائب ، وأدركنا منه بعض المسائل الادارية التي كانت تشغل الأذهان في ذلك الزمان . بدأه بتذكير الخليفة بجند خراسان فقال : إنهم جند لم يدرك مثلهم في الاسلام وفيهم منعة وهم أهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذلل للولاة ، فرأى أن يكتب لهم أمانا معروفاً بليغاً وحيزاً محيطاً بكل شيء ، بالغاً في الحجة ، قاصراً عن الغلو ، يحفظه رؤسائهم حتى يقودوا به دماءهم . وارتأى أن لا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وان منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم ، فلو التمسوا وصنعوا<sup>(٢)</sup> كانوا عدة وقوة ، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ، ومن دونهم من العامة ، وأن يتعهد أديهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى . وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زى المترفين وشكلهم مثل الذى يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه . قال : ولا يزال يُطَّلَع من أمر أمير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقتته للإتفاف<sup>(٣)</sup> والإسراف وأهلها ، ومحبته القصد والتواضع ومن أخذ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عن يكثره ، بخلا أن ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالة بالنساء وللراتب .

وأشار أن يوقت الخليفة للجند وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له أنهم يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، هذا مع كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذى يخرج لهم ، وأن الجند يحتاجون إلى ما يحتاجون اليه من كثرة الرزق لغلاء السعر . والرأى أن يجعل بعض أرزاقهم طعاماً وبعضه علفاً يعطونه

(١) رسائل البلغاء نشرها المؤلف (٢) - أحسن اليهم (٣) - أترف الرجل أعطاه شهوته

بأعيانه . ورأى أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبار هذا الجند وحمالاتهم<sup>(١)</sup> وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف ، وأن يحتقر في ذلك النفقة ، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النضاح « فان ترك ذلك وأشباهه أحرز بتاركة من الاستعانة فيه بغير الثقة فيصير جنة للجهالة والكذب » ووصى بأهل المصرين الكوفة والبصرة قائلاً إنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعة الخليفة ومعينيه ، وأن في أهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه . وأزاده على أن يكتفي بهم ، وأنه ما أزرى بأهل العراق إلا أن من وتلوا العراق كانوا أشرار الولاة ، وأعوانهم من أهل أمصارهم كذلك « فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول<sup>(٢)</sup> وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعموه عليهم ، ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم أو وجدوه بسبيل شيء من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حينما وقعوا من صحابة خليفة أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يقصدوا حتى يلتمسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا أو ينتفع بهم » « فنزلت الرجال عن منازلها لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أشد تضرعاً ، وأحلى السنة ، وأرفق تطفلاً للوزراء أو تمحلاً لأن يشئ عليهم من وراء وراء » . ثم ذكره بإصلاح القضاء وما يصدر عن القضاة من الأحكام المتناقضة ورجا أن يوجد القضاء ويوضع للقضاة كتاب يرجعون إليه .

وتعرض لأهل الشام وذكره أنهم أشد الناس مؤنة وأخوفهم عداوة وباتقة ،

(١) الخالة كحابة الدبة والغرامة التي يحملها قوم عن قوم (٢) الفصل من الرجال الرذل الذي

لا مروية له ج أفضل وفسول

فمن رأى أن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى ، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم ، ولا يعامل أهل الشام كما عاملوا أهل العراق من جعل فيهم إلى غيرهم ، وتنحيتهم عن المنابر والمجالس والأعمال ، كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والمواضع ، ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يصنعه أمراؤهم للعامة . « ورجاه أن يأخذ منهم أهل القوة والغناء وخفة المؤنة والعفة في الطاعة ، ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة . وقال بهذا المعنى في إقامة العذر لأهل الشام على نزواتهم ، وأنه لم يخرج للملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويجهم .

وذكره بأصحابه « الذين هم بها فنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، والأعوان على رأيه ، ومواضع كرامته ، والخاصة من عامته » وأبان أنها مراتب طمع فيها الأوغاد « ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور في أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعاً يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجرى على كثير من بني هاشم وغيره من سروات قریش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ، ولا فقه في دين ، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه في شيء من الأشياء ، ولا عدة يستعد بها ، وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء . » ثم ذكره بأمر فتیان أهل بيته وبني أبيه وبني عليّ وبني العباس

ووصفهم بأن فيهم رجالا لو تمتعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوها وكانوا  
عدة لأخرى .

ومن أهم ما ذكره به أمر الأرضين والخراج . قال : فليس للعمال أمر ينتهون  
إليه ولا يحاسبون عليه ، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأقنون  
لها في العارة ، ويرجون لها فضل ما تعمل أيديهم ، فبيرة العمال فيهم إحدى ثنتين .  
إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتبع الرجال والرساتيق بالمغالة ممن  
وَجَد . وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيعمر من  
يعمر ويسلم من أخرب . وأزاده على أن يعمل رأيه « في التوظيف على الرساتيق  
والقرى والأرضين وظائف معلومة ، وتدوين الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول  
حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له  
فضلها ونفعها » ليكون في ذلك صلاح للرعية ، وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة  
وغشم العمال . قال : « وهذا رأى مؤنثه شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر ،  
وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ولم نره من  
أحد قبله ، من تخيير العمال وتفقدهم » .

ثم ذكره بجزيرة العرب وأن يختار لولايتها الخیار من أهل بيته وغيرهم ، لأن  
ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق أمير المؤمنين وأكرمه  
بها من الرأى الذى هو بإذن الله حمى ونظام لهذه الأمور كلها فى الأمصار والأجناد  
والثغور والسكرور . ومما قاله فى خاتمة كتابه : « إن بالناس من الاستخراج (١)  
والفساد ما قد علم أمير المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم  
ما هو أشد من حاجتهم إلى أقواتهم التى يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو  
تفر فقرأ إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون ،

(١) الاستخراج والاختراج الاستنباط

يذكرون ويصرون الخطأ، ويعطون عن الجهل، ويمنعون عن البدع، ويحذرون  
الفتن، ويتفقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم،  
ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأى والرفق والنصح،  
ويرفعون ما أعيامهم إلى ما يرجون قوته عليهم، مأمونين على سير ذلك وتحصينه،  
بصراء بالرأى حين يبدو، وأطباء باستئصاله قبل أن يتمكن، وفي كل قوم خواص  
رجال عندهم على هذا معونة إذا صنعوا لذلك وتلطف لهم، وأعينوا على رأيهم،  
وقوا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويسطه لهم. وخطر هذا جسيم في  
أمرين أحدهما برجوع أهل الفساد إلى الصلاح، وأهل الفرقة إلى الألفة، والأمر  
الآخر أن لا يتحرك متحرك في أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه، ولا  
يهمس هامس إلا وأذن شفيقة تصيح نحوه» قال: «وقد علمنا علماء لا يخالطه  
الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها،  
وأن خاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها»  
«فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون إليهم ويسمعون  
منهم، اهتمت خواصهم بأمر عوامهم وأقبلوا عليه بجد ونصح ومثابرة وقوة، جعل  
الله ذلك صلاحاً لجماعتهم، وسبباً لاصلاح الصلاح من خواصهم، وزيادة فيما أنعم  
الله به عليهم، وبلاغاً إلى الخير كله، وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم  
الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك».

هذه زبدة تقرير ابن المقفع للمنصور وفيه صورة جميلة مما محتاجه إدارة البلاد  
من الإصلاح، وما يجب القيام به لاصلاح الجند والرفق بأهل الكوفة والبصرة،  
والعناية بأهل العراق والمطف على الحجاز واليمن واليمامة واختيار العمال الكفاة  
والرجوع إلى أهل الرأى، واصطناع أرباب العقل من أهل الشام وإشارة إلى أن  
بعضهم بنى العباس من الأمور الطبيعية لأن الملك كان فيهم فانتقل إلى غيرهم،

وعرفه الطرق الى استصلاح العامة واختيار الخاصة من الأصحاب والموالين الى غير ذلك من الأمور التي يمكن تطبيقها لعمران البلاد ورفع الحيف عن الخلق ، والانتفاع بالقوى المفيدة للريعية وأرضهم . ومن أهم ما وقفنا عليه هذا التقرير أن الأمة لم تعدم في إبان مجدها رجالاً يدلونها على مواطن الضعف من سلطانها ، ومعالجة الإصلاح بالعقل حتى يبلغ كماله ، والأخذ في كل أمر من أمور الدولة بالحزم النافع والمصلحة الشاملة .

### إدارة المهدي والرهادي والرشيدي .

سار المهدي بالخلافة على الخطة التي اختطها له أبوه ، ينظر في الدقائق من الأمور ، ويظهر أبهة الوزارة ، لسكفاء وزيره أبي عبيد الله بن معاوية بن يسار ، فإنه جمع له حاصل المملكة ورتب له الديوان<sup>(١)</sup> وقرر القواعد « وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حدقاً وعلماً وخبرة » اخترع أموراً منها أنه نقل الخراج الى المقاسمة . وكان السلطان يأخذ عن الفلات خراجاً مقررراً ولا يقاسم ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وضبطت الأمور في أيامه ضبطاً محكماً . وكان من جملة حظ المهدي أن يكون له وزراء من هذا الطراز العالي ، وهو يعتمد عليهم ويضع ثقته برجال دولته ، واستوزر أيضاً يعقوب بن داود فخرج كتاب المهدي الى الديوان أن أمير المؤمنين آخى يعقوب بن داود ، فلم يكن ينفذ شيء من كتب المهدي حتى يرد كتاب الوزير يعقوب معه الى أمينه بانفاذه . أي أن الخليفة ووزيره كانا يراقب أحدهما عمل صاحبه لتقرير ما تلزم به المصلحة قبل إمضائه . ووضع المهدي ديوان الأزممة ولم يكن لبني أمية ذلك . ومعنى ديوان الأزممة أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه . وقد كانت الدواوين قبل ذلك

(١) الفخري لابن الطقطقي

مختلطة<sup>(١)</sup> . والسبب في وضع ديوان الأزمة أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمة ، وولى على كل ديوان رجلاً . وأنشأوا ديواناً سموه ديوان النظر أى المكاتبات والمراجعات تسهيلاً على أرباب المصالح . والديوان يقسم أربعة أقسام<sup>(٢)</sup> : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال ينظر في الدخل والخرج .

والمهدي أول من جلس للعظام من بني العباس ، يقيم العدل بين المتظالمين ، ومشى على إثره الهادي والرشيد والمأمون . وكان المهدي آخر من جلس للنظر فيها . وبسط المهدي يده في العطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف دينار . وأجرى المهدي على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق ، وأمر باقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن وبغداد ببغال وإبل . ولم يكن هناك بريد قبل ذلك ولا في قطر من الأقطار . وكان وزيره « يرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة من أمور الثغور والولايات وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العزاب وفكك الأسرى والمحبتين والقضاء على الفارمين والصدقة على المتعفين » واشتد المهدي على الزنادقة وقتل في جملة من قتل ابن وزيره أبي عبد الله بن معاوية فاستوحش كل منهما من صاحبه فاعتزل الوزير الخديمة .

قال رجل للمهدي عندي نصيحة يا أمير المؤمنين فقال : لمن نصيحتك هذه لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك؟ . قال : لك يا أمير المؤمنين . قال : ليس الساعي بأعظم عورة ولا أقبح حالاً ممن قبل سعائته ، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا تشفي غيظك أو عدواً فلا تعاقب لك عدوك . ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لنا

(١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردى (٢) الأحكام السلطانية للواددي

ناصرح إلا بما فيه رضى لله وللمسلمين صلاح ، فانما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ،  
ومن استتر عنا لم نكشفه ، ومن بادانا طلبنا توبته ، ومن أخطأ أقلنا عثرته ، فاني  
أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع العاجلة ،  
والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا  
ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم . وهذا أرقى الأدب في استمالة القلوب وحسن سياسة  
الناس ، ومن وفق إلى تطبيق هذه القواعد على أمته لا يحتاج إلى سلاح يخيفهم  
ولا إلى جند يضبطهم .

وأفضت الخلافة إلى الهادى ، والدواوين مدونة مرتبة ، فن ديوان الخراج ،  
إلى ديوان الضياع ، إلى ديوان الزمام ، إلى ديوان التوقيع والتتبع على العمال ، إلى  
ديوان النظر أى المكاتبات والمراجعات ، إلى ديوان الرسائل ، إلى ديوان البريد  
والخرايط ، إلى غير ذلك من الدواوين . ومن أهم ما عمله الهادى فى عهده القصير  
أن منع أمه الخيزران من التدخل فى أمور السلطان لقضاء حوائج الناس <sup>(١)</sup> .  
وحلف أن يضرب عنق كل من يقف على بابها من قواده وخاصته وخدمه قائلاً لها :  
أمالك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن  
تفتحي فاك فى حاجة لى أو ذمى ، فعملت والدته بما رسم لها ابنها . وكانت فى أول  
خلافة الهادى تفتت <sup>(٢)</sup> عليه فى اموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد  
بالأمر <sup>(٣)</sup> والنهى . أما ابنها فكان من رأيه أنه « ليس من قدر النساء الاعتراض  
فى أمر الملك » وقال : « ما للنساء والكلام فى أمر الرجال » ولما كان فى آخر  
أيامه من الدنيا استدعاها وقال لها : قد كنت نهيتك عن أشياء وأمرتك بأخرى  
على ما أوجبه سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك . ولم أكن عاقاً بل كنت  
لك صائناً وبراً واصلاً ، ثم قضى نحبه قابضاً على يدها واضعاً لها على صدره .

(١) مروج الذهب للسعودى (٢) تاريخ الطبرى (٣) مروج الذهب للسعودى

وبإبعاد الهادي النساء عن الوساطات والشفاعات عمل بوصية جده المنصور لابنه للمهدي ، وجعل أمور الدولة تسير في قواعدها المرعية على ما تقضى به أحكام الشرع والعقل ، وبراہ الوزراء والأمراء والقضاة . وكان الهادي جباراً عظيماً وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المزهفة ، والأعمدة المشهورة ، والقسي المتوترة ، فسلكت عماله طريقته ، ويمموا منهجه ، وكثر السلاح في عصره .

سار الرشيد في إدارته على نهج قويم ، وأعاد إلى الخلافة رونقها الذي كان لها على عهد جده المنصور ، وما كان بالمسرف ولا بالمبخل ، وسمى الناس أيامه « أيام العروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . وكانت دولته <sup>(١)</sup> « من أحسن الدول وأكثرها قاراً ورتقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملوكة : جى الرشيد معظم الدنيا وكان أحد عماله صاحب مصر » وقلد وزارته يحيى بن خالد وقال له : « قد قلدتك أمر الدولة وأخرجتته من عنق اليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » ودفع إليه خاتم الخلافة . أما الولايات فقد فوضها لأمرأ جعل لهم الولاية على جميع أهلها ينظرون <sup>(٢)</sup> في تدبير الجيوش والأحكام ويقلدون القضاة والحكام ، ويجبون الخراج ويقبضون الصدقات ، ويقلدون العمال فيها ، ويحسون الدين ويقيمون حدوده ، ويؤمنون في الجمع والجماعات أو يستخلفون عليها ، ويسرون الحج من أعمالهم فإن كانت أقاليمهم ثغراً متاخماً للعدو تولوا جهاده .

وما قسمت أعمال الدولة منذ انتقالها إلى بني العباس تقسيمها في زمن الرشيد ، ولذلك كان للخليفة وقت ليحج ووقت ليفزو ، ووقت ليصطاف ويرتبع في الرقة ، ويترك قصر الخلد في بغداد . ولقد كان الروم من جيوش الرشيد في بلية فما غزتهم مرة إلا وحالفها التوفيق ، وبعث صاحب الروم جزية رأسه وبطارقته ، وجرى

(١) الفخرى لابن الطقطقي : (٢) الأحكام السلطانية للناوردي

الفداء بين الروم والعرب حتى لم يبق من المسلمين أسير واحد بأيدي الروم ، وما  
اشتعلت فتنة في أرجاء مملكته إلا أطفأها ، ومنها فتنة النزارية واليمانية في الشام  
أى قيس و يمن عادوا إلى ما كانوا عليه فقتل منهم بشر كثير ، فأرسل عليهم ابراهيم  
ابن محمد المهدي والياً ففكر أن يعمد إلى طرق إدارية لقطع شأفة هذه العائلة ،  
فرأى أن يلهمهم بقشور ، ويتقرب من قلوبهم بما يستميلها ولا يصدعها ، فاز في  
استقبالهم على قانون من « التشريعات » أو « البروتوكول » أراضهم به وما تكلف  
شيئاً ، فقد أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين ، وأمره بتسمية أسرهم ، وأن يقدم  
من كل حي الأفضل فالأفضل منهم ، فأمر بتصيير أعلام الناس من الجانب الأيمن  
مضرباً وعن شماله يمانياً ، ومن دون اليماني مضربى ومن دون للمضربى يمانى ، حتى  
لا يلتصق مضربى بمضربى ولا يمانى بيماني ، فلما قدم الطعام قال قبل أن يطعم شيئاً :  
« إن الله عز وجل جعل قريشاً موازين بين العرب ، فجعل مضر عموماً ، وجعل  
يمن خولتها ، وافترض عليها حب العمومة والخولة ، فليس يتعصب قرشي إلا للجهل  
بالمفترض عليه » ثم قال : يا « معشر مضر كآني بكم وقد قلتم إذا خرجتم لإخوانكم  
من يمن قد قدم أميرنا مضر على يمن ، وكآني بكم يا يمن قد قلتم وكيف قدمكم  
علينا ، وقد جعل بجانب اليماني مضرباً وبجانب للمضربى يمانياً فقلت يا معشر مضر  
إن الجانب الأيمن أعلام من الجانب الأيسر ، وقد جعلت الأيمن لمضر والأيسر ليمن ،  
وهذا دليل على تقدمته إيانا عليكم ، ألا أن مجلسك يا رئيس المضربية في غد من  
الجانب الأيسر ، ومجلسك يا رئيس اليمانية في غد من الجانب الأيمن . وهذان  
الجانبان يتناوبان بينكما ، يكون كل من كان في جهته متحولاً عنه في غده إلى  
الجانب الآخر ، فانصرف القوم كلهم حامداً . » وبمثل هذه القوانين الإدارية رجع  
السلام إلى الشام ست سنين ، واستراحت من العصبية الجاهلية وبأو<sup>(١)</sup> القبلية .

قال الجاحظ<sup>(١)</sup>: حدثني ابراهيم بن السندی قال لما كان أبي بالشام والياً أحب أن يسوى بين القحطاني والعدناني وقال : لسنا نقدمكم إلا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء ، وكلكم إخوة ، وليس للتراري شيء ، وليس لليامى مثله قال : وكان يتعدى مع جيلة من جيلة الفريقين ، ويسوى بينهم في الإذن والمجلس .

ومن عمال الرشيد من أبدع طرقاً جديدة في الادارة ، ولي عمر بن مهران مصر فقال هذا لغلامه : لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل في الجراب . لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً . فجعل الناس يبعثون بهداياهم فجعل يرد ما كان من الألفاظ<sup>(٢)</sup> ويقبل المال والثياب ، ويوقع عليها أسماء من بعث بها ، ثم وضع الجباية . وكان بمصر قوم قد اعتادوا المثل وكسر الخراج ، فاستأدى من الخراج النجم الأول والنجم الثاني ، فلما كان في النجم الثالث وقعت المطالبة والمطل فأحضر أهل الخراج والتجار فطالبهم فدافعوه وشكوا الضيقة ، فأمر باحضار تلك الهدايا التي بعث بها إليه ونظر في الأكياس وأحضر الجهبذ<sup>(٣)</sup> فوزن ما فيها وأجزى أثمانها عن أهلها ثم قال : يا قوم حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم اليها ، فأدوا اليها ما لنا . فأدوا إليه حتى أغلق مال مصر ، فانصرف ولا يعلم أنه أغلق مال مصر غيره<sup>(٤)</sup> .

ولقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الاتباه لكل مادق وجل من شؤون الملك « ومن أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً » يصطنع الرجال ويحلم عن مساويهم ، تغتفر من رجاله ، ويسعى في عمران البلاد ويكف الأذى عن الرعية ، ويأخذ بأيدي العلماء والباحثين ويجمع اليهم ويأنس بهم . ولما رأى أن ملكه في خطر محقق من نفوذ آل برمك ووزرائه وخاصته لانصراف الوجوه اليهم لكثرة ما أحسنوا إلى الناس ولا إجماع القاصي والداني على

(١) الحيوان للجاحظ (٢) الألفاظ الهدايا وأحدها لطف وألفه بكذا اتخفه به وبره وتكون في الغالب من المأكول والمشروب والمشموم (٣) الصراف أو قايض المال (٤) تاريخ الطبري

حجهم حتى ساموا الخليفة أو أربوا عليه في المكناة ، أمر بالقبض عليهم ومصادرتهم وقتلهم وما أراد أن يبوح بسر ما أتاه ، فرجم القوم الظنون به ، وذلك لأنه خافهم على ملكه ، وهم فرس لم قديم يمتون إليه من الإمارة ، والفرس يحاولون منذ القرن الأول أن يعيدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجوه عن صبغته العربية . ونشأت من قتلهم قصة طويلة سداها ولحمتها البالغة ، بل الاختلاق ، شغل الرشيد بها الناس عن نفسه وعن سياسة بلاده .

ووضع الرشيد عن أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف ، وترك بعض أهل الضياع في فلسطين أرضهم فوجه اليهم أحد كبار قواده فدعا قوماً من أكرتها ومزارعيها إلى الرجوع اليها ، على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم ، فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف . وجاء قوم منهم بعدُ فردت عليهم أرضهم على مثل ما كانوا عليه فهم أصحاب الردود . والرشيد يسد كل خلل في مملكته ، ويهتم كل الاهتمام أن يخفف عن الفلاحين . وكان رجاله لا يألونه نصحاً لأنه يهتم لكل ما ينفع . وفي الرسالة التي كتبها له قاضيه أبو يوسف في الخراج نموذج من هذه العناية . ومما قال فيها : وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويسفون ويأتون ما لا يحل ، وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح ، فاذا وليتها رجالاً ووجد من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما تجرى ، ولا تجرى عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة . . . ويكون من يولى فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي مؤتمناً على الأموال ، إنى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج ، إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاء رقاب المسلمين وجباية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناصية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك . . . وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم ، ولكن يلبس لهم جلباباً

من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء ، من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر . والعدل على أهل النعمة وإنصاف المظلوم ، والشدة على الظالم والعفو عن الناس . . . فان كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فانه يحمل على أنه قد أمر به وقد أمر بغيره ، وإن أحلت بواحد منهم العقوبة الموجبة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج ، واجترأوا على ظلمهم وعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم ، وإذا صح عندك من العامل والوالى تعدى ظلم أو عسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجان شئ من النى ، أو خبت طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمر رعيتك أو تشركه فى شئ من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تروغ غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له .

وقال : « بلغنى عن ولاتك على البريد والأخبار فى النواحى تخليط كثير ومحابة فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاية والرعية ، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية وسترُوا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتبوا فى الولاية والعمال بما لم يفعلوا إذ لم يرضوهم وهذا مما ينبغى أن تتفقدده ، وتأمراً باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار . » وكيف ينبغى أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويجرى لهم من الرزق من بيت المال وليدراً عليهم ، وتقدم اليهم فى أن لا يسترُوا عنك خبراً عن رعيتك ولا عن ولاتك ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليك خيراً ، فمن لم يفعل منهم فنسكل به ، ومتى لم يكن أصحاب البرد والأخبار فى النواحى ثقات عدولا فلا ينبغى أن يقبل لهم خبر فى قاض ولا وال . إنما يحتاط بصاحب البريد على القاضى والوالى وغيرهما فإذا لم يكن عدلا فلا يحل ولا يسع استعمال خبره ولا قبوله <sup>(١)</sup>

(١) الخراج لآبى يوسف .

بمثل هذا اللسان يتلطف أبو يوسف وينصح خليفته في اختيار عمال الخراج والأمناء على الاخبار لمراقبة العمال والولاية والقضاة . على أن الرشيد أخذ العمال<sup>(١)</sup> والتناء والدهاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبّلين<sup>(٢)</sup> وكان عليهم أموال مجتمعة فطولبوا بصنوف من العذاب . وهذا ما دعا بعض الناس في الدولة العباسية الى أن يقولوا إن بنى أمية<sup>(٣)</sup> كانت مصائبهم في أديانهم وأن جباياتهم وأموالهم سليمة لم يظلموا في العشر والخراج ، أما بنو العباس فمع سلامة أديانهم كانت أموالهم فاسدة وجباياتهم بالظلم والغش . وأوضاع كل أمة تثقل وتخف في الميزان بحسب غناء القائميين على تطبيقها ، بزنون بالقسطاس المستقيم أو يُخسرون إذا كالوا أو وزنوا ولى الرشيد احدهم بعض اعمال الخراج . فدخل على الرشيد يودعه ، وعنده يحيى وجعفر بن يحيى ، فقال الرشيد ليحيى : اوصياه ، فقال له يحيى : وفرّ واعمر . وقال له جعفر : أنصف وانتصف . فقال له الرشيد : إعدل وأحسن .

وانتهى إلى علم الرشيد أن عامل الأهواز قد اقتطع مالا كثيرا من مال البلد . ولما سأله الرشيد أجاب : وحلفت بأيمان البيعة أنى قد نصحت وشكرت الصنيعة ووفرت وما أسرفت ولا خنت ، والله لأصدقنك عن أمرى : عمرت البلاد واستقصيت حقوقك من غير ظلم ، ووفرت أموالك وفعلت ما يفعله الناصح لسيدته . وكنت إذا كان وقت بيع الغلات جمعت التجار ، فإذا تقررت العطايا أنفذت البيع وجعلت لى مع التجار فيه حصة ، فر بما ربحت وربما وُضعت . الى أن اجتمع لى من ذلك ومن غيره فى عدة سنين عشرة آلاف ألف درهم فأتخذت أزجا<sup>(٤)</sup> كبيرا عقد بالحص والآجر كأنه مجلس ، وجعلت بين يديه موضعا أقعد فيه وعبئت البدر شيئا بعد شىء فى الأزج ثم سدده ، وهو بحاله ما أشك أن العنكبوت قد

(١) تاريخ اليعقوبى (٧) المقابلون ملتزموا الجباية من الولاية ، والدهاقين التجار أو رؤساء الاقاليم ، والتناء السكان جمع تان (٣) نشوار المحاضرة للتوشى (٤) بيت بينى طويلا

نسجت على ما فيه ، فخذها وحوّل وجهك إلى عبدك . فقال الرشيد : بارك الله لك في مالك ، فارجم إلى عمالك ودار رعيتك .

ولما دخل عليه عامله بدمشق يرسف في قيده قال له الرشيد : ولبتك دمشق وهي جنة بها عُدر تتكفأُ أمواجهها على رياض كالزرايبي واردة منها كفايات المؤمن إلى بيوت أموالى فما برح بك التعدى لأرفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهة ولكن ولّيت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا إلى ميدان التعدى ، ورأوا المرائمة بترك العارة أوقع بإضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاية . فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساقتى .

وكان الرشيد إذا أحسن من عامل له خيانة دبر له من صائب رأيه ولطف حيلته ما يدل على بعد نظره وحسن إدارته وجميل تدبيره ، وشدة غيرته على مصلحة ملكه ، فيمسك أقصر الطرق إلى القضاء على الفتن للمحوظة والغوائل المستجنة ، فيضرب على السيف بسيفه ولسانه ، كما يغمر المحسن بإنعامه وإحسانه . أراد مرة أن يعزل على بن عيسى عن خراسان — وخراسان كثيراً ما كانت تشغل بال الرشيد كما شغلت بال أسلافه — فدعا هرثمة بن أعين مستخلياً به فقال : إني لم أشاور فيك أحداً ، ولم أطلع على سرى فيك . وقد اضطربت على ثغور المشرق ، وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى إذ خالف عهده ونبذته وراء ظهره . وقد كتب يستمد ويستجيش ، وأنا كاتب إليه أخبره أنى أمده بك ، وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن إليه قلبه ، وتتطلع إليه نفسه . وأكتب معك كتاباً بخطى فلا تفتضه ، ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور ، فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامثله ولا تجاوزه إن شاء الله . وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى على بن عيسى بخطى ليتعرف ما يكون منك ومنه ، وهوون

عليه أمر على فلا تظهره عليه ، ولا تعلمه ما عزمت عليه ، وتأهب للمسير وأظهر  
لخاصتك وعامتك أنى أوجهك مدداً لعلى بن عيسى وعاوناً له . ثم كتب الى على  
ابن عيسى كتاباً بخطه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن الزانية ، رفعت من  
قدرك ، ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت ابناء ملوك العجم  
حوالك وأتباعك ، فكان جزائى أن خالفت عهدي ، وفبذت وراء ظهرك أمرى ،  
حتى عشت فى الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته ، بسوء سيرتك ،  
ورداءة طُمتك ، وظاهر خيانتك ، وقد وليت هرثمة بن أعين مولاي نغر خراسان ،  
وأمرته أن يشدد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكتابتك وعمالك ، ولا يترك وراء  
ظهوركم درهماً ولا حقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله . فان  
أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم  
السياط ، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغير ، وبدل وخالف ، وظلم وتعدى وغشم ،  
إتقما لله عز وجل بادئاً ، وخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض  
نفسك للتى لا سوى لها ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً . »

وكتب عهد هرثمة بخطه ونصه « هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى  
هرثمة بن أعين حين ولاه نغر خراسان وأعماله وخراجه ، أمره بتقوى الله وطاعته ،  
ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً فى جميع ما هو بسبيله . فيحل  
حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله ، وأولى  
العلم بكتاب الله ، أو يردّه إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ، ويعزم له على رشده ،  
وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشد عليهم  
وطأته ، ويحل بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم . من خراج أمير المؤمنين  
وفى المسلمين ، فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك ، نظار فى حقوق المسلمين  
والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يردوه اليهم ، فان ثبت قبلهم حقوق لأمر

المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله  
وألیم نعمته ، حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب تلت أنفسهم وبطلت  
أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق ، أشخصهم كما تشخص العصاة من  
خشونة الوطأ ، وخشونة اللطم والمشرب وغلظ الملابس مع الثقات من أصحابه إلى  
باب أمير المؤمنين إن شاء الله . فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت اليك ، فإني آثرت الله  
ودينني على هواي وارادتي ، فكذلك فليكن عملاك وعليه فليكن أمرك . ودبر في  
عمال الكور الذين تخرجهم في صعودك ما لا يستوحش معه الى امر يريهم وظن  
يرعبهم ، وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضى  
الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره ان شاء الله . هذا عهدى وكتابي بخطي وأنا  
أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سماواته وكفى بالله شهيداً . وكتب أمير  
المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته .

أمثلة تكشفت بها حقيقة إدارة الرشيد و بعد غوره في تراتيبه . ولقد رفع اليه  
أن رجلا بدمشق من بقايا بني أمية <sup>(١)</sup> عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والأموال  
مطاعا في البلد له جماعة وأولاد وماليك وموال ، يركبون الخيل ، ويحملون السلاح ،  
ويغزون الروم ، وانه سمح جواد كثير البذل والضيافة ، وانه لا يؤمن منه ، فعظم  
ذلك عليه ، فاستدعى منارة صاحب الخلفاء وأمره بالخروج الى دمشق وضم اليه  
مائة غلام وأجله لذهابه ستة وایابه ستة ويوما لعوده ، وأمره ان يتفقد دار الرجل  
وجميع ما فيها وولده واهله وحاشيته وغلمايه ، وما يقولون وقدر النعمة والحال  
والحل . فجاءه به في الميعاد المضروب وقص عليه ما سمعه وراه . فعرف الرشيد ان  
الرجل محسود على النعمة مكذوب عليه ، فأدناه واعتذر عن استدعائه ، وقال له : سل  
ما تحتاج اليه من مصالح جاهك ومعاشك . فقال : عمال امير المؤمنين منصفون وقد

(١) الفرج بعد الشدة للنتونخي

استغفنت بعدله عن مسألته من ماله ، وأمورى منتظمة وأحوالى مستقيمة ، وكذلك  
امور اهل البلد بالعدل الشامل فى ظل دولة أمير المؤمنين . فأعادته الى بلده على  
خير حال ولم يترك للوشاة سبيلا اليه .

ولقد توسع الرشيد فى توسعة سلطة عماله ، ليستقيم أمر البلاد ، فقد شخص  
الفضل بن يحيى الى خراسان والياً عليها فبنى فيها المساجد والرباطات ، واتخذ  
بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل ولائهم لهم ، وذكروا أن عدتهم  
بلغت خمسمائة ألف رجل وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد  
السكرنية وخلف الباقي بخراسان على أسمائهم ودفاترهم . كتب والى إزمينية  
للرشيد الى وزيره إن قوماً صاروا الى سبيل النصح ، فذكروا ضياعاً بإزمينية قد  
عفت ودرست ، يرجع منها الى السلطان مال عظيم ، وأنى وقفت عن المطالبة حتى  
أعرف رأيك فكتب اليه : « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية  
بحمد الله فى أيامنا كاسدة ، والسنة السعاة فى أيامنا كلية خاسئة ، فإذا قرأت  
كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديوانك ، فإننا لم نولك  
الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لاحياء الأعلام الدائرة ، وجنبى وتجنب بيت  
جبرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عاراً  
وأجر امورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدة تنتهى وأيام  
تنقضى ، فأما ذكر جميل ، وإما خزى طويل . »

ومما يعد فى توسيع السلطة أن قاضى الرشيد أبو يوسف كان أول من دعى  
فى الاسلام قاضى القضاة ولم يقع<sup>(١)</sup> هذا الاسم على غيره كما وقع له فيه ، فإنه كان  
قاضى المشرق والمغرب ، فهو قاضى القضاة على التحقيق ، والقضاة يعينون باقتراحه ،

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

وكان القاضي في العواصم لا يتناول أقل من ألف دينار في السنة ، وأجرى على قاضي مصر<sup>(١)</sup> مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر وهو أول قاض أُجرى عليه هذا ، وأجروا بعد ذلك على القاضي سبعة دنائير كل يوم ثم صار أبو الجيش يجرى على قاضيه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكانوا يجرون على القضاة والعمال الأرزاق من بيت المال من جباية الأرض أو من خراجها والجزية .

والرشيد لا يرضن بالمال في سبيل الدولة ، والمال وحده لا يكفي الخليفة أمر الفتوق التي تحدث إن لم يكن لها من يوثق بأمانته في تلافى شرها ، والرشيد على كثرة بذله المأثور خلف من المال « ما لم يخلف »<sup>(٢)</sup> أحد مثله مذ كانت الدنيا ، وذلك أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجوهر والدواب سوى الضياع والعقار ما قيمته مائة ألف ألف وخمسة وعشرون ألف ألف دينار « قال ابن الأثير كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا في بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك .

### ادارة الامين والمأمون

لم يعرف التاريخ شيئاً من التدبير الذي جرى عليه الأمين بعد الرشيد ، لأنه كان يعبت وقلماً يجد ، شغل نفسه والأمة معظم أيامه بالفتن ، لنزع ولاية العهد من أخيه المأمون وتوسيدها إلى ابنه الرضيع ، وكان من أثر هذا التطاحن بين الأخوين أن خرب قسم عظيم من مدينة دار السلام ، دع غيرها من الأرباض والولايات ، وسالت سيول الدماء ، وفرق الأمين ما في خزائن الدولة من الأموال والأعلاق والدخائر ، حتى دالت الخلافة وضاعت بعد الرشيد ، ولم يرزق الأمين وزراء كوزراء أخيه : طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين والحسن بن سهل والفضل بن سهل ثم أحمد

(١) أخبار الولاة والقضاة للكندى (٢) لطائف المعارف للتمالي

ابن يوسف وعمرو بن مسعدة وأضرابهم ، بل اصطنع من نبذهم أبوه الرشيد ، وكان أقصاهم لسوء سيرتهم ، فرجح للمأمون برجاله وعقله ، وخسر الأمين برجاله وضعف تدييره .

وبينا كان المأمون في مرو ينظر في أمور الدولة كان الأمين يوجه « إلى جميع البلدان في طلب اللهبين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ونافس في ابتياع فؤه الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرتة من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه . . . وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه . . . وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيما » .

ولما حصر الأمين وضعفه<sup>(١)</sup> الأمر قال : ويحكم أما أحد يستراح إليه ! فأتوه رجل من العرب فلما صار إليه قال له : أشر علينا في أمرنا . قال له : يا أمير المؤمنين قد بطل الرأي اليوم وذهب ، ولكن استعمل الأراجيف فإنها من آلة الحرب . فكان يضع له الأخبار فإذا مشى الناس تبينوا بطلانها . فالأمين كان يسف إلى ذلك ، وأخوه المأمون يعمد إلى القواد والعظام والعلماء الأعلام يستشيرهم ويأتمنهم . وغلط للمأمون لأول أمره ثلاث غلطات ادارية : منها أنه لم يأت الى عاصمة ملكه عقيب مقتل أخيه ففضى في الطريق من مرو الى بغداد سنتين بعد أن أقام بمرو تسع سنين ، وكان عليه أن يبادر لجمع القلوب وكسر شوكة المتلاعبين من القواد . وبايع المأمون بولاية عهده إلى علي بن موسى الرضا وهو في خراسان فأخرج الخليفة من آل العباس ، حتى أجمعوا على خلافه وبايعوا بالخلافة ابراهيم بن المهدي في بغداد وخلصوا طاعته . ومنها أنه سمع لوشاية وزيره الفضل بن سهل في هرثمة بن

(١) تاريخ الطبري

أعين الذي كان بحسن تديره العامل الأول في القضاء على جيوش أخيه الأمين  
وإيصال الخلافة للمأمون . وكانت أمت هرثمة كتب للمأمون أن يلى الشام والحجاز  
فأبى وقصد الى المأمون في خراسان <sup>(١)</sup> « إدلالا منه عليه لما كان يعرف من  
نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم  
عنه من الأخبار وألا يدعه حتى يرده الى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ، ليتوسط  
سلطانه ويشرف على أطرافه ، فعلم الفضل ما يريد فقال للمأمون : إن هرثمة قد  
أنفل عليك البلاد والعباد وظاهر عليك عدوك . » ولما أدخل هرثمة على المأمون  
وقد اشرب قلبه ما اشرب من ناحيته ذكر له ما بلغه عنه مما افتراه الفضل ،  
وذهب هرثمة يتكلم ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قرأ به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر  
به فوجى ، على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه ثم قتل .  
وكاد للمأمون يغلط غلطة رابعة بتخليه عن طاهر بن الحسين : « الذي أبى <sup>(٢)</sup>  
في طاعته ما أبى وافتتح ما افتتح وقاد اليه الخلافة مزمومة حتى إذا وطأ الأمر أخرج  
من ذلك كله وصير في زاوية من الأرض بالزقة قد حظرت عليه الأموال حتى  
ضعف أمره فشعب عليه جنده » وتنوسى حتى لا يستعان به في شيء في الحروب  
واستعين بمن هو دونه أضعافاً . لكن عقل المأمون تدارك هذه الغلطات ، وما إن  
جاء بغداد حتى قبض على قياد الملك قبضة الرجل الحازم ، وظهرت مواهبه ونبوغه  
في السياسة والادارة في زمن غلبت الفتنة على قلوب الناس فاستعذبوها ، ولا مال  
له يرضيهم به . وقال يتخوفها نجأهيج وبيوت للمال فارغة : إن الناس في هذه المدينة  
على طبقات ثلاث : ظالم ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلا  
عفونا وإحساننا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينتصف إلا بنا ، ومن كان لا ظلما  
ولا مظلوما ، فبيته يسمعه ، وما كان إلا كما قال .

(١) تاريخ الطبرى (٢) تاريخ الطبرى

(١) تاريخ الطبرى

وقيل إن المأمون بكى لما رأى طاهر بن الحسين . فلما سئل عن سبب بكائه قال إني ذكرت محمداً أخى « الأمين » وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة ، فاسترحمت إلى الافاضة ولن يفوت طاهراً منى ما يكره ، فبلغ ذلك طاهراً فركب إلى احمد بن أبى خالد فقال له : إن النساء منى ليس برخيص ، وإن المعروف عندى ليس بضائع ، ففيعنى عن عينه . فسمى له بتولية خراسان ، وكان قبل ولايته نديه الحسن ابن سهل للخروج إلى محاربة نصر بن شيبث فقال : حاربت خليفة وسقت الخلافة إلى خليفة وأمر مثل هذا ، وإنما يجب أن توجه لهذا قائداً من قوادى . ثم أوسد للمأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو ابن طاهر بن الحسين الرقة وحرب نصر بن شيبث وولاه البلاد التي في طريقه ليكون حكمه نافذاً مهيباً مهيباً له أسباب الظفر من كل وجه . وذلك لثلاث تتعارض السلطات ، ويجمع القائد في العادة بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية ، وهذا من دقيق سياسة العباسيين . ولما وسدت إلى عبد الله بن طاهر قيادة الجيش لقتال الخارجي ابن شيبث كتب إليه أبوه طاهر بن الحسين كتاباً تنازعه<sup>(١)</sup> الناس وكتبوه وندارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به فؤقري . عليه فقال : ما أتى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ، وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .

ومما ورد في هذا الكتاب في الادارة : ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبداة والظنون السيئة بهم مأثم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يعنك<sup>(٢)</sup> ذلك على اصطناعهم ورياضتهم . . . ولا يمنعك حسن

(١) تاريخ الطبرى (٢) رواية ابن الأثير يعنك ذلك عن اصطناعهم

الظن بأصحابك والرافة برعيتك ، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، ولتكن  
المباشرة لأموال الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصلحها ، والنظر في  
حوادثهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك ، وأقم حدود الله في أصحاب  
الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ، ولا تؤخر  
عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفریطك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم  
على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات ، يسلم لك دينك ،  
وتستقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً فف به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ،  
واقبل الحسنة وادفع بها . واغتمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد  
لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله ، وأقص أهل النيمة ، فإن أول  
فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها<sup>(١)</sup> تفریب الكذوب ، والجراة على الكذب ،  
لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنيمة خاتمها ، لأن النيمة لا يسلم صاحبها  
وقائلها ، ولا يسلم له صاحب ولا يستقيم لمطيعها أمر . . . واجتنب سوء الأهواء  
والجور ، واصرف عنها رأيك ، واظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنم بالعدل  
سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، واملك  
نفسك عند الغضب ، وآثر الوفاء والحلم ، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت  
بسبيله . . . ولتكن ذخائر ككنوزك التي تذخر وتكتر البر والتقوى والمعدلة  
واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم والتفقد لأموالهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة  
لمهوفهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر ، وإذا كانت  
في إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصلحت  
به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنعة ، فليكن  
كنز خزائنك تفریق الأموال في عمارة الاسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير

(١) رواية الأثير : فساد أمورك في عاجلها وآجلها .

للمؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيته من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قررت النعمة عليك ، واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيته وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك وأطيب نفساً لكل ما أردت ..

وعاد فوضع له قواعد في حكمة الأخلاق لا تصلح بغيرها الولاية فقال : « ولا تحقرن ذنباً ، ولا تملئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ، ولا تدهنن عدواً ، ولا تصدقن نماماً ، ولا تأمنن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تبتغين عادياً ، ولا تحمدن مرائياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً ، ولا تجبين باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تحلفن وعداً ، ولا ترهقن هجرًا ، ولا تظهرن غضباً ، ولا تأتين بذخاً ، ولا تمشين مرحاً ، ولا تركبن سفهاً ، ولا نفرطن في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عتاباً ، ولا تغمض عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا .

قال : وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن في مشورتك أهل الذمة والنحل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيته من الشح . واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيته إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم . . . وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبتهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معايشهم ، يذهب الله بذلك فاقتهم ، فيقوى بك أمرهم ، وتزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً . . .

ثم ذكر له القضاء وإقامة العدل فيه « لتصلح الرعيّة ، وتأمين السبل ،  
وينتصف للظالم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدي حق الطاعة .  
الى أن قال - بعد أن عرفه ما يفعل لحقن الدماء واعطاء الحقوق - : وانظر هذا الخراج  
الذي استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهل سعة ومنعة ،  
ولعدوه وعدوم كبتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاهديهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين  
أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه  
ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك ، ولا  
تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم  
على مر الحق ، فان ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضا العامة . واعلم انك جعلت  
بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً . وإنما سمي أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم  
وقيمهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدريتهم ، وتنفقه في قوام أمرهم  
وصلاحهم وتقويم أودهم . فاستعمل عليهم في كور عملك ذوى الرأى والتسدير  
والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم في الرزق فان ذلك  
من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند اليك . ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا  
يصرفنك عنه صارف ، فانك متى آثرته وقتت فيه بالواجب استدعيت به زيادة  
النعمة من ربك ، وحسن الأحدثنة في عملك ، وأحرزت به المحبة من رعيتك ،  
وأعنت على الصلاح ، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشمت العارة بناحيتك ، وظهر  
الخصب في كورك ، فكثرت خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على  
ارتباط جندك ، وارضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود  
السياسة ، مرضى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل  
وقوة وآلة وعدة ، فنافس في هذا ولا تقدم عليه شيئاً تحمد ، مغبة أمرك  
إن شاء الله .

« واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب اليك سيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، معاين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع ، فأمضه وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته . . . »

« وافرح من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرة بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أخرت . واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فيشغلك ذلك حتى تعرض عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك ، وبذلك أحكمت أمور سلطانك . وانظر أحوار الناس وذوى الشرف<sup>(١)</sup> منهم ممن تستيقن صفاء طوبيتهم ، وشهدت مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن اليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤوتهم ، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا خلقتهم مساً ، وأفرد نفسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة اليك ، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أحق مسألة ، وוכל بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء وإيتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال . . . »

« وأجر للأضراء<sup>(٢)</sup> من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم ، والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم ، وقواماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى

(١) هذه رواية الطبري وفي رواية ابن الساعي ذوى السن (٢) رواية ابن الساعي « الاضراب ، بدل الاضراء »

سرف في بيت المال . واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانهم ، لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم ، دون رفع حوائجهم إلى ولايتهم ، طمعاً في نيل الزيادة ، وفضل الرفق منهم ، وربما تبرم المتصفح لأموار الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه منها ، ما يناله به مؤونة ومشقة .

« وأكثر الاذن للناس عليك وأبرز للناس وجهك ، وسكن لهم حواسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولن لهم في المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بجدك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بساحة وطيب نفس ، والتماس الصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ، فان العطية على ذلك تجارة مريحة . . . » « واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وينفقون منها ، ولا تجمع حراما ، ولا تنفق إسرافا ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها . وليكن أكرم دخلاتك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاه ذلك اليك في سر ، واعلامك ما فيه من النقص ، فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك . »

« وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل منهم في كل يوم وقتاً يدخل به عليك بكتبته ومؤامرتة ، وما عنده من حوائج عمالك وأمور كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر فيه والتدبر له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه . ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تؤتية اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والوعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن للمعروف إلا على ذلك . . . »

أرأيتم هذا الكلام الآخذ بجماع الفوائد الذي كتب به طاهر بن الحسين الى ابنه قبل خمسين ومائة وألف سنة في هذا الموضوع الجليل الذي فيه قوام الممالك

والشعوب؟ أظنون أن هذه الأفكار يصدر اليوم أحسن منها عن أكبر عالم إداري عارف بطبائع الناس وما يصلحهم ، والممالك وما ينبغي لها؟ وعرفنا من هذا الكتاب مكانة طاهر بن الحسين من قيام الدولة والدفاع عن حوزة الخلافة ، وأن للمأمون الذي يكون من جملة قواده ورجال دولته هذا العظيم لا بد أن يكون في عمله جداً عظيماً . وقد تقدم معنا أن عبد الله بن طاهر نُدب لحرب نصر بن سبت ، فلما استأمن هذا وصفت البلاد، جاء الشام فعمل أحسن الأعمال لراحة أهلها واستقرارها بلداً بلداً ، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواويل (١) ، وهدم الحصون وحيطان المدن ، وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً ، ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج ، ثم قصد إلى مصر فضرب على أيدي الخوارج فيها ، وربطها بالخلافة ربطاً محكمًا . وكان نحو (٢) الخمسة عشر ألفاً من أهل قرطبة جاؤا من الأندلس بعد وقعة الرض في سنة ٢٠٢ فاتهموا إلى الاسكندرية فملكوها مُدَيِّدَةً ، فلما ورد عبد الله بن طاهر على مصر صالحهم على التخلي عنها على مال بذله لهم ، وخيرهم في النزول حيث شاءوا من جزائر البحر فاخترت جزيرة اقر يطش من البحر الرومي .

وكان من تربية طاهر بن الحسين أن جاء ابنه كما قال له احمد بن يوسف الكاتب موقفاً في الشدة والليان في مواضعهما ، ولا يعلم سانس جند ورعية عدل بينهم عدله ، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأضغنه عفوهُ . قال : ولقل ما رأينا ابن شرف لم يُلْقَ بيده متكلاً على ما قدمت له أبوته . قال يونس بن عبد الأعلى : أقبل الينا ( في مصر ) فتي حدث من المشرق ، يعنى ابن طاهر ، والدينا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، والناس في بلاء ، فأصالح الدينا وأمن البرى . وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة . ولقد قال للمأمون لبعض

(١) الزواويل للصوص (٢) الحلة السيراء لابن الأثير

جلسائه : من أنبل ما تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟ فجألوا بما فتح الله عليهم ، وبعضهم مدحه وقرظه . فقال : ذلك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر دخل مصر وهي كالعروس الكاملة ، فيها خراجها وبها أموالها حمة ، ثم خرج عنها فلو شاء الله أن يخرج منها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل ، ولقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكتب إلى<sup>١</sup> إنه عرضت عليه أموال لو عرضت على<sup>٢</sup> أو بعضها لشرفت اليها نفسي ، فما علمته خرج من ذلك البلد إلا وهو بالصفة التي قدمها فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس . فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى في الاسلام ، فالحمد لله الذي جعله غرس يدي وخريج نعمتي .

هكذا كان عدل العمال وشرف أنفسهم، وهكذا كان علمهم وبعد نظرهم في عصر المأمون، فلا يستغرب بعد ذلك ما ذكر من قصة<sup>(١)</sup> تلك المرأة القبطية التي نادى المأمون لما مر بقربتها طاء النمل<sup>(٢)</sup> من أرض مصر وسألته أن يقبل قرأها ، ليجعل لها الشرف ولعقبها بذلك ، وأن لا يشمت بها الأعداء ، وبكت بكاء كثيراً ، فنزل عليها بجميشه ورجاله وكانت ضيافتها من فاخر الطعام ولذيذه . وفي الصباح بعثت إلى المأمون بعشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، في كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وأمرها باعادته فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب وربما عجز بيت مالنا عن مثل ذلك ! فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن في بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيب عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا — وأشارت إلى الذهب — من هذا — وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض — ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شيء .

(١) خطط المقرئ (٢) طاء النمل يقال لها اليوم منامل (بضم الطاء وتشديد النون) وهي

مركز اجا من مديرية المنصورة

كثير فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعفاها من بعض خراج أرضها .  
وفي الحق إنه لم يعرف عصر كعصر المأمون وعصر أبيه وأخيه الأمين في  
استفاضة الأموال في كل طبقة من طبقات الأمة . فقد أنفق الحسن بن سهل على  
عرس ابنته بوران على المأمون أربعة آلاف ألف دينار ، وماتت الخيزران أم المهدي  
والرشيد ( ١٧٣ ) وكانت غلتها ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، ومات محمد بن  
سليمان وقبض الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها ، فكان مبلغها نيفاً وخمسين ألف ألف  
درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ، وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة  
ألف درهم . وأنفق جعفر بن يحيى على داره التي ابتناها في دار السلام نحواً من  
عشرين ألف ألف درهم . وغنى إبراهيم بن المهدي محمداً الأمين صوتاً فأعطاه  
ثلاثمائة ألف درهم . فقال إبراهيم : يا سيدي قد أمرت لي إلى هذه الغاية بعشرين  
ألف ألف درهم فقال : وهل هي إلا خراج بعض الكور !

ووقع للمأمون غير مرة أن كان يخف إلى الأقطار التي تنشب فيها فتنة جديدة  
لا يعتمد على رجاله على كثرة الصالحين منهم للعمل . ولما انتقضت أسفل الأرض  
كلها بمصر عربها وقبيلها ، وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة ، وكان ذلك لسوء  
سيرة العمال فيهم ، هبط المأمون مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ،  
وسخط على عامله عيسى بن منصور وأمر بحل لوائه وأمره بلباس البياض وقال :  
لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون  
وكنتموني الخبز ، حتى تقام الأمر واضطربت البلد . وقال : ما فتق على قط  
فتق في مملكتي إلا وجدت سببه جور العمال . وقال لمن رفع إليه خبراً في عامل :  
إني امرؤ أدارى عمالي مداراة الخائف ، والله ما أجد إلى أن أحملهم على الحججة  
البياض سديلاً ، فأعمل على حسب ذلك ولن لهم تسلم منهم .  
وخص المأمون بالإغضاء عن المساوي ، والتغابي عن التافهات ، وحمل الناس

على محل الخير، وجهد أن يسوق اليهم كل خير، وهذا مع كثرة عنايته بأخذ أخبار عماله ورعيته، وقيل انه كان للمأمون ألف مجوز وسبعائة يتفقد بها أحوال الناس ومن يحبه ويبغضه ومن يفسد حرم المسلمين، وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتبه كلها، وكان يدور ليلاً ونهاراً مستتراً، ومع كل هذا كان المأمون أبداً إلى جانب المسامحة والعفو، وتتجافى نفسه العظيمة عن كل ما تشتم منه راحة الطمع والاسفاف إلى أموال العمال، وكادت المصادرات والنكبات تبطل في أيامه ولا يشكب إلا من حاول نقض بنيان الدولة. ولقد رفع اليه أن عمرو بن مسعدة أحد وزراء دولته خلف ثمانين ألف ألف درهم، أو نحو ثمانية ملايين دينار، فوقع على الرقعة: «هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيه.» وكأنه استفطع القتل الذي يصيب كل عدو للدولة فبسط جناح الرحمة وقلل من إهلاك النفوس ما أمكن. وأقام نفسه مقام رجل يعرف الطباع البشرية وينصف خصومه وأعداءه ويحسن اليهم ولا يسيء، كتب صاحب بريد همدان<sup>(١)</sup> إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطأ على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما، فوقع المأمون: إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازته، فانف الساعي عنك، فلو كان في سعائته صادقاً لقد كان في صدقه اثماً، إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه.

وقال المأمون لولده في معنى الوشاة: يا بني نزهوا أقداركم وطهروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتمويه سعائتهم، فكل جان يده في فيه، وليس يثني إليكم إلا أحد الرجلين: ثقة وظنين. أما الثقة فقد قيل إنه لا يبلغ ولا يسيئ بالوشاية قدره، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه، ويكذب ظنه، ويرد باطله، وما سعى رجل برجل

(١) المحاسن والمساوي للبيهقي

الى قط إلا انحط<sup>(١)</sup> من قدره عندى ما لا يتلافاه أبداً ، فلا تعطوا الوشاة أمانهم  
فيمن يشون بهم . ولئن لم يترك المأمون مجالاً للوشاة يجرىون بيوت من يشون بهم ،  
ويزيلون نعمتهم ، أو يوردونهم موارد المهلكة ، فما كان يخفى عليه خبر من  
الأخبار الخاصة والعامة في القاصية والدانية ، حتى إنه لما ضاق صدره من تشدد  
بعض العلماء في حوار خلق القرآن ، كتب إلى عامله بمعاينهم رجلاً رجلاً ، وقال إنه  
أعلم بما في منازلهم منهم . وخبر في هذه الرسالة عن عيب واحد واحد من الفقهاء  
وأصحاب الحديث ، وعن حالتهم وأمورهم التي خفيت أو أكثرها عن القريب والبعيد .  
ولقد كان من أهم قوانين إدارته التوسعة على عماله حتى لا يسرقوا الرعيمة  
والسلطان ويضيعوا حقوقهم ؛ رفع منزلة الفضل بن سهل وعقد له على الشرق طولا  
وعرضاً وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم . وما كان للمأمون بالخليفة الذي يتخلى  
عن خاصة عماله بأذى سبب ، بل يفض الطرف عن مساوئهم ويتركهم في برزخ  
بين الرغبة والرغبة ، ولذلك استراح واستراح الناس معه ، وعلى قدر ما كان يراعى  
الخاصة يراعى العامة ، فقد قال في وصيته للخليفة بعده : ولا تغفل أمر الرعية والعوام  
فإن الملك بهم وبتعهدك لهم . الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ، ولا ينتهين اليك  
أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من  
أقويائهم لضغائنهم ، ولا تحمل عليهم في شيء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق  
بينهم ، وقرّبهم وتأن بهم .

وكان للمأمون يحرص كل الحرص على الانتفاع برجاله ، ويطلق لهم حريتهم  
في العمل ، ومن كان يستمع لمشورتهم احمد بن أبي دواد ، وهذا كان أول من  
افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه . ولما أسند<sup>(٢)</sup> للمأمون  
وصيته عند الموت الى أخيه المعتصم قال فيها : وأبو عبد الله احمد بن أبي دواد لا يفارقك

(١) أخلاق الملوك للجاحظ (٢) وفیات الاعيان لابن خلکان

الشركة في للشورة في كل أمر فانه موضع ذلك ، ولا تتخذن من بعدى وزيراً .  
ومن جملة ما أوصى به للمأمون أخاه المعتصم في مرضه : خذ بسيرة أخيك في القرآن  
والاسلام ، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المرید لله ، الخائف من عقابه  
وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلته ، وكأن قد نزل بك الموت ، ومن ذلك عرفنا أن  
سياسة المأمون ملكه كانت علماً وعملاً ، وهكذا يريد أن يكون عماله . وعظه  
رجل فأصغى اليه منصتاً فلما فرغ قال : قد سمعت موعظتك فأسال الله أن ينفعنا  
بها وربما عملنا ، غير أنا أحوج إلى المعاونة بالفعال منا إلى المعاونة بالمقال ، فقد  
كثر القائلون وقل الفاعلون .

وكان في للمأمون شيء من الجاذبية الفطرية يستميل بها القلوب ويجمعها على  
حبه ، ذلك أنه كان يعرف أمزجة أمته فيشغلها في المفيد ، ولا لغو ولا هوى في  
حياته ، فكان بإدارته مثال الجد في الخوالب من نبي العباس ، يفكر في أمر رعيته  
أكثر من تفكيره في أمور نفسه . كتب إلى عامله على دمشق في التقدم إلى عماله  
في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل محله ، وأن يتقدم إلى عماله  
في ذلك أشد التقدم ، وأن يكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك ، وكتب بهذا  
إلى جميع عماله في أجناد الشام . واستجاب للمأمون لمساحة أرض الشام مساح العراق  
والأهواز والرى . وكان يعدل الخراج إذا شكاه منه أهله . وكان العلاء بن أيوب لما  
ولى فارس من قبل المأمون يكتب عهد العمال فيقرؤه من يحضره من أهل ذلك  
العمل ، ويقول أتم عيوني عليه فاستوفوه منه ، ومن تظلم إلى منه فعلى أنصافه ونفقته  
جائياً وراجعاً . ويأمر العمال أن يقرؤوا عهده على أهل عمله في كل جمعة ويقول لهم :  
هل استوفيتم ؟

أصاب أهل مكة سيل جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب إلى الحرمين  
إلى المأمون يذكر له الحال ، فوجه إليه المأمون بالأموال الكثيرة وكتب إلى الولى :

«أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله إلى أمير المؤمنين ، فيكلمهم بقلب رحمته ،  
وأنجدهم بسبب نعمته ، وهو متبع ما أسلف إليهم ، بما يخلفه عليهم عاجلا وأجلا ،  
إن أذن الله في تثبيت عزمه على صحة نيته . » قالوا : فصار كتابه هذا آنس لأهل  
مكة من الأموال التي أنفدها . وكان له في كل بلد حوادث من الاحسان قلما  
يتسامى إليها أحد من الخلفاء . ولقد ذكر المؤرخون أن المأمون لما كان في دمشق  
أضاق إضافة شديدة ، ثم وافاه المال ثلاثون الف الف الف درهم . فقال ليحيى بن  
اكرم : أخرج بنسا لننظر إلى هذا المال . فخرج وخرج الناس ، وكان قد زين  
الحمل وزخرف ، فنظر المأمون منه إلى شيء حسن كثير ، فاستعظم الناس ذلك  
واستبشروا به . فقال المأمون : ان انصرفنا الى منازلنا بهذا المال وانصرف الناس  
خائنين لؤم . فأمر كتابه أن يوقع لهذا بألف ألف ولذلك بمثلها ولاخر بأكثر منها  
حتى فرق أربعة وعشرين الف الف الف درهم ( ثلاث مرات ) ورجله في الركاب ، ثم  
حول الباقي على عرض الجيش برسم مصالح الجند .  
وذكروا أن المأمون عقد لأخيه أبي اسحق طي نغر المغرب ، ولابنه العباس على  
الشام والجزيرة ، ولعبد الله بن طاهر على الجند ومحاربة بابك . وفرق فيهم ما لم يفرق  
مثله أحد مذ كانت الدنيا : أمر لكل واحد منهم بمائة ألف دينار . وما كان  
للمأمون يقض بمال إذا كان فيه صلاح الدولة والرعية . وخمسمائة الف دينار يأخذها  
العامل ينفقها في أتباعه ورجاله ومرؤته . وكانت نفقة المأمون كل يوم ستة آلاف  
دينار يصرف أكثرها على الرعية ولا يناله منها إلا جزء طفيف . كتب عمرو بن  
مسعدة إلى المأمون كتاباً يستعطفه على الجند ونصه : « كتابي إلى أمير المؤمنين  
ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والالتقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة  
جند تأخرت أرزاقهم ، واختلت أحوالهم » . فقال المأمون والله لا قضين حق هذا  
الكلام . وأمر باعطائهم ثمانية أشهر . وكتب بعض ولاة الأجناد إلى المأمون :

إن الجند شعبوا ونهبوا . فكتب اليه : لو عدلت لم يشعبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا . وعزله عنهم ، وأدر عليهم ارزاقهم .

ويتعذر تعداد أفضال المأمون على الأفراد ، وحرصه على اختيار رجاله وعنايته بأرائهم وتجارهم ، وغرامه بالعمو والاحسان . قال احمد بن أبي خالد وزير المأمون ثمامة بن أشرس : كل واحد في هذه الدار ، أى في دار الخليفة ، له معنى غيرك ، فإنه لا معنى لك في دار أمير المؤمنين . فقال له المأمون : إن له معنى فى الدار ، والحاجة اليه بينة . قال : وما الذى يصلح له ؟ . قال : أشاوره فى مثلك هل تصلح لمن معك أو لاتصلح . وثمامة هو من الجماعة الذين كانوا يفشون دار الخلافة<sup>(١)</sup> وهى دار العامة ، ومنهم محمد بن الجهم والقاسم بن سيار ، وكان هؤلاء الرجال أشبه بالمستشارين بل أشبه بدعاة الدولة ، وعنوان الخلافة . هذا إلى ما هناك من شعراء وأدباء وعلماء وفقهاء يختلفون فى الاحايين إلى الخليفة فيشاركهم فى حديثهم ، وينافسهم فى صناعتهم ، ويفضل عليهم من هباته ، فيخرجون وألسنتهم تنطق بحمده ، وتدعو بدوام ملكه ، ويذكرون للعامة والخاصة ما هو عليه من بعد النظر فى سياسة الملك . قال الجاحظ : كان ابراهيم بن السندی مولى أمير المؤمنين عالماً بالدولة شديد الحب لآبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ، وكان فخم المعانى فخم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أردع على هذا الملك من عشرة آلاف سيف وسنان طرير لكان ذلك قولاً ومذهباً .

أرانا قد خرجنا من وصف ادارة المأمون إلى وصف سيرته ، ونحن إلى ذلك مسوقون على الرغم منا ، وأنى لنا أن نصدر حكماً صحيحاً على حكومة مطلقة قبل أن

(١) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ

تتعرف أخلاق رأسها خليفة أو كان ملكاً أو أميراً . والرأس هو الكل في مثل هذه الدول ، إذا صلح صلح الجسد كله .

### الإدارة على عهد المعتصم وأمهروقه

إذا ذكر المعتصم فأول ما يتبادر إلى ذهن قارئ التاريخ الإسلامي أنه الخليفة الذي أشرك الترك في الخلافة العباسية وأبعد العرب عنها ، فنقض أساس دولته بيده . ولئن كان المنصور بدأ بشراء المالك واستخدمهم وتابعه من خلفوه على ذلك ، فإن العباسيين ما دخلوا فيما دخل فيه المعتصم من وضعه من العرب<sup>(١)</sup> وإخراجهم من الديوان ، وإسقاط أسمائهم ، ومنعهم العطاء من العاصمة والولايات . فصار جند العباسيين من العجم والموالي .

اجتمع للمعتصم من الأتراك أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية ، وأبانهم بالزى على سائر جنده ، واصطنع قوماً من اليمن وقيس ومضر وساهم المغاربة . وأعد رجال خراسان من الفراغنة والأشروسنية وغيرهم من الترك . فأصبح جند الخلافة<sup>(٢)</sup> على عهده خمسة أقسام : خراساني وتركى ومولى وعربى وبنوى<sup>(٣)</sup> . وكثر الهرج واللرج في فيالقهم ببغداد حتى اضطر أن يبني لهم مدينة سامرة (سمر من رأى) تخفيفاً عن أهل دار السلام ، لأنهم كثروا على الناس وضائق باعتماداتهم الصدور .

فمن ثم كانت جيوش المعتصم كثيرة مستعدة للقتال عند أقل إشارة ، وكان السعد خليفة في غزواته مع الروم . قيل إنه لما فتح<sup>(٤)</sup> عمورية كانت عدة عساكره خمسمائة الف فارس ، وعلى مقدمته خمسمائة من الخيول البلق ، وكانت

(١) خطط المقرئ (٢) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ (٣) الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة إليهم أبناوى وبنوى حركة (٤) التيسير والاعتبار للإسدى (مخطوط)

لحاميات في الثغور أبدأ على أتم نظام ، وارتفاع الثغور الشامية <sup>(١)</sup> نحو المئة الف دينار تنفق <sup>(٢)</sup> في مصالحها من المراقب والحرس والقواشير والركضة <sup>(٣)</sup> والموكلين بالدروب والمخايض والحصون وغير ذلك من الأمور والأحوال ، وما يحتاج إلى شحنها من الجنود والصعاليك <sup>(٤)</sup> . وتنفق الدولة على مغازى الصوائف والشواتى في البر والبحر في السنة على التقريب مائتى الف دينار ، وعلى المبالغة ثلاثمائة الف دينار . بيد أن المعتصم لم يكن بالنفقة على شىء أسمح منه بالنفقة على الحرب ، وربما كان للمعتصم بعض العذر في ثقته بالأتراك في جيشه ، وهم من القديم عرفوا بالحرب وأشهبوا بالطاعة لقوادهم . ولكن هذه الغلطة الادارية كان وبالها بعد على الدولة لأن الأتراك تسللوا إلى الوزارات والقيادات ، واستأثروا بالولايات والعمالات ، فأصبح لهم بعد السلطان الحقيقي على البلاد ، وللخلفاء صبغة غير عملية من الحكم .

أراد المعتصم أن يتشبه بأخيه المأمون فسار على أحكامه ونظامه ، ومن أين له أن يشبهه بعلمه وحلمه . فقد ذكر واصفوه بأنه كان قليل البضاعة من الأدب ، وإذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل . وقالوا إنه كان يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة من عمران الأرض التي يحياها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش . ويقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه . وأعطى أهل الشاش ألف درهم لكرى نهر لم اندفن في صدر الاسلام .

لم يتسدد المعتصم ولا ابنه الواثق شيئاً جديداً في الادارة لم يعرفه المأمون

(١) الثغور الشامية هي طرسوس وأذنة والمصيصة والاسكندرونة وأولاس وعين زربة والكثينة السودا. والمهارونية وبياس . ومن ثغور الجزيرة مرعش وأفطكية وبغراس (٢) الخراج لقدامة (٣) القواشير الكشافة . الركضة البريديون . (٤) الصعاليك الجند غير المنظم

والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذي وضعه المنصور للدولة . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث تلك الروعة التي كانت لها في عهد الخلفاء الأول . وقلَّ بعد المأمون الخلفاء النادرون بذكائهم وتجاربهم ، فأصبحت الخلافة بعد عظمائها بفتور ، وأعمالهم بقلّة الرواء والاتساق . ومن أهم الدواعي الى هذا الانحطاط فساد الادارة واختلال أحوال القضاء ، فنشأ ذلك من سراهة نفوس العمال والوزراء واضاعة الحقوق . ومن يصادر أو يموت عن عشرات أو مئات الألوف من الدنانير من هذه الطبقة كيف يصح لك أن تحكم عليه بالبراءة من مال السحت والرشا والسرقا . مساوى ما فشت في أمة إلا ضاع حق سلطانها وحق رعيته .

وكانت أهم عقوبة تقع على الظالم من العمال مصادرة الخليفة أو وزيره أو عامله الأكبر ، واصبح العمال في الدولة العباسية صورة مجيبة من استنزاف الأموال ، وهم موقنون بان مصيرهم بما جمعه الى المصادرة والقتل . وقل فيهم من كان يكتفي بما قرره له الخليفة أو العامل الأعظم من الجرايات والمشاهرات ، وقد تكون على حد الكفاية وأكثر من الكفاية بالنسبة لتلك الأعصر ، وما حدث فيها من وفرة الثروة وعوائد الترف والسرف . وللوزراء ومن يلونهم طرق ابليسية في السلب . والأرجح ان أهم موارد الوزراء والولاة كان من نهب جباية الدولة أو بيت مالها ، ومن الهدايا التي يضطرون صغار عمالم الى تقديمها في كل فرصة ، ومن رشا يتناولونها ممن يحاولون ان يستخدموا في أعمال الدولة ، الى غير ذلك من وجوه اتهاب الأموال وإعنات الناس . وكانت هذه الطبقة من الوزراء والكبراء تصوم وتصلي وتتعبد وتتصدق وتغار على الاسلام والدولة ، ثم تجوز الاحتيال لأخذ الأموال لأن الأبهة تقضى التوسع في الانفاق !

قال عامل مصر لأحد من زاره من وزراء العباسيين في الفسطاط ، فرأى جسر

يحتسب العمال عنه على السلطان ستين ألف دينار في كل سنة ، وهو لا يكلف عشرة دنانير : ان جاريه ثلاثة آلاف في الشهر ولا يمكنه وهو عامل مصر أن يكون بغير كتاب ولا عمال ولا كراع ولا جمال ولا اعطاء ولا افضال ، وله حرم وأولاد وأقارب وأهل يحتاج لهم الى مؤونة ، ولا يخلو أن يرد عليه زوار بكتب من الرؤساء فتقضى المروءة أن يبرهم ويصلهم ، الى غير ذلك مما يصانع به ، ومنها هدايا سنوية الى الخليفة والسيدة وأنجاله والقهرمانه وكتائبهم وأسبابهم . وبهذا رأينا أن العامل كان مضطراً بحسب مصطلح ذلك الزمان الى أن يسد العجز في موازنته الخاصة من طرق غير مشروعة ، وقلّ العف الجيد الطعممة . وكلما تقدم الزمن وزادت الخلافة العباسية عتقاً بليت الأخلاق في الناس وتبعه تفلقل الادارة ، لفسولة رأى القائمين بالدولة وتشعب أغراضهم .

ولقد كان الخلفاء على الأكثر يتخيرون للولايات والوزارات أكتب الناس وأعلمهم ، وللقضاء أفضاهم وأفتاهم . وحظوة الرجل عند قومه قد تكون من بواعث توسيد كبار الأعمال اليه خصوصاً الوزارات والولايات والقيادات . وأتى زمن بعد المعتصم والوزير أعجم طمطم لا يفهم ولا يفهم ، وأصبح أنصار الدولة والغيراء عليها يتأففون من لا يحسنون العربية ، وإن كان منطويًا على صفات أخرى صالحة في تدبير الملك ؛ وذلك لكثرة من دخل في الأعمال من غير العرب . وكان معظم العمال يحاولون أن يجرؤا الرعية على المعاملات القديمة ويحملوهم على الرسوم السليمة . ولكن تطلب أنفس الولاة والعمال الى العبت بحقوق الناس ، ليجنوا من ذلك ما تتلمظ له شفاههم من المغامم ، كان الباعث على استشرء الفساد في معظم طبقات المجتمع . ثم أصبح بعض العظاء<sup>(١)</sup> ينفرون من الوزارة لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل ، ولأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان في الغالب الى المصادرة والاعتصاب .

(١) عصر المأمون لآحمد فريد الرقاعى

ولقد عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية، وأصبحت بتوالى الأيام المصدر الرئيسي لتحصيل المال؛ فالعامل يصادر الرعية، والوزير يصادر العمال، والخليفة يصادر الوزراء، ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم. حتى أنشؤا المصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة؛ فكانت المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالتجارة. غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان وأخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ثم نفاه. ثروة ضخمة لو فكر الفضل أن يجمع طاعة الخليفة وينشئ بها ملكاً له لما أعجزه ذلك. وغضب الواثق على كتاب الدواوين وسجنهم وأخذ منهم ألف دينار، وفيهم بعض الوزراء ومن كانوا في منزلتهم. وقل إن كان الوزير ينجو من نكبة إذا طالت أيامه، وأيقن الخليفة أنه اغتنى وعبت بأموال الدولة، أو حفزته الحاجة إلى المال فتفقده في خزائنه فلم يجده. ولم يعهد لوزير أن وزير وزارة واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء متسقين إلا محمد بن عبد الملك الزيات، وانتهى أمره بحرقه في التنور ومصادرة أمواله. وكان من العلم والأدب في الدولة العليا. وكان سلفه في وزارة المعتصم أحمد بن عامر الذي وصفه المعتصم ووصف نفسه بقوله: «خليفة أمي ووزير عامي»<sup>(١)</sup>

قال الوزير ابن الفرات: تأملت ما صار إلى السلطان من مالي فوجدته عشرة آلاف ألف دينار، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري فكان مثل ذلك. فكان أنه لم يخسر شيئاً لأنهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة، وإذا صودر أحدهم على مال لم يكن في وسعه أدائه كله معجلاً أجلوه بالباقي وساعدوه على تحصيله وجمعه. وتعددت أسباب للمصادرة وجهاتها حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها. وكانت وزارة ابن الفرات ثلاث سنين وثمانية أشهر وأثنى عشر يوماً<sup>(٢)</sup> - وولى الوزارة ثلاث مرات - وطولب بأمواله وذخائره

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢) صلة تاريخ الطبري لعريب

فاجتمع منها مع ودائع كانت له سبعة آلاف ألف دينار ، فيما حكى عن الصولى ، وكان  
مشاهداً ومشرفاً على أخبارهم . قال : وما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة وهو يملك  
من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات .  
رد الواثق على بعض بنى أمية أموالهم ، وأكرم العلويين وأحسن اليهم ، وما  
أحسن أحد إلى آل أبى طالب من خلفاء بنى العباس ما أحسن اليهم الواثق . مامات  
وفيهم فقير<sup>(١)</sup> وكان فى حلمه وحسن خلقه يشبه عمه المأمون ؛ يحب العدل ويعطف على  
أهل بيته ويتفقد رعيته . حشم<sup>(٢)</sup> الأمراء عن الظلم ، وكان يجلس لحساب الدواوين  
بنفسه ، وترك جباية أعشار سفن البحر ، وكان مالا عظيماً . وقيل انه سد باب اللهو  
والفناء ، أما هو فكان يسمع المغنيات ولا يتبذل ولا يسرف . واشتد على الناس كأبيه  
وعمه فى مسألة خلق القرآن حتى قيل انه أمر فى سنة ٢٣١ ، وهى سنة الفداء بين  
المسلمين والروم ، أن يمتحن<sup>(٣)</sup> أسارى المسلمين ، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا  
يرى فى الآخرة فودى به وأعطى ديناراً . ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدي الروم .  
وعقد الواثق لبنيه الثلاثة ، وقسم الدنيا بينهم ، وكتب بذلك كتاباً كما فعل جده  
الرشيد مع أولاده ، فأعطى ابنه الأكبر المنتصر من عرش مصر إلى افرقية المغرب  
كله إلى حيث بلغ سلطانه ، وأضاف إليه جند قنسرين والعواصم والثغور الشامية  
والجزيرة وديار بكر وربيعة والموصل والفرات وهيت وعانة والخابور ودجلة والحرمين  
واليمث والنجامة وحضرموت والبحرين والسند وكرمان وكور الاهواز وماسبذان  
ومهرجان وشهرزور وقم وقاشان وقزوين والجبال . وأعطى ابنه المعتز خراسان  
وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله . وأعطى ابنه المؤيد ارمينية وأذربيجان وجند  
دمشق والأردن وفلسطين . وكان لولى العهد فى هذه الممالك الصلاة والمعاون ، أى  
الشحنة والشرطة ، والقضاء والمظالم والحراج والضياع والغنيمة والصدقات وغير ذلك من

(١) تاريخ بغداد لابن الخطيب (٢) دول الاسلام للذهبي (٣) تاريخ الطبرى

حقوق أعمالها وما في عمل كل واحد منها من البريد والطرز وخزن بيوت الأموال ودور الضرب . يستخلفون على القطر الكبير حرباً وخراجاً ، ويفوضون الأمور كلها للعامل يأذن اليه في الحل والعقد بغير استئثار ويحلعون عليه سواداً . أى ان القطر الواحد بل المصر الواحد يحكم برأى عامله وجماعة ممن يختارهم لمشورته ومعاورته ، فينظر في الأمور بحسب فهمه وما يوحيه اليه المحيط والعادة والعرف ، ويطبق الأحكام الشرعية على الكبير والصغير والملى والذمى ، وينصب العامل الأكبر في الولاية العال من ذوى الرأى والتدبير والخبرة بالعلم والعلم بالسياسة ، ويشاور الفقهاء وأرباب التجارب ، وينفق من المال ما تصلح به الولاية وما يوسع به على القراء والفقراء وذوى الحاجات ، وما تقتضيه من عطاء الجند وتقوية الثغور وشحن للمصالح ثم يبعث الباقي من الأموال الى الخليفة . وللخليفة الخطبة والسكة ، فاذا كان العامل يحسن عمله ، ويعرف مدى التبعة للمقاة عليه ، يستسيع الخراج ان كان ذا قوة أو أنس من جانب الحضرة ضعفاً . ولا يرجع في العادة الى استشارة العاصمة الا في عويص المسائل التى يمكن تأجيلها ، وتكون من حقوق الخليفة داخله في أمهات المسائل الكبرى في الدولة . وقد يجتهد ويرتكب غلطا فتصرفه العاصمة ان أحست به أو توجهه في العقوبة ، كما فعل المنصور لما بلغه ضرب عامله على المدينة علمها مالك بن أنس فشق ذلك على الخليفة وأهان عامله وصرفه . ولكن كانت كتف مالك قد زالت عن مكانها بالضرب للترح . فالعامل في الحقيقة هو الملك الفعلى ولا يسع العاصمة الا أن تقره على ما يقرر ويدبر في أكثر الحالات . وقد ظهرت مضار هذه الطريقة عند ما كانت العاصمة تعجز عن ضبط كل شىء . من أمور الولايات لضعف الخلافة ووناء القائم على سدها . وإذا كان هناك قضاة وولاة وناظرون ومفتشون وكتاب وحساب فان التنفيذ يختلف قوة وضعفاً بحسب كفاية العامل وسلطان الخليفة والوزير .

حاء المتوكل وضغطُ أمراء الترك وقوادهم يزيدُ شدة على الخلفاء فخلع على

عبيد الله بن يحيى وأمر أن لا يعرض أحد من أصحاب الدواوين على الخليفة شيئاً ، وأن يدفعوا أعمالهم إلى وزيره ليعرضها ، وأجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم ، لما كان في نفسه من الأتراك واستبدادهم بالأمر . فكان عهده عهد جذب ودفع بين أصحاب الخلافة ومن رفعهم للمعتصم على رقاب الناس من الترك ، وعلق المتوكل يداوى الأمراض البادية في جسم الدولة بانفاق المال الذي جمعه المأمون والمعتصم والوائق على نحو ما فعل الأمين ؛ ففرق ما جمعه السفاح والمنصور والمهدى والرشد من الأموال . فقال الناس إن أيام المتوكل كانت في حسناتها ونصارتها ورفاهية العيش بها ورخص أسعارها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء . نعم كان هذا الخليفة منفاقاً لا يحسن تدبير خرجه ، وله مع هذا عناية خاصة بديوان زمام النفقات . أنفق ما أنفق مما ادخره أجداده في بيوت أمواله ، فكان هذا منه تدبيراً مؤقتاً غير ناجح ، وما استطاع أن يداوى ما تجلى من تسلط الأتراك على الدولة في عامة أقطارها وأعمالها .

رأى المتوكل شدة ضغط الترك على الخلافة في دار السلام فأحب الانتقال إلى دمشق ليجعلها دار ملكه ونقل دواوين الدولة إليها . ولما أمن غائلة من توجس منهم خيفة عاد إلى العراق وادعى أنه استتبأ بمدينة دمشق . وكانت له أفكار شاذة ، منها أنه كان يبغض علي بن أبي طالب وأهل بيته فعفى قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه . ولا تأويل إلى هذا العبث إلا خوفه الشيعة وأن يتخذوا من زيارة الحسين وسيلة إلى دعاية سياسية تزعزع أركان الملك العباسي . واشتد المتوكل على أهل الذمة وأخذهم بلبس ألبسة تحالف لباس المسلمين على رؤوسهم وأوساطهم ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة ، تفرقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين . ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجرى أحكامهم فيها على المسلمين . وأمر أن يقتصروا في مراكبهم

على ركوب البغال والحير دون الخيل والبراذين الى غير ذلك . وأمر باجلاء  
النصارى عن حمص لأنهم كانوا يعينون الشوار من الجانيين ، والثورة لا تكاد تنطفئ .  
كل حين من حمص حتى سميت الكوفة الصغرى ؛ لكثرة قيام أهلها على العمال ،  
كما خصت تونس بالتشغب والقيام على الأمراء والخلاف للولاة .

ومع كل ما بذل للمتوكل قوى الأتراك عليه وقتلوه ، قبل بالاتفاق مع ابنه الذى  
خلفه ، وأخذ المتغلبة من الترك يستضعفون الخلفاء ، فأصبح « الخليفة فى يدهم كالأسير  
إن شاؤا أبقوه وإن شاؤا خلعوه وإن شاؤا قتلوه من غير ديانة ولا نظر للمسلمين »  
وجاء المنتصر يقاوم العلويين كما يبه المتوكل ويكتب الى عامل مصر (٢٤٧) أن لا  
يقبل علويًا ضيعة ، ولا يركب فرسًا ، ولا يسافر من القسطنطين الى طرف من أطرافها ،  
وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين العلوى وبين أحد  
خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة . ذلك لأن العلويين ما ناموا ساعة  
عن المطالبة بالملك ، فمثل هذا الأمر يضيق عليهم دائرة حركتهم ، وإن كان فى بعض  
ما يرمى اليه غير عادل .

### ادارة المعنز والمهترى والمعتمر

تولى المعنز الخلافة فأمر باحضار جماعة ممن صفت أذهانهم ، ورقمت طباعهم ،  
ولطف ظنهم ، وصحت نحائزهم ، وجادت غرائزهم ، وكملت عقولهم بالمشورة . وحاول  
أن يتخلص من الأتراك وكانوا تأصلوا فى جسم الدولة وروحها وكانوا كثروا وأنى  
كثرة فى العاصمة والولايات ، وقدرت أرزاقهم وأرزاق المغاربة والشاكرية فى سنة  
٢٥٢ فكان مبلغ ما يحتاجون اليه فى السنة مائتى الف الف دينار ، وذلك خراج  
المملكة لسنتين فاذا تأخر عطاؤهم فهناك المؤامرات والمشاغبات وخوف البدوات  
والنزوات والوثوب بالدولة .

ووسدت إمارة مصر لأحمد بن طولون (٢٥٤) من الأتراك، واستبدت يجمع أعمال مصر لما وسد إليه أمر الأموال. وكان الأمير في مصر من قبل ليس له إلا الجند والشرطة وللعامل النظر في الأموال، وكلاهما يراقب صاحبه، وهما متساويان في المكانة وربما تقدم العامل على الأمير. والأقباط منذ كان الإسلام يتولون النظر في الأموال؛ فتنظر إليهم الأمة نظرها إلى الصل والثعبان، وبراهم صاحب الأمر مختلسين. وكان مما أعان ابن طولون على استقلاله بملك مصر ثم استيلائه على الشام وما إليها أن الخليفة أمره بأعداد جيش لقتال أحد الخوارج في الشام. وبعد استئصال الفتنة لم يفض الجيش فكان له قوة نافعة في استقلاله. وكانت جمهرة الجيش من المماليك والديلمة يشتريهم كما يشتري الرقيق. وبلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك وأربعين ألفاً من العبيد الزنج ومن العرب وغيرهم. أما ابنه سخارويه فقيل إن عدة جيشه بلغت أربع مائة ألف فارس.

ولئن حسنت حال مصر على عهد ابن طولون ودرّ خراجها واستفاض عمراتها — لحسن إدارته وسياسته حتى فضلوه على بعض الخلفاء، على كثرة ماسفك من الدماء — فإن استيلائه على الأمر فيها عدّ خروجاً على الخلافة، وإن كان يخطب لها بادي بد. ولم يثبات الخلاص من دولته إلا لما قوى العباسيون سنة ٢٩٢ قتلوا آل بيتهم برمتهم، وخلفت الدولة الطولونية الدولة الإخشيدية<sup>(١)</sup> وهي دولة أعجمية أيضاً.

(١) كان يطلق هذا الاسم (الإخشيد) على ملوك قرغانة وهو لفظ فارسي معناه ملك الملوك كما يطلق على ملوك الفرس الساسانية لقب شاهنشاه «ملك الملوك» وكسرى، وعلى ملك الروم باسيل وهو قيصر، وعلى ملوك الإسكندرية بطلميوس. واليمن تبع، والترك والخزر والقرغز خاقان، والترك الغربية خترة، والصين ينجور، والمهند بلهرا، وقنوج رابي، والحبشة التجاشي، والثوبة كاييل، وجزائر البحر الشرقي مهراج. وجبال طبرستان اصفهيد، ودنباوند مصمغان، وخرجستان شار، وسرخس زاذويه، ونسا وأيوورد جهنم، وكش نيدون، وأشروسنة أفتشين، والشاش تمدن، ومرو ماهويه، ونيسابور كشتار، وسمرقند طرخون، والسرير الحجاج، ودهستان صول، وجرجان اناهيد، والصفالباة قار، وملوك السريانيين نمرود، والقبط فرعون، وباميان شيرباميان، ومصر العزيز، وكابل كابل شاه، والترمز ترمذ شاه، وخوارزم خوارزم شاه، وشروان شروان شاه، ومغارا مغارا خداه، وكوزكان كوزكانان خداه — ذكر ذلك البيهقي في الآثار الباقية.

وتولى المهتدي « والدنيا كلها مفتونة » فحاول إعادة الخلافة إلى روتقها وأمر  
باخراج الفتيان والمغنين والمغنيات من سامرا ونفاهم إلى بغداد ، وأمر بقتل السباع  
وطرد الكلاب وابطال الملاهي ورد المظالم وجلس ليرفعها فرفعت اليه قصص في  
الكسور فسأل عنها فقال وزيره سليمان بن وهب شيئا في تاريخ الخراج منذ عهد  
عمر إلى عهد المنصور فأجاب المهتدي : معاذ الله أن ألزم الناس ظلما تقدم العمل به  
أو تأخر أسقطوه عن الناس . فقال أحدهم ان أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من  
أموال السلطان في السنة اثنا عشر الف الف درهم . فقال المهتدي على أن أقرر  
حقا وأزيل ظلما وان أجحف بيت المال .

وكان المهتدي آخر الخلفاء الذين كانوا يتولون بأنفسهم القضاء والمظالم ، وربما  
كانوا يجعلون القضاء والمظالم لقضاتهم كما فعل عمر مع قاضيه أبي ادريس الخولاني  
وكما فعل المأمون مع يحيى بن اكرم والمعتصم مع احمد بن أبي دواد ، وربما كانت  
تجعل قيادة الجيوش للقضاة ، وكان يحيى بن اكرم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى  
أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس .  
وكانت تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يحملون ذلك له من وزير  
مفوض أو سلطان متغلب .

ولما هم الجند بقتل المهتدي خطبهم فقال : أما دين أما حياءكم يكون هذا  
الخلاف على الخلفاء والاقدام والجرأة على الله سوانه عليكم من قصد الابقاء عليكم ،  
ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بارطال الشراب فشر بها سرورا بمكروهكم ،  
وحبا بيواركم . ثم ذكر لهم انه لم يصل اليه من دنياهم شيء . وانه ليس في منازل  
اخوته وولده فرش او وصائف او خدم او جوارى ولا لهم ضياع ولا غلات . وكان  
حقيقة مقلا من اللباس والفرش والمطعم وامر باخراج آنية الذهب والفضة من

الجزائرت فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فحجيت (١).

وجىء بالمعتمد فقسم المملكة بين ابنه وأخيه الموفق فعلم أخوه عليه وشغل هو بلداته ، وكثر دخول الزعانف في القبض على الأعمال والفتن منتشرة ؛ ومن أهمها فتنة صاحب الزنج ، والموفق يقود العساكر ، ويرابط ويرتب الوزراء والأمراء . وقيل ان المعتمد احتاج إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها فقال :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه

وطالت أيام للمعتمد ولم يؤثر عنها ابداع جديد في الادارة والسياسة . وكان ديوان الموفق مائة الف مرتزق ، وكانت الدولة السامانية التي قامت في هذه الأيام في الشرق وتمتع باستقلال داخلي واسع ، كما يقولون اليوم ، من أحسن الدول سيرة وملوكها من بنى سامان أمنع ملوك الاسلام جانباً في عصرهم « لأنه (٢) ليس في الاسلام جيش إلا وهم شذاذ القبائل والبلدان والأطراف ، إذا تفرقوا في هزيمة وتمزقوا في حادثة ، لم يلتق منهم جمع بعده ، غير جيش هؤلاء الملوك ، فان جيوشهم الأتراك المملوكون ، ومن الأحرار من يعرف داره ومكانه ، إذا فشل منهم قوم أو ماتوا في وفور عددهم ما يعاد من بين ظهرانيهم مثلهم ، وان تفرقوا في حادثة تراجعوا كلهم إلى مكان واحد ، فلا يقدح فيهم ما يقدح في سائر عساكر الأطراف ، ولا سبيل لهم إلى التفرق في العساكر والتنقل في الممالك كما يكون عليه رسوم صعاليك العساكر وشحنة البلدان » .

وكانت طريقتهم في إقامة الأحكام ببلاد خراسان (٣) أن تضرب المقارع بين أيدي أجلة الأمراء ويشهد كل أحد في كل شيء ، غير أن في كل بلد عدة من

(١) مروج الذهب للسعودي (٢) مسالك الممالك للاصطخري (٣) المسالك والممالك لابن حوقل

المزكين فان طعن الخصم على الشاهد سئل عنه المزكى ولا يتحتم فيه إلا فقيه أو رئيس . ويختارون أبداً ببخارى أفقه من بها وأعفهم ، يرفعونه ويصدرون عن رأيه ويقضون حوائجه ، ويولون الأعمال بقوله . وفي نيسابور رسوم حسنة منها مجلس للمظالم في كل يوم أحد وأربعاء ، بحضور صاحب الجيش أو وزيره ، فكل من رفع قصة قدم اليه فأنصفه وحوله القاضى والرئيس والعلماء والأشراف ومجلس الحكم كل اثنين وخميس بمسجد رجاء لا ترى فى الاسلام مثله . وكانوا فى فارس<sup>(١)</sup> يفضلون أهل البيوتات القديمة فى أعمال الدواوين يتوارثونها فيما بينهم ، وليس فى دواوين الاسلام ديوان أصعب عملاً وأكثر أنواعاً من ديوان فارس لاختلاف ربوعها على المتقلدين لها .

هذا مثال من حالة الدولة السامانية التى نشأت فى عهد المعتضد الطويل . وذكر المؤرخون انه على قلة معرفته بسياسة الملك عمرت<sup>(٢)</sup> مملكته ، وكثرت الأموال وضبطت الثغور ، وانه كان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد ، وكان ولى والدنيا خراب والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً فسكنت الفتن ، وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهدأ الهيج ، وسالمة كل مخالف ، ودانت له الأمور ، وافتتح له الشرق والغرب ، وادبل له من أكثر الخالفين . وكان سريع<sup>(٣)</sup> النهضة عند الحادثة ، قليل الفتور ، يتفرد بالأمور ، ويمضى تدييره بغير تواف ، ولى الأمر بضبط وحركة وتجربة ، وكف من كان يتوثب ويتشغب من الموالى .

وأمر المعتضد بافتتاح الخراج فى النيروز المعتضدى وهو فى حزيران من شهور الروم ، وذلك للرفق بالناس ، وكتب الى الأقطار برد الفاضل من سهام الموارث على ذوى الأرحام ، وإبطال ديوان الموارث وكان من قبل يلحق كثيراً من الناس إعنات فى موارثهم ، ويتناول على سبيل الظلم من أموالهم ، ويتقلد جبايتها أناس

(١) مسالك الممالك للإصطخرى (٢) تاريخ ابن الطقطقى (٣) التنبية والأشراف للسعودى

يجرون مجرى عمال الخراج ، شئ لم يكن في خلافة من الخلفاء الى أن مضى صدر من خلافة المعتضد ، فجزى العمل بذلك على سبيل تأول ، فأزال المعتضد ذلك وأمر أن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله ورسوله . وعمر بن الخطاب وعل بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته . وأن يصرف جميع عمال المواريت في النواحي ويبطل أمرهم ، ويرد النظر في أعمال المواريت الى الحكام ، وكانوا يرتادون القضاة من أهل البلاد نفسها .

وللمعتضد مذهب جميل في سياسة عماله ؛ بلغه أن عامله على فارس أظهر أهبة في ولايته وأنفق ما وقعت له به هيبة في نفوس الرعية ، فسأل عن رزقه فقيل له ألفان وخمسمائة دينار في الشهر ، فقال اجعلوها ثلاثة آلاف ليستعين بها على مروءته<sup>(١)</sup> . وكتب اليه في عامل عجز في ضمانه وهو مسجون بأنه كان في أيام ولايته يفرق عشرين كرا حنطة في كل شهر على حاشيته والفقراء والمساكين من أهل معرفته ، وأنه فرق ذلك في هذا الشهر على عادته . فقال : سرني قيامه بمروءته ومعروفه . وأعفاه من أداء مبلغ كان يطالب به ، وردّه الى عمله وأحمد ما كان منه .

سارت الخلافة في طريق سوى على عهد المعتضد لسطوته ومهابته وعفته وإمساكه ، فكان مع حرصه على إبقاء سلطانه يخافه عماله ويكفون عن المظالم ، واستعمل بعضهم الشدة في حفظ الأمن . بلغ عامله بدمشق<sup>(٢)</sup> أن رجلاً أعرابياً في أذرعان تنف خصلتين من شعر أحد فرسان الدولة ، فطلب الوالى معلماً يعلم الصبيان وقال له : تخرج الى اليرموك وأعطيك طيوراً تكون معك فإذا دخلت القرية فقل لهم : إني معلم جئت أطلب المعاش وأعلم صبيانكم ، فإذا تمكنت من القرية فارصد لي الاعرابي الذي تنف سبال الفارس وخذ خبره واسمه ، فإذا رأيته قد وافى أرسل الطيور

(١) نشوار المحاضرة للتوحي . (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر

بجبرك . ثم قبض على الاعرابي وقطع رأسه وصلبه وضرب الجندى مائة عصاة وأسقط اسمه من الديوان ، لأنه استخذى للاعرابي حتى فعل بسبأله ما فعل .  
كان من جميل سيرة المعتضد مع عماله وخوفه البطش بهم إذا جنوا ما يعاقبون عليه أنه إذا نكب رجلا من جلة العمال ورؤسائهم وكل به من يحفظه من قبله وشدد الوصية في صيأته ، ويظهر أن هذا التوكيل للمطالبة وزيادتها والتشدد فيها لا ليحفظ نفسه ، لئلا يطعم العامل . وكان يقول : هؤلاء أكابر من العمال الذين قامت هيبتهم في نفوس الرعية وعرفوا أقطار البلاد ، هم أركان الدولة وأعضاء الوزارة والمرشحون لها فان لم تحفظ نفوسهم فسد الأمر . وهذا الغاية في الوقوف على نفسية العمال وحفظهم في أنفسهم . ومع هذه المسامحة واللين لم يرتفع السواد سواد العراق لأحد بعد عمر بن الخطاب بمثل ما ارتفع له أيام المعتضد<sup>(١)</sup> .

وجمع المعتضد تسعة آلاف دينار فاضلة عن جميع النفقات وأراد أن يسبها بقرعة واحدة إذا أتمها عشرة آلاف الف ويطرحها على باب العامة ليلبغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف الف دينار وهو مستغن عنها « بعد النفقات الراتبية والحادثية » واطلاق الجارى للأولياء في سائر النواحي وجميع المرتزقة بها وبالخضرة . «  
رد المعتضد ببعد نظره مصر إلى حظيرة الخلافة بعد أن كاد يذهب بها احمد ابن طولون ، وكتب إلى ابنه خمارويه بولايته عليها هو وولده ثلاثين سنة . وذلك من الغرات إلى برقة ، وجعل اليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل في كل عام من المال مائتي الف دينار عما مضى وثلاثمائة الف عن كل عام للمستقبل . ولعل ما ساقه إلى هذا التسامح مع الطولونيين ما تناصرت الأخبار عليه من أن الدولة العبيدية ظهرت اعلامها في المغرب فأحب ان يضع الطولونيين حاجزاً بينه وبينهم . ومن جميل حيلته انه طلب إلى ابن طولون ان يزوجه<sup>(٢)</sup> ابنة ابنه

(١) تاريخ الوزراء للصابي (٢) خطط الشام للولف

خمارويه واسمها قطر الندى وقال : ما قصدت بهذا الزواج إلا افقار ابن طولون لأنه يضطر ان يجهزها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل . وكان الأمر كما قال فانها جهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام . وهذا هو الزواج السياسى المشعر والترتيب الادارى الحكيم .

### الادارة على عهد المكتفى والمقتدر وكلام فى الوزراء

اكتفى المكتفى بنهج منهج والده المعتضد فى الادارة ، وكان وزيره العباس بن الحسن يقول لنوابه بالأعمال : انا اوقع لكم واتم افعلوا ما فيه المصلحة . وقد يأخذ الوزير سبعة آلاف دينار فى الشهر راتباً ، ومن الوزراء من فادوا بخمسةائة الف دينار ليصلوا إلى الوزارة . ومنهم من اعطوا المنجمين مائة الف دينار ليحتالوا على الخليفة ويغيروا خاطره على احد وزرائه ثم يتوصلون إلى منصب الوزارة . وبهذا أدركنا ان الخلفاء انحطوا والوزراء كذلك .

بيد أن قواعد الدولة لم تنزل دفعة واحدة لأن المعتضد ثبت قواعدها ، ومن يحى . بعده مها ارتكب من الأغلاط لا يقضى على عامة التراتيب الموضوعه للخلافة منذ سنين ، فصح ما قيل من ان بنى العباس<sup>(١)</sup> قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مراراً لأن اصلها ثابت وبنيانها راسخ . وخلف المكتفى فى بيوت الأموال من العين ثمانية آلاف الف دينار ، ومن الورق خمسة وعشرين الف الف دينار . وفى رواية انه خلف مائة الف الف دينار عيناً وعقاراً وأوانى بمثلها .

واستخلف المقتدر طفلاً ووالدته وخالته وأم ولد المعتضد تدير الملك ، حتى ان هذه السيدة جلست بالرصافة للعظام تنظر فى الكتب يوماً فى كل جمعة ، فأنكر الناس ذلك واستبشعوه وكثر عيهم عليه والطمع فيه . ولم يكن فى جلوسها أول يوم

(١) تجارب الامم لابن مسكويه

طائل . وفي اليوم الثاني احضرت القاضي فحسن امرها وخرجت التوقيعات عن سداده فانفع بذلك المظلومون وسكن الناس إلى ما كانوا نافرين من قعودها ونظرها . فالمقتدر في سنه الأولى خصوصاً كان يتدبر بآراء النساء والحاشية ، والسيدة وقهرماتها ومن يجرى مجراهن من نساء القصر ، يتحكن في كل امر ويتدخلن في العزل والنصب . وأمروا صاحب الشرطة ببغداد ان يجلس في كل ربع من الأرباع فقيهاً يسمع من الناس ظلاماتهم ويعتنى في مسائلهم حتى لا يجرى على أحد ظلم . وأمروه ان لا يكلف الناس ثمن الكاغد الذي تكتب فيه القصص وان يقوم به ، والا يأخذ الذين يشخصون مع الناس أكثر من دانتين في اجعالمهم .

ورد للمقتدر رسوم الخلافة<sup>(١)</sup> إلى ما كانت عليه من التوسع في الطعام والشراب وإجراء الوظائف . وكان في داره أحد عشر ألف خادم خصى من الروم والسودان . وزاد في أرزاق بني هاشم وأعاد الرسوم في تفريق الأضاحي على الفقراء والعمال وأصحاب الدواوين والقضاة والجلساء ، وأسرف في الأموال فحرق من الذهب ثمانين ألف دينار<sup>(٢)</sup> وفرق في خمس وعشرين سنة ما جمعه المنتصر والمهتدي والمعتمد والمعتمد والمكتفي . وحرار الناس في امر دولة المقتدر<sup>(٣)</sup> وطول أيامها على وهى أصلها وضعف ابتنائها ، ولم ير الناس ولم يسمعوا بمثل سيرته وأيامه وطول خلافته . على انه كان جيد العقل ، صحيح الرأي ، ولكننه كان مؤثراً للشهوات . قال التنوخي<sup>(٤)</sup> : ولقد سمعت ابا الحسن علي بن عيسى الوزير يقول ، وقد جرى ذكر للمقتدر بحضرته في خلوة : ما هو الا أن يترك هذا الرجل النبيذ خمسة أيام متتابعة حتى يصبح ذهنه فاخاطب منه رجلاً ما خاطبت افضل منه ولا ابصر بالرأي واعرف بالأمور وأسد في التدبير . ولو قلت انه إذا ترك النبيذ هذه المدة يكون في اصالة

(١) صلة تاريخ الطبري لعريب (٢) لطائف المعارف للنعالي (٣) تاريخ الطبري (٤) نشوار المحاضرة للتوخي

الرأى وصحة العقل كالمعتضد والمأمون ومن أشبهها من الخلفاء ما حسبت أن أقع بعيداً ، وما يفسده غير متابعة الشراب ولا ينجله سواها اه .  
قيل انه كان بين ابن زبر القاضي وبين علي بن عيسى الوزير عداوة وعجز ابن زبر عن رضاه فألتي رقعة في ورق المظالم ، وفيها أن رجلا من خراسان رأى في ثلاث ليال متوالية العباس بن عبد المطلب في وسط دار السلام بيني داراء فكلمها فرغ من موضع تقدم رجل لهدمه . فقال له : يا عم رسول الله من هذا الذي بليت به ؟ فقال . هذا علي بن عيسى كلما بنيت لولدى بناء هدمه . فقرئت الرقعة على المعتذر فقال : ان هذه الرؤيا صحيحة يصرف علي بن عيسى ويقبض عليه . فما جاء آخر النهار حتى وافى ابن زبر ومعه عهده بقضاء مصر ودمشق . فان صحت هذه القصة كان تصديق المعتذر حيلة القاضي من أغرب ما أثر من ضعف العقول .  
وعلى بن عيسى هذا أكبر وزراء ذلك العهد ومن الأسر العريقة في خدمة الدولة منذ ايام المعتضد<sup>(١)</sup> كان من الثقة والصيانة والصناعة على جانب ، عامل المصادر من الوزراء والعمال بالرفق ، وكتب إلى كل واحد من العمال بما جرت العادة به من تشریف أمير المؤمنين إياه بالخلع ، ورد أمر الدواوين والمملكة اليه ، وأقرهم على مواضعهم ، وأمرهم بالجد والاجتهاد في العارة ، وكتب اليهم بانصاف الرعية والعدل عليها ، ورفع صغبر المؤمن وكبرها عنها . كما كان يطالب بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها . ونظر الى من تعود اقتطاع الأموال السلطانية واقامة مرواات نفسه فيها ، وقصر في العارة واعتمد غيره . وعمر الثغور والبيارستانات وأدر الأرزاق لمن ينظر فيها ، وأزاح علل المرضي والقوام ، وعمر المساجد الجامعة وكتب الى جميع البلدان بذلك ، ووقع الى العمال وكتب اليهم في أمر المظالم وأمر بأن يستوفى الخراج بغير محاباة للأقوياء ، ولا حيف على الضعفاء . وساس

(١) تجارب الامم لابن مسكويه

الناس أحسن سياسة ، ورسم للعمال الرسوم الجميلة ، وأنصف الرعية وأزال السنن الجائرة ،  
وذبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وتصون ،  
حتى أسقط الزيادات في أقطاعات الجند والعمال وغيرهم ، لما رأى نفقات السلطان زائدة  
على دخله زيادة مفرطة تموج إلى هدم بيوت الأموال وصر فيها في نفقات يستغنى عنها .  
وكان يجري على خمسة وأربعين ألف إنسان جرايات تكفيهم وخدم  
السلطان سبعين سنة لم يزل فيها نعمة عن أحد . قال الصولي : ولا علم أنه وزير  
لبني العباس وزير يشبهه في زهده وعفته ؛ بلغة إن أسارى المسلمين في الروم  
سألت حالهم وإن الروم يحاولون تنصيرهم فعمه ذلك . ولما كان يعرف أن الخليفة  
لا يريد قتال الروم عمد إلى طرق سلمية فندب بطريق انطاكية وجاثليق القدس  
أن يكتب إلى الروم كتابا يقبحان هذه المعاملة ويتوعدان ، فاضطرت دولة  
الروم أن تحسن معاملة المسلمين . وما عابوا على علي بن عيسى الوزير إلا أنه كان  
ينظر كثيراً في جزئيات الأمور فر بما شغلته عن الكليات <sup>(١)</sup> .

منع علي بن عيسى من إكراه التناؤ والمزارعين « علي <sup>(٢)</sup> تضمين غلات  
بيادهم بالحزب والتقدير ، وإلزامهم حق الاعشار في ضياعهم على التريب ، واستخراج  
الخراج منهم على أوفر عبء ، قبل إدراك غلاتهم ونماهم ، وإكراه وجوههم على  
إتباع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة بحجة « ولما غلب السجزية على فارس  
جلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة ففض خراجهم على الباقيين وكل  
بذلك قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التكلفة تستوفي على زيادة تارة ونقصان .  
وجاء قوم من أجلاء فارس وقالوا نمنع غلاتنا وتعتاق في السكندياج <sup>(٣)</sup> حتى تهلك  
ونصير هكذا « وطرحوا من أكامهم حنطة محرقة » ونطالب بتكملة ما وجب

(١) الفخرى لابن الطقطقي (٢) تاريخ الوزراء للصابي (٣) واحد ما كندوج وهي الخزانة

الصغيرة تجعل فيها الحبوب وهي معرفة

علينا فتدعوننا الضرورة الى بيع نفوسنا وشعور ناسنا وأدائها حتى تطلق الغالة وهي على هذه الصورة « ثم رموا من أكمهم تيناً يابساً وخوخاً مقدوداً ولوزاً وفستقاً وبندقاوغبيرا، وعنابا » وقالوا وهذا كله خراج لقوم آخرين والبلد فتح عنوة، فاما تساوينا في العدل أو الجور . فأنهى على بن عيسى ذلك إلى المقتدر بالله وجمع القضاة والفقهاء ومشايخ الكتاب والعمال وجلة القواد في دار الوزارة وقد جعلها ديوانا، وتناظر الفريقان من أرباب الشجر وأرباب التكلمة فقال أرباب الشجر: هذه أملاك قد أنفقنا عليها أموالنا حتى أنبتت الغروس فيها وحصل لنا بعض الاستغلال منها، ومتى أزممت الخراج بطلت قيمتها . وقد كان المهدي أزال المطالبة ورسم الخراج عنها . وقال المطالبون بالتكلمة ما شكوا به حالهم فيها واستمرار الظلم عليهم بها . ورجع إلى الفقهاء في ذلك فأفتوا بوجوب الخراج وبطلان التكلمة .

هذا تمثيل للإدارة على ذلك العهد وصورة من أعمال الوزراء . وبأمثال على ابن عيسى وابن الفرث كانت القوة تدخل على ملك بني العباس إذا عراه الضعف ويجبرون نقص الخلفاء . ويمثل الوزير الخاقاني والوزير الخصبي ترجع القهقري . فان كان على بن عيسى بعيد النظر في أمور الدولة جدّ عارف بما يصلحها ، عفا عن أموال الرعية ساهراً على مصالحهم الحقيقية فان ابن الفرث كان نافذاً في عمل الخراج وتدير البلاد وجباية المال وافتتاح الأطراف . وكلاهما من بلغاه الكتاب ومن العارفين بأدب الملك . وكان للدولة رسوم في تخريج رجال الإدارة ومما ذكره ان بأذرويا كان يتقلدها جلة العمال . قال ابن الفرث : سمعت أبا العباس أني يقول من استقل ببأذرويا استقل بديوان الخراج، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة . وذلك لأن معاملتها مختلفة وقصبتها الحضرة ، والمعاملة فيها مع الوزراء والأمراء والقواد والكتاب والاشراف ووجوه الناس ، فاذا ضبط اختلاف المعاملات واستوفى على هذه الطبقات صلح للأموال الكبار .

وبعد أن كان الخلفاء على استعداد تام لإدارة الملك أصبحوا يعتمدون على وزراءهم فإن كانوا علماء أحياناً جرت الأمور على سداد، وإن كانوا جهالاً أشراراً زاد البلاء والشقاء، وطمع أصحاب الأطراف والنواب وخرجوا عن الطاعة، وزالت عن الجند والرعية هيبة الخلفاء وخلت من الأموال خزائهم. والواقع إذا استثنينا عهد المعتضد لا نشاهد في خلفاء بني العباس بعد عهد المأمون من كان ذا عبقرية في الإدارة، وقد لا تنتظم الأحوال حتى بوجود الوزراء المحسكين لأن للرأس تأثيره، والخليفة مرجع الأعمال وجميع السلطات فإن كان على اتزان تحتفي العيوب في إدارة سلطنته المستبدة الطويلة العريضة، وإلا فالأفلاك باد والمملك في تزلزل. وهناك خليفة يدبره أخوه، وآخر تدبره أمه وجواربها، وغيره تدبره قهرمانته، وثالث يدبره وزيره. وقل في بني العباس أن جاء خليفة كالمأمون والمعتضد من يصدر عن رأى نضيج ويعنى بملكه عناية حقيقية.

وكان الخلفاء في الجملة مشتغلين بأنفسهم ودفع أعدائهم عنهم، وكثير منهم من يقتل بأيدي الجند. وقل فيهم الرجل الرشيد بعد القاهر، وكانت الأمور تجري بقوة التسلسل، وبنو بويه ثم بنو سلجوق وغيرهم هم أصحاب الدولة بالفعل والخليفة لا عمل له في الحقيقة، بل هو أشبه بخيال محتق وراءه صاحب السلطان إذا أراد أمراً لا يرضاه العامة إلا إذا صدر عن الخليفة.

نعم صار الخليفة تابعاً للملك أو المتغلب ولم يبق شيء يقال له إدارة؛ لأن الخليفة لا يحكم حتى على بيته فأصبحت الإدارة إدارة للملك والأطراف وإدارة الفرس والترك، والشأن في السلطان شأنهم لا تكاد تسمع للخلفاء اسماً. وكان من عادة أكثر خلفاء العباسيين أن يجسوا أولادهم وأقاربهم. جرت بذلك سنتهم إلى آخر أيام المستنصر فلما ولي المستنصر آخر خلفائهم ببغداد أطلق أولاده الثلاثة ولم يجسبهم. وكان من عادة حبس أولاد الخلفاء ضعفهم بل بلاهتهم إذا أسندت

اليهم الخلافة ، و ربما انصرف أكثرهم في دور احتباسهم إلى اللهو والشراب فإذا  
خاها عجزوا عن إدارة الملك لأنهم عاجزون عن سياسة أنفسهم .  
ولقد كان الرسم في عهد الخلفاء الأول من بني العباس ان يراقب الوالد ابنه  
والابن أباه والأخ اخاه على طريقة مستورة عن الأنظار ، وتوسد إلى ابناء الخلفاء  
قيادة الجيوش وإدارة الولايات ويشتركون في السلطان إلى حد معين ، وتؤخذ  
آراؤهم في النوازل ويدخلون في مجالس المشورة فيكون لهم بذلك شيء من الوقوف  
ينفعهم يوم تولى الأمر ويعرفون أنهم شركاء في هذا الملك لهم رأى يعتد به ويجب  
عليهم الاهتمام لمصلحه

وفي عصر الأعطاط حجب ابناء الخلفاء فأصبح أكثرهم إلى الجهل والبلاهة  
يبدسون إدارة الملك في الكتب و ربما لا يرخص لهم ان يدرسوا في كل كتاب  
ويسمعون من مربيهم وأساتيدهم ما يريدون أن يسمعوهم ، ولكنهم لا يعلمون  
بالعمل شيئاً كثيراً يصح ان يكون مادة لحياتهم وحياسة الخلافة إذا أتت نوبتهم  
لتولى هذا المنصب الجليل .

« تمت »

## فهرس

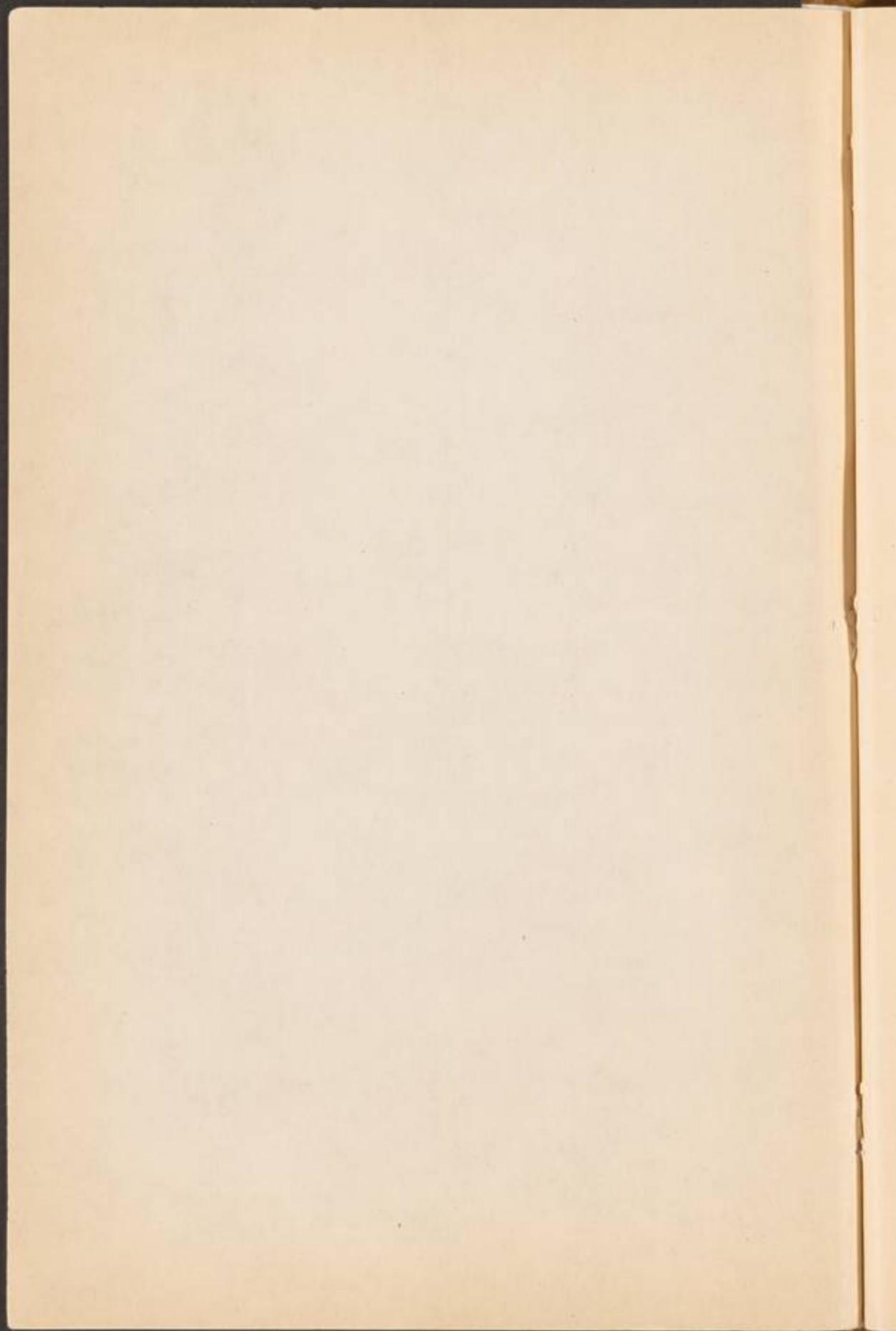
### الادارة الاسلامية في عز العرب

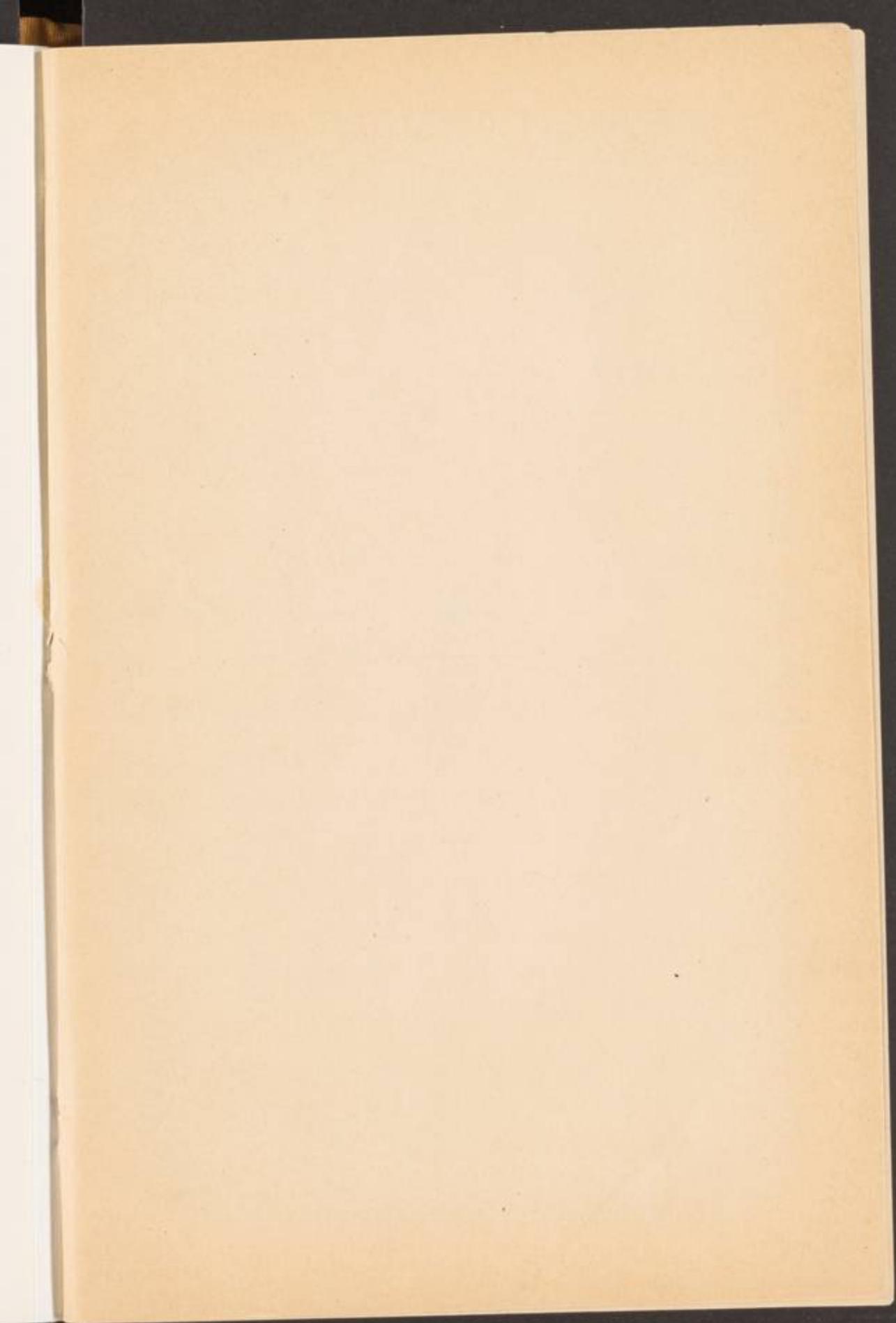
صفحة	
٣	المقدمة . . . . .
٥	الادارة الاسلامية — نظر في الموضوع . . . . .
٧	ادارة الرسول . . . . .
٢٣	ادارة الخلفاء الراشدين . . . . .
٦٥	ادارة الأمويين — الادارة على عهد معاوية بن أبي سفيان . . . . .
٨١	ادارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك . . . . .
٩٢	ادارة الوليد وسليمان . . . . .
٩٥	ادارة عمر بن عبد العزيز . . . . .
١١٤	ادارة يزيد بن عبد الملك وهشام ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد . . . . .
١٢٠	ادارة العباسيين — تداير السفاح والمنصور . . . . .
١٣٥	ادارة المهدي والهادي والرشيد . . . . .
١٤٨	ادارة الأمين والمأمون . . . . .
١٦٥	الادارة على عهد المعتصم وأخلافه . . . . .
١٧٣	ادارة المعتز والمهتدي والمعتمد . . . . .
١٨٠	الادارة على عهد المكتفي والمقتدر وكلام في الوزراء . . . . .

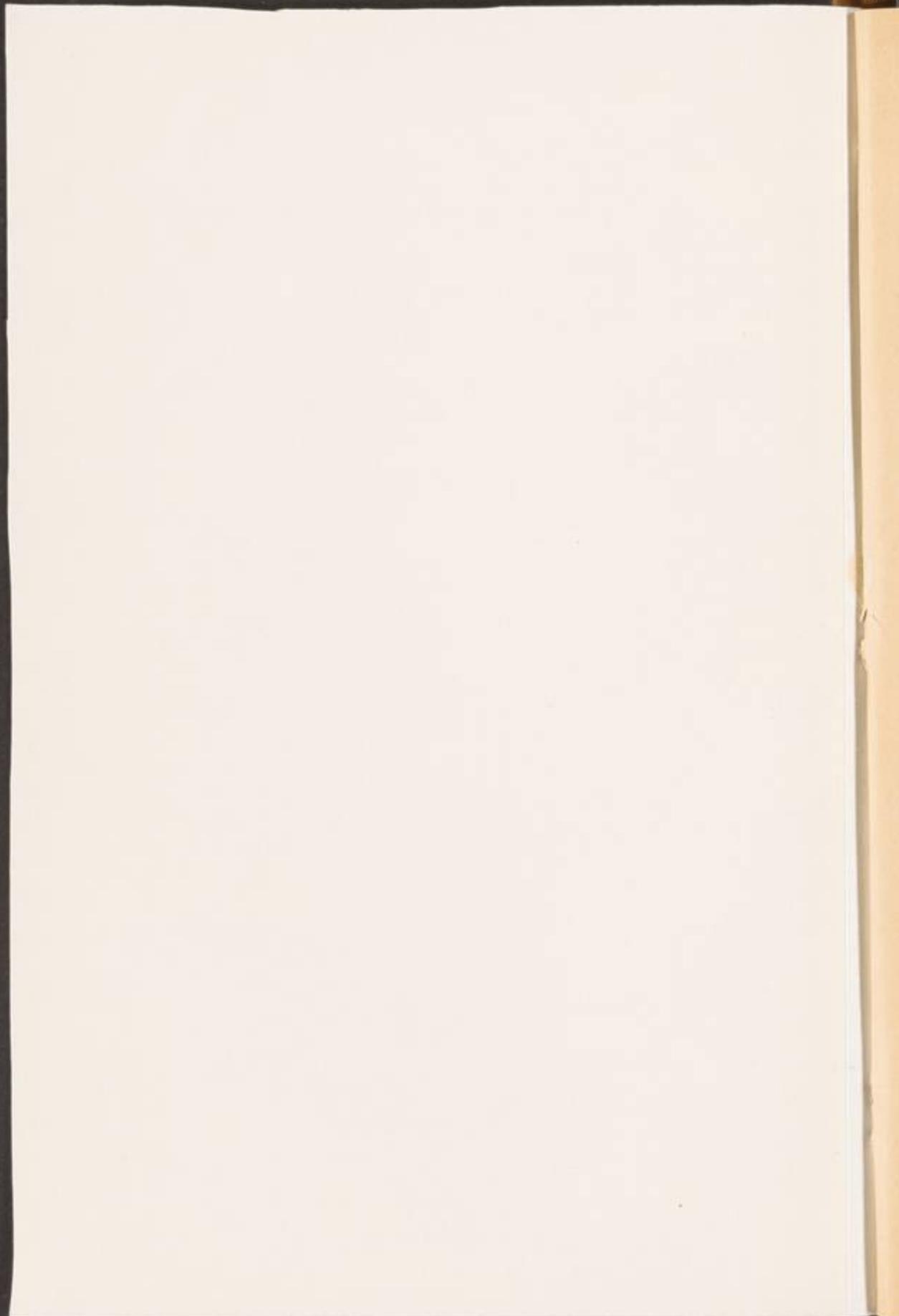


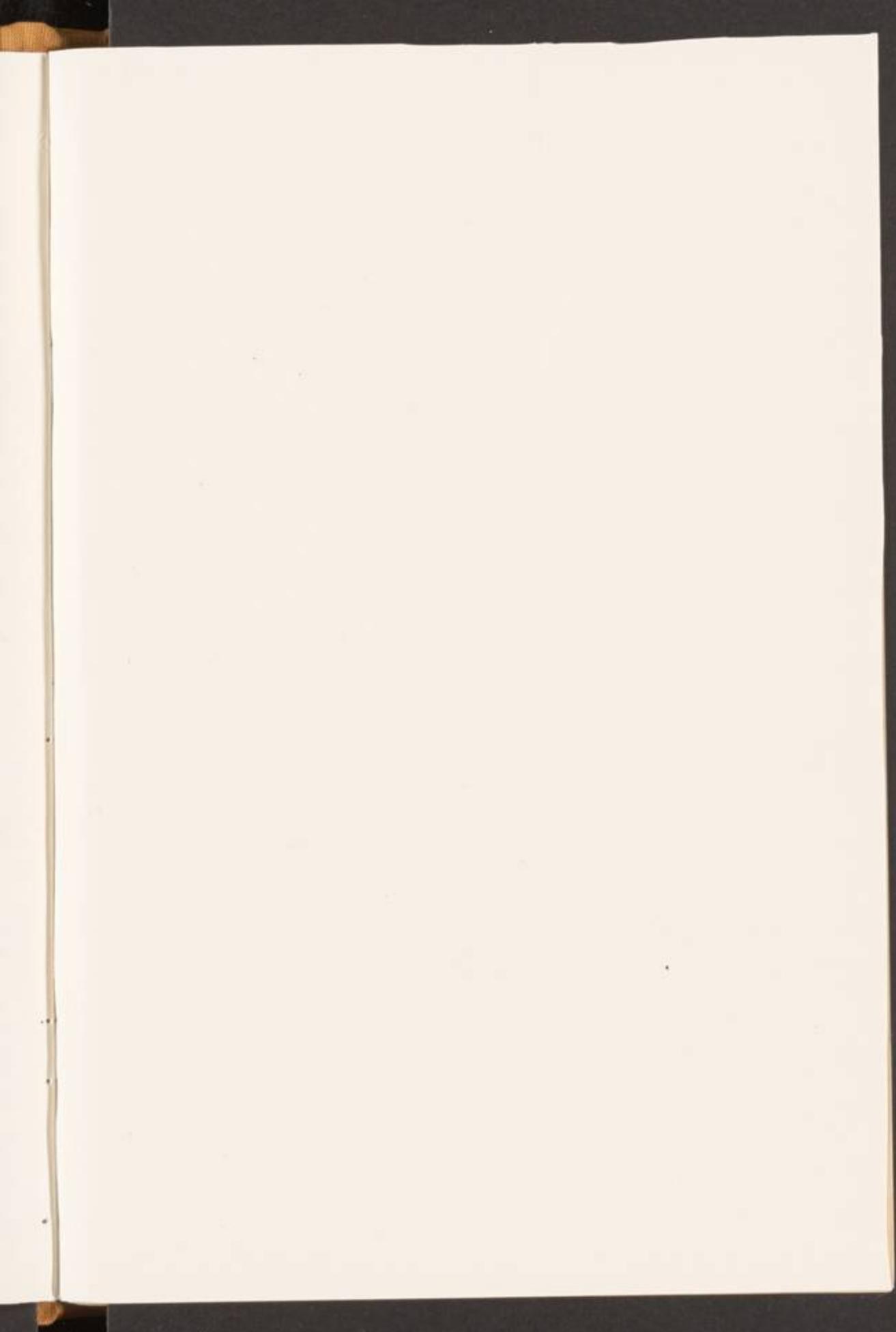
۵۰۰۰ / ۲۴ / ۱۳۸۵ مهر . ۴

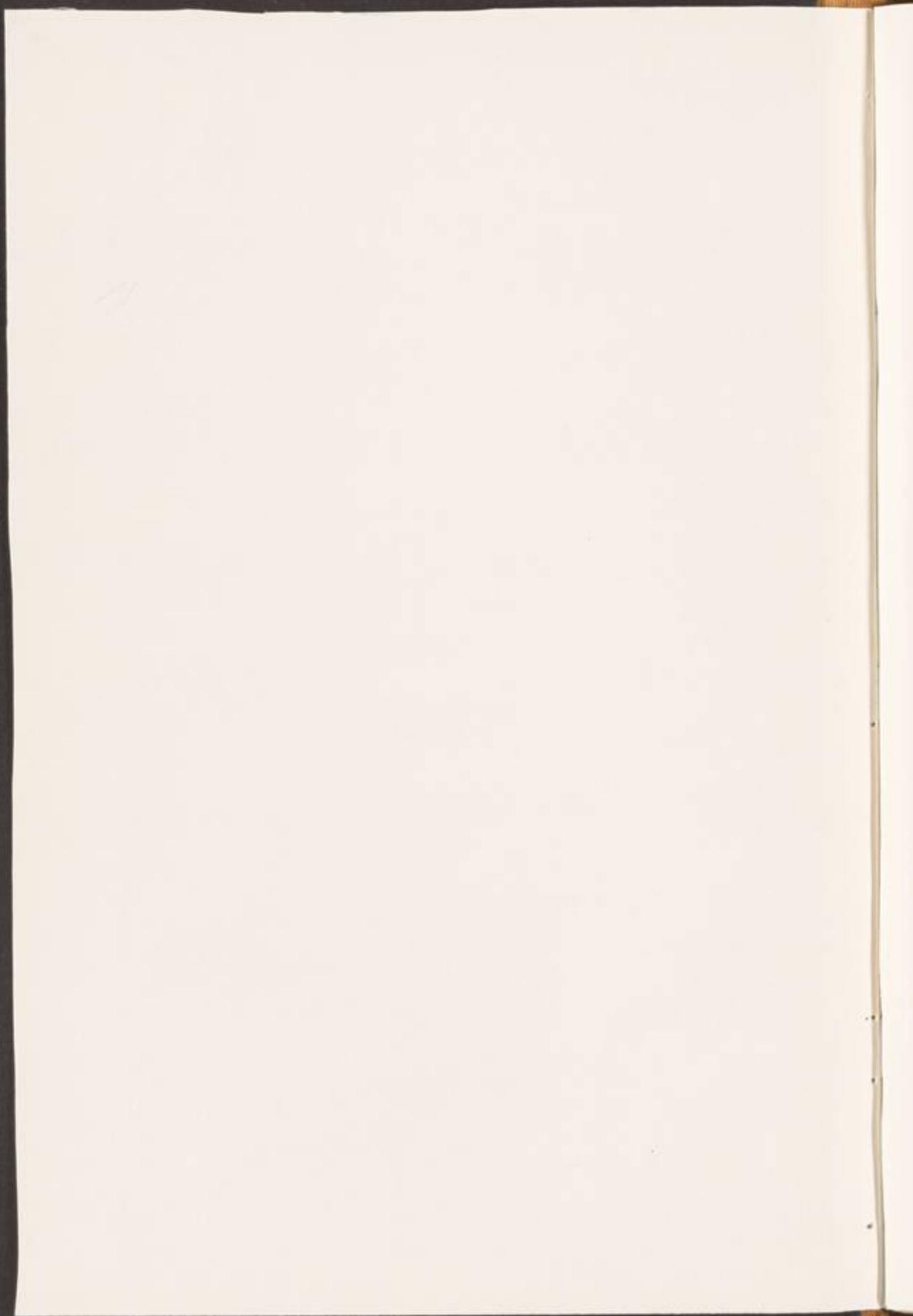
2 - 100 1000 / 1000















Elmer Holmes  
Bobst Library

New York  
University

1/15/04 LB

NYU - BOBST



31142 02651 0738

DS223 .K8 1934

al-Marah al-Islamiyah fi l-izz